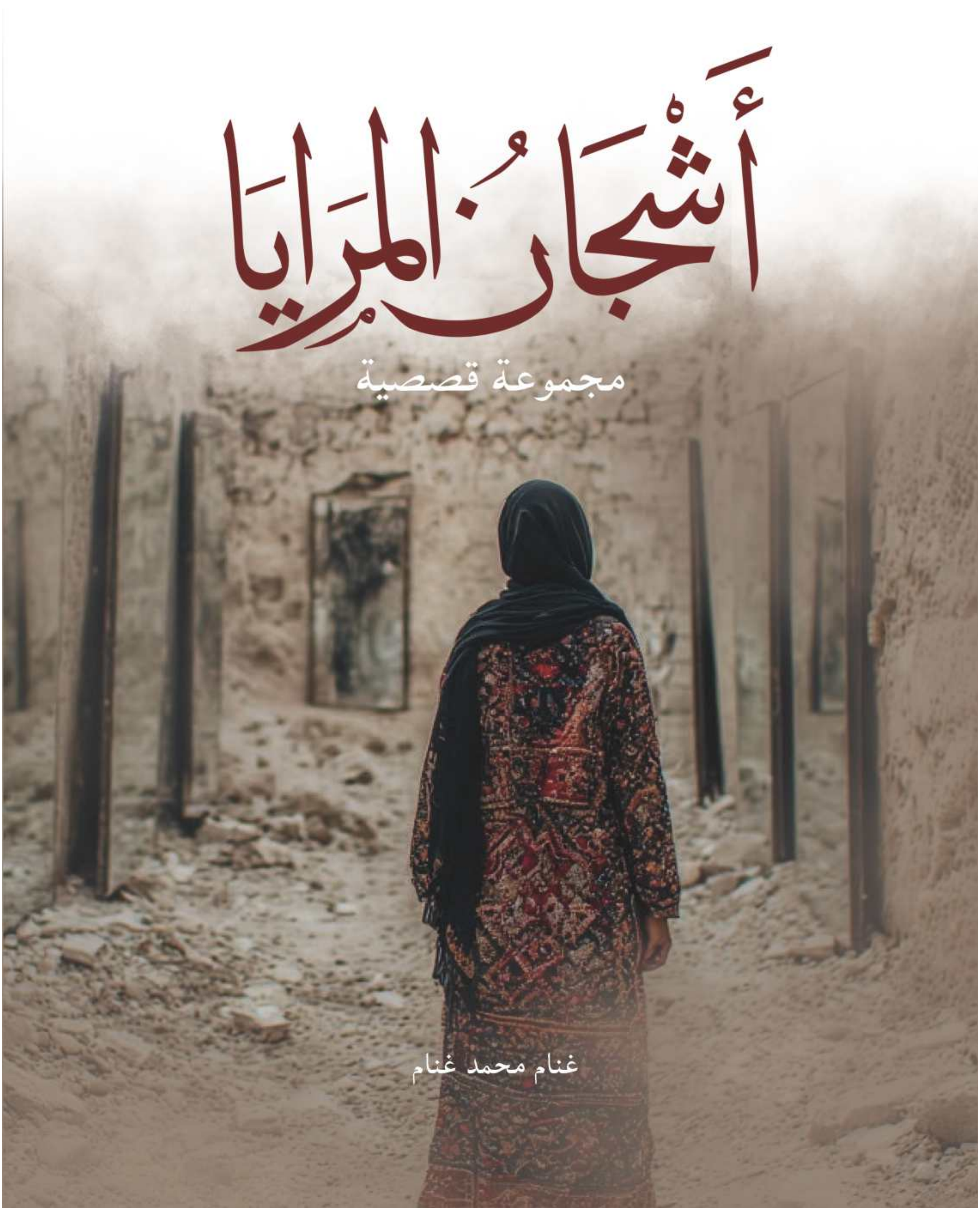
أَشْجَانُ المِرَايَا

مجموعة قصصية



غنام محمد غنام

المجموعة القصصية

أشجان المرايا

قصص خارج حدودها

ليست سوى شظايا من مرايا كثيرة

غنام غنام

أشجان المرايا

مجموعة قصصية

- غنام محمد غنام
- الطبعة الأولى : 2025
- رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الفلسطينية: (PS-2025-143)
- مركز بيت المقدس للأدب

تنبيه:

أيها القارئ العزيز:

لا تنتظر منّي حياداً...

هنا أنحاز للمخيم بكل جرح يلمع تحت شمس اللجوء، وكل حكاية تنبت بين الخيام. لا تبحث هنا عن دموع تبكيك، أو حماسة تلهب مشاعرك، بل عن قناعة تُغيّرك.

هذا المكان ليس طوباً وصراخاً فحسب، بل أصل الحكاية وجذر الأسئلة التي تُقلقك في الليل. تحت قبَّة الخيمة — حيث تُعلَّق الأحلام وتتشظَّى المرايا — سأدفعك إلى مواجهة ذاتك، لا متفرِّجاً، بل الشريك الفاعل في السؤال: ماذا لو كنت هنا؟

المخيم في نصوصي ليس خلفية، بل قلباً يخفق بدم الذاكرة وبذور التمرُّد. فاقرأني كما أقرأ نفسي: عاشقاً لهذا المكان الذي يحملنا — رغم كل شيء — فوق حافة الوجود، وحاملاً لك عبء السؤال:

أيُّ عالم تريد أن تصلح بعد أن تقرأ؟

هذه القصص ليست سرداً يُروى ليُنسى، بل ضربة إزميل تُهشّم قناعاتك القديمة، فتحدث شرخاً في صمتك، وتضيء زاوية من عالمك لم ترها من قبل.

سأُريك كيف يولد التمرّد من تحت الصفيح، وكيف تبنى القيم من بين الركام. لن تكون قارئاً، بل شريكاً في الحكاية لتغيير نفسك أولاً، ثم عالمك.

فهل أنت مستعد لأن تحرق ما تعرفه عن الحب، والعدل، والوطن، والقضية، قبل أن تدخل أرض حكاياتي؟

إهداء

إلى فلسطين... الأرض التي تُعلّمنا أن للقصص جذوراً أعمق من الحكايات.

إلى الشعب الفلسطيني الصامد، الذي يقاوم بقلب لا يعرف الخوف، وروح لا تعرف اليأس

إلى أبناء غزة، الحصن المنيع، الذين يكتبون بأرواحهم وأجسادهم ملحمة صمود لن تنساها الأجيال

إلى أرواح الشهداء الذين ارتقوا إلى السماء، حاملين معهم عبق الحرية ونداء الوطن

إلى الأسرى الذين يقاومون خلف القضبان، ويحولون السجون إلى منابر كرامة، والجرحى الذين يحملون في أجسادهم قصصاً من الألم والأمل.

وإلى كل معلم ومعلمة، وإلى كل تربوي يبحث عما يغذي به عقول طلابه بالنافع والمفيد، ليكونوا جيلاً واعياً يحمل راية العلم والحرية

وإلى كل محب للغته ووطنه، وإلى كل فلسطيني يؤمن أن التحرير قريب، وأن العودة حتمية

هذه الكلمات هي وقفة إجلال لكم، ولإيمانكم الذي لا يتزعزع، ولإصراركم الذي يضيء درب الحرية

المقدمة

في عالم تتناثر فيه الحكايات مثل أوراق الخريف، تأتي "أشجان المرايا" لتصطاد اللحظات التي لا نراها.، تلك التي تختبئ في زوايا الروح، بين أضلعنا، وفي شقوق مدننا المهشمة.

هذه المجموعة القصصية هي أولى خطوات الكاتب غنام غنام في عالم السرد، وُلِدَت من رحم المخيم وأسئلته الوجودية، ومن سنوات طويلة من المراقبة والتأمل. هنا لن تقرأ قصصاً تقليدية، بل ستدخل إلى عوالم متداخلة؛ شخصيات قد تكون أنت، أو جارك، أو ذلك الغريب الذي لم تتبادل معه نظرة واحدة.

ستقابل طفلاً يحمل مفتاح بيته المدمر كتميمة، وامرأة تجد في صمتها لغة أصدق من الكلام، ورجلاً يكتشف فجأة أن حياته مجرد حكاية كتبها آخرون عنه. سترى نفسك في مرايا هذه الشخصيات، حتى لو اختلفت الظروف والأشجان. لأننا في النهاية نتشارك ذات الهواجس: الخوف، الحب، الانتظار، والبحث عن معنى في عالم يبدو أحياناً بلا معنى.

هذه ليست مجرد قصصٍ للقراءة. بل للاعتراف داخل غرفة كل قصة. اعتراف بأننا نحمل جميعاً جراحاً لا تظهر، وأن تحت جلودنا حكايات تنتظر من يسمعها.

كتبت هذه النصوص بلغة عربية راقية، لكن دون تعقيد، لأن الكاتب يؤمن أن الجمال لا يكمن في المصطلحات الصعبة، بل في القدرة على قول الأشياء العميقة بكلمات بسيطة. هذه المجموعة تحاول أن تكون جسراً بين التراث السردي العربي ولغة العصر، لتثبت أن قصتنا الفلسطينية – والعربية عموماً – يمكن أن تُروى بطرقٍ جديدة، دون أن تفقد جوهرها.

يمكن للمعلمين استخدام هذه القصص كنقطة انطلاق لمناقشات صفية حول الهُوية، اللغة، أو حتى الكتابة الإبداعية، فهي تقدم مادة غنية للحوار دون أن تكون وعظية.

في النهاية، "أشجان المرايا" هي دعوة لك، أيها القارئ:

ربما تكتشف أن هناك أبواباً لم تكن تعلم بوجودها أصلاً في نفسك.

مركز بيت المقدس للأدب

2025

شكر وتقدير

بقلب ممتنٍ وكلمات لا توفيكم حقكم، أرفع جزيل امتناني إلى:

–رفاق الدرب الأدبي:

للأصدقاء والزملاء الذين منحوني وقفاتهم النقدية الثمينة، وتفاعلوا مع النصوص بصدق، فكانت ملاحظاتهم مِشرطَ جراحٍ يُصلح لا يجرح، خاصة:

– الأديب وليد الهودلي (الذي رأى في كلماتي ما لم أره).

– الدكتور نديم شراب (بصيرته الأكاديمية التي وسّعت آفاق النصوص).

– المعلم إبراهيم مصباح والمعلمة إسلام حجازي (بلمساتهما التي جعلت الحكايات أقرب إلى الواقع).

–عائلتي، حصنِي الأخير:

–إلى أهلي الذين زرعوا فيّ حب الحكاية منذ الطفولة، وجعلوني أرى في كل قصة إرثاً فلسطينياً يُروى.

–إلى زوجتي، التي تحملت سهراتي الطويلة مع القلم، وكانت أول قارئةٍ تمسح دمعتها على سطر، أو تُبدي ابتسامتها على آخر.

– كل من آمن بالكلمة:

لكل من قرأ مُسوَّدة، أو شجع بكلمة، أو شارك برأي... أنتم صنعتم لهذه المجموعة أجنحةً لتطير بها إلى أيدي القراء.

الشكر كلمة صغيرة لحضور كبير مثلكم... فاقبلوها مع محبة لا تنتهي، ودعاء أن يبارك الله فيكم كما باركتم عملي.

الفهرس

الرقم	اسم القصة	الصفحة
1	**رصيف أم محمود** عندما تتحول المرأة إلى أسطورة مقاومة	1
2	**عرين** قصة تبحث عن الضوء في زقاق الظلام	12
3	**أسيا.. (قصة طفلة من سوريا)** تنزف من القلب قبل العينين	23
4	**الجميزة** حكاية تذيب الحدود بين الأمل واليأس	29
5	**الحاجز (إهداء إلى شهيد يوم الأرض أحمد الشيخ اللحام)** عودة الزمن بين الماضي والحاضر	45
6	**الخيمة (99)** الحياة بين الجدران والذكريات	52
7	**الكنعانية: أسطورة الحوار والصمود** ملحمة الأرض التي لا تنحني	68
8	**ميلاد في سوق القطانين (إهداء إلى روح الشهيدين ليث الخالدي وعبد الرحمن قاسم)** رحلة من الحزن إلى الخلود	73
9	**المسير** رحلة من زقاق المخيم إلى أسوار العودة للمدينة الذهبية	86
10	**الممر** ممر يحمل عالماً من الأسرار	106
11	**الموءودة** هل تجرؤ على مواجهة الحقيقة؟	116
12	**اليد المرتجفة** ثلاثية الألم والأمل والغفران	129

13	**الزيارة** تعلمك أن القضبان لا تمسك الأحلام بل تطلقها تطير بجناحين مكسرة	141
14	**خمس درجات وزقاق** رحلة الحب التي لم تصل	148
15	**على أطراف الوادي** حيث ينبت الأمل بين أنياب الغربان!	160
16	**كمامة** حكاية طفل زمن الوباء والفقر	178
17	**نهر بضفتين (مستوحاة من أحداث حقيقية)** إعاقة الجسد لا تعني عجز الروح	184
18	**واستوت على الجودي** بعد الطوفان تشرق شمس جديدة على الجودي	194
19	**رحلتي مع العصا (قصة عن الاستغفار)** حين تصبح ذكرى الصالحين نوراً	209
20	**العم ربيع** حبة برتقال تعلم العالم أن التضامن لا يعرف حدوداً	219
21	**ظلال الشاشة والندم** عندما تهدد الشهرة قيم الأسرة	223
22	**هند لم تكن مجرد رقم** عندما تصبح الطفولة ضحية	227

رصيــفُ أمّ محمــود

أعرف دكّاني أكثر ممّا أعرف وجهي في المرآة. في زاوية السوق القديم، حيث رائحة البُنِّ تختلط بعبق التوابل، أقف خلف طاولتي الخشبية كلَّ صباح منذ ثلاثين عاماً. أعدُّ القهوة بحركات آلية، أسمع همسات الزبائن وضحكاتهم، وأشهد على قصص الشارع التي تتكرّر أمامي كفيلم قديم.

لم أكن مجرّد بائع للقهوة... بل سجّان الذكريات الوحيد في هذا المكان. في زاوية أخرى من الرصيف، لا يصله صخب السّوق، وفي لحظة استراحة نادرة، بين غليان القهوة وصرير الباب، أرفع نظري نحو الزاوية الأخيرة من الرّصيف.

تجلس بمفردها هناك، جميلة بوقارها، هادئة ونسيم الرّيف يحيط بها، امرأة يعرفها الرّصيف الضّيق من نداءات زبائنها الحنونة: "أمّ محمود".

في ساعة من النّهار، يلوح على محياها حزنٌ رقيق، وظلّ غيمة عابرة، تتحرّك بنشاط يعاند ستة عقود من السنين أو أكثر، تحملها في ثنايا ملامحها وخطواتها الواثقة.

ثوبها الأسود مطرّز بِلُغةٍ لا يفكُّ رموزها إلا من وُلِدَتْ قدماه في تراب فلسطين، كُلُّ غرزة حرف من هُجاءِ القضية، وكلُّ خيط سطر من أسفار الحق المغتصب.

"الغرزة الفلاحيّة" تحمل في انحناءاتها عبق زيتون جنين، و"غرزة" تحاكي تضاريس الجليل حين تعانق السماء بجذور من صبر. أما "غرزة الياسمين" فتسرد سرَّ بيت في غزّة صار أرضاً، وأما "غرزة الحنظل" فتصفع من يقرأها بوعي العودة الذي لا يموت.

حين تتحرّك أمُّ محمود، يئنُّ الثوب بقصيدة من دم وتمرّد، فالمِغزل الذي نسجه كان يَخْطُطُ خريطة فلسطين بكل حكاية مَخْبُوءةٍ تحت الجلابيب.

العين الغريبة ترى زخارف جميلة فحسب، أما ابن الأرض فيسمع في كُلِّ عقدة صرخة "يافا"، ويلمس في تقاطعها خيوط وميض قنديل من "لُدّْ". وبين كل غرزتين تنادي "القدس" كل الخيوط لتجتمع حولها لتفك حصاراً من خيوط دخيلة ستغيرها.

الثوب ليس زيّاً... إنّه وثيقة منسوجة بِإبرةِ المقاومة، لغتها لا تقرأ بالعيون، بل بالجراح. يحيط بخصرها حزام عريض مُزيّن، يقسم الثوب إلى نصفين، لترى فلسطين نفسها تنعكس في تلك القسمة المؤلمة، فتذكرني بجرح لم يندمل.

وأنا أتأملها، لا بد يخطر في بالي:

- الحياة أحياناً تأخذ منّا أجمل ما نملك، تخطف اللحظات والأماكن التي نحبّ، وتترك خلفها أثراً من ألم يلون ملامحنا، وشاهد صامت على ما فقدناه.

هنا في زاوية الدّكان الضيقة، حيث رائحة البنّ تختلط برائحة البارود، أجلس صباحاً أرقب الشارع وهو يغلي. مرجل على نار "انتفاضة الحجارة". أقابلها وجهاً لوجه، كما يقابل الجائع رغيفه قبل أن يشقه إرباً. لوعة وشظفاً.

لكن أيام الإضراب الشامل تأتي، فنطوي أبواب محالنا كما نطوي صحائف كتب عليها بالدم:

- "هذه أرض ترفض أن تكون سوقاً للغرباء".

الشوارع تتحول إلى موجة من الحجارة والإطارات المشتعلة، "والقبعات الخضر" تفر من سطوة الصبية العراة من السلاح، إلا من حجارتهم وغضبهم.

وأحياناً، يفرض حظر التجول علينا، فنبقى خلف الجدران نسمع صفير الرصاص يعبث بالظلام، وأقدام الجنود تدقُّ رؤوس الأرصفة. حتى الزيتون في ساحة البيت الخلفية ينحني خوفاً، وأنا أعدُّ حجارة ابني تلك التي يخبئها تحت الوسادة، فهي بذور لغد لا بدَّ آت.

الدكان يصير خيمة انتظار. الرغيف يتحجر، والكرسي يتذكر وزن الجالسين عليه قبل أن يحملهم الرصاص إلى عالم الشهداء.

وأنا هنا أمسك بمفتاح الدكان، وأتمتم بالوصية، وأعرف أنَّ الحجارة التي تتهادى من سطح دار الجار ليست سقوط نجم، بل هي لغة الأرض حين تتكلم.

منذ أعوام وهي تجلس على مقعدها الخشبي الصغير الذي نسميه "القَرْطة"، تبقى هناك. جزءٌ من المكان.

أمامها "بسطة" صغيرة، منظمة بعناية، تعرض خيرات الأرض وغنائمها، كنوزٌ لا تُقدّر بثمن. تعتني بها بحنان، تبلّلُها بالماء، وتقلّبها برقّة، تُعدّها وتحصيها، تتلمس فيها ذكرياتٍ عزيزة.

أحياناً أراها تتأملها بعينين حزينتين، تتذوق مرارةً نبتت في أرض تربطها بها قصة قديمة من الألم والفقد.

أشعر أحياناً أنها تتفقد أولادها الذين أنجبتهم تلك الأرض: "الزعتر الأخضر، العكوب الشّوكي، السّبانخ الطّازج، النَّعنع الفوّاح، البقدونس الأخضر، كومة من الخبيزة والجرجير... وعلى الطرف رزمٌ من البصل الأخضر."

كلّ ورقةٍ تحمل قصّة، وكلّ رزمة تهمس بحكاية.

على الرصيف، تلمع عيون أمّ محمود السّوداء تحت أشعة الشمس، تترصد حولها. خلفها تتداخل أصوات البائعين مع ضجيج "الحسبة"، بينما يطلّ مقهى "أبو جلال" عن يمينها، وملحمة "أبو وديع" عن يسارها.

ألاحظ أنَّ أحداً منهم لم يمنحها الاهتمام الذي منحته إياها، ولم أرها تدخل دكاناً غير دكاني لطلب حاجة ما. فمقولة "المحبة من الله" قد وجدت طريقها إلى قلبي قبل دكاني، جعلت منها زائرة دائمة، تحمل معها كل مرة شيئاً من دفء الريف وصدق العاطفة.

بجانب أمّ محمود، تقبع عدّة صُرر سوداء، مغلقة بإحكام، أسرار لا تفصح عن نفسها. لا تعرضها للزبائن، ولا تبيع منها شيئاً، كنوز محفوظة لمن هم أهل لها.

كثيراً تساءلت:

- ما قصتها؟ ما الذي تخبئه تلك الصُرر؟ ولماذا تبقى مغلقة بهذا الإصرار؟

لم أجرؤ على سؤالها، فربما تحمل في طياتها حكاية لا أستطيع فهمها بعد. فتلك الصُرر تختفي واحدة تلو الأخرى، وأحياناً، أشخاص قلائل يأتون خفية، يأخذون منها صُرّة دون أن يدفعوا ثمنها.

لفتوا انتباهي مرّة، فجميعهم متقاربون في العمر واللباس والهيئة، أطياف من عالم موازٍ تزور البسطة الصغيرة.

- من هم؟ ولماذا يأتون؟ وما تلك الصُرر التي تمنحها أم محمود دون مقابل؟

أقول في نفسي وأنا أتأمل هذا المشهد الغامض:

- كم هي عظيمة أخلاق الطبيعة الهادئة، تعطي بلا حدود، بلا شروط... تعطي كلّ شيء، حتى تلك الصُرر التي تحمل في داخلها أسراراً لا نعرفها. هل هي هدايا للغرباء؟ أم رسائل من الماضي؟ أم مجرد لمسة إنسانية في عالم ينسى أحياناً معنى العطاء؟

في غمرة ذكريات الماضي وأثقاله، تتجسد صورة أمّ محمود في مخيلتي، امرأة حملت عبء الحياة قبل أن تحمل زهرة عمرها. طفولة مقتطعة من زمن مضى، وحلم لم يكتمل، انزاحت براءتها تحت وطأة الظروف القاسية.

الجلوس الطويل في الدّكان يعلمك أن تتخيل، أن تعصف بذهنك لأبعد مدى في نسج القصص والخيالات، فأتخيلها في يوم زفافها المفترض، جسداً ناحلاً يحمل ثياب العرس، وقلباً يرفض أن يصدّق أنه لم يعد لها من مأوى إلا بيت رجل سيشاركه قلبها مع أخرى.

والدها الأرمل، أشيب الشعر، يقف بجانبها، يزفّها إلى عريس اختار أن يتزوج عليها بثانية. واقف هناك، فقد شاب شعره قبل أوانه من هول النكبة، تسلّم إليه مصيرها أمانة لم يعد بمقدوره حملها. أمها غائبة بجسدها، حاضرةٌ بجرحها، لأنَّ رحلة اللجوء لم تترك لها وقتاً لتتعلم كيف تكون ابنة قبل أن تُجبَر على أن تكون زوجة. مخضبة بالحناء، جميلة كزهرة برية، تحني رأسها بخجل، بينما تزفّها زغاريد نسوة الحارة والقريبات، ليودعن طفولة لم تكتمل.

خلفها عربة تحمل "عفش" بيتها المتواضع: أربع فرشات قطنية حيكت بعناية، ولحافان مورّدان، وست مخدات حريرية، وصندوق خشبي أخضر يحظى بعناية العتّال. وفي خلفية المشهد، يلهو صبيان وبنات بجمع حبات "الملبّس" المتناثرة، مهمة الفرح التي لا تكتمل دونها. وهي تتأمّل كل هذا من أسفل طرحتها، وتسأل نفسها في صمت:

- هل هذه بداية سعادتي؟ أم نهايتها...

في هذا المشهد المُفعَم بالتناقض، يظهر وجهها الصغير مستسلماً بظاهره، يحمل في طياته تمرداً صامتاً. ربما رضيت بالقسوة لأنها لم تعرف غيرها، أو لأن الحياة علّمتْها أنَّ الدموع لا تغيّر من الواقع شيئاً.

أسئلتها تظل معلّقة في الفراغ:

- لماذا تعطى لرجل لا يكفيها؟ ولماذا عليها أن تفقد دفء الأمومة لتجد نفسها في عالم لا يرحم الضعفاء؟

هكذا أراها في مخيلتي امرأة ولدت من رحم المعاناة، وحكم عليها أن تكبر قبل أوانها.

لحظة تحمل في طياتها حنيناً وحزناً لمستقبل مجهول، والزمن وقف ليروي قصة امرأة حملت عبء الحياة قبل أن تعرف معنى أن تعيش.

وأردّ عليها في خيالي:

- أم أنَّ أكبر أمنياتك أن تصبحي عروساً...

من المتوقع أنَّها أنجبت خمسة أولاد، وثلاث بنات أو أكثر، تزوَّجوا، ثمَّ سافر بعضهم، قد يكون أحدهم معتقلاً بالمؤبد، وزوجها توفي بالجلطة؛ لأنَّ أحدَهم استشهد في الانتفاضة.

حياتنا كذلك... فيها الجميل، ويلحقه الحظُّ العاثر، الذي يمكن أن يحدث لأيّ إنسان...

- هل ستختلف حياة أمِّ محمود عن الجميع؟

فوق رصيف السوق تجلس أم محمود كما تفعل كل صباح منذ أعوام غاب عني عدّها. بيننا بضعة أمتار فقط، لكنها مسافة لا أجرؤ على عبورها بسؤالي. كم مرة أردت أن أسألها عن أيامها الأولى هنا التي تخيلتها طرقاً جبلية تأخذني معها إلى أعلى نقطة من الخيال، كيف كانت تبدو هذه الساحة في زمن لم أعرفه. لكنَّني أعرف أنَّ إجابة من زمن الخمسينيات ستكون مختلفة عن كل ما أعرفه.

أقترب منها كل يوم، أختار ما أحتاجه من بضاعتها المرتبة بعناية، لا أساوم في السعر، لا أفتش في السلع. كل شيء واضح هنا، صريح، بلا حاجة لكلمات زائدة. حتى علاقتنا لا تحتاج لكلمات كثيرة.

في الصباح نتبادل التحية:

–صباح الخير يا أم محمود...

–صباح الخير يا ابني أبو نضال...

هذا كل ما في الأمر.

لا أحاديث جانبية كثيرة، لا أسئلة عن الأحوال، لا تفاصيل عن الحياة. مجرد اعتراف صباحي بوجودنا في نفس المكان، في نفس الزمان. ربما هذه هي أصدق العلاقات، تلك التي لا تحتاج إلى "بروتوكولات".

أمّ محمود امرأة متديّنة، ومتحدِّثة لَبِقة مع الزبائن، أحمل لها الكثير من التَّقدير، عندما تقابلني، تسألني أحياناً عن حالي وصحتي وأولادي، تطلب تعبئة دلوها الصغير بالماء بلباقة غير معهودة؛ لترشّها على خَضْراواتها، وتحتمي بمظلَّة سوداء صغيرة أيام المطر، وتختبئ في دكاني عندما يشتدُّ عليها الزّخُّ.

تمضي الأيام، وأمُّ محمود لا تخلف وعدها بالحضور، ترابط على الرَّصيف في فيح الصَّيف، وبرد الشِّتاء، وجمال الرَّبيع، فصول وأيام وساعات تحيا بجواري حاضرة طوال العام.

اليوم الأربعاء.. والرصيف يبدو شاحباً. حركة المارين قليلة، بل نادرة، والمدينة قررت أن تتنفس بصعوبة اليوم. كل خطوة تتردد هنا تترك صدىً غريباً، صوت دقات ساعة حائط في بيت مهجور أقوى من تلك اللحظة.

أحصي المارين واحداً بعد واحد، هناك رجل عجوز يسحب قدميه، يحمل ذكريات قرن كامل على ظهره، وطفلان يجران حقائبهما المدرسية ببطء غير معهود، وسيدة تهمس لنفسها وهي تمرُّ مرور الخيال. حتى بائع الفول المجاور يبدو متضايقاً من هذا الصمت غير المبرر. يسألني بنظرة:

- هل لاحظت أنَّ اليوم مختلف؟

فأومئ برأسي متفقاً معه وأنا أحدق في "القرطة" الخالية.

شمس الضحى التي تنتظر أم محمود كل صباح، بدأت اليوم تنسحب باكراً.

لا عجب.. فمنذ أعوام لم تتخلف عن موعدها مع الشمس. عندما تأتي تنثر نوراً إضافياً على الرصيف، فتصبح الدكاكين العتيقة أكثر بهاء، وتتحول وجوه المارين إلى لوحات أقل قتامة.

الآن وأنا أقف أمام "قرطتها" الخالية، أدرك السر، هي لم تكن مجرد بائعة.. بل القلب النابض لهذا الرصيف. حضورها يخفف من ثقل خطوات المارين، ويجعل من شمس الصباح هدية لا معادلة فيزيائية.

كل شيء اليوم يبدو ميتاً لأنها غائبة، فالرصيف فقد روحه، والباعة فقدوا بريق أعينهم، حتى ضجيج السيارات البعيد صار أشبه بأنين، وتساؤلاتي تتدفق:

- هل غيابها هو سبب هذا الخمود؟

- أم أن المدينة تعاني أصلاً، وكنا نراها حية فقط لأنّها كانت تتنفس من خلالها؟
- أين ذهبت تلك السيدة التي حوّلت روتين الصباح إلى قصيدة؟

مساء أغلق دكاني ببطء، وألف مفتاح القفل بين أصابعي، بينما يلتفت رأسي وجسدي معه نحو "قرطة" أم محمود الفارغة. حسرةٌ عميقة تتسلل إلى قلبي، تساؤلاتٌ لا تجد إجابة:

- لماذا غابت؟ أين هي؟

تمنيت في تلك اللحظة لو أنني اقتربت منها أكثر، لو أنني عرفتها بعمق، بدل أن أبقى أسيراً لرغبة مكبوتة، وقلق صامت. فعقدت العزم على ألّا يضيع يوم غد هباء، ووعدت نفسي بأن يكون لي معها حديث طويل..

جاء الخميس مسرعاً كما تمنيت، لكنّ أم محمود لم تحضر. وقفت أقتفي أثرها بقلب حزين وانتظار متعب. عيناي ترقبان الرصيف بحزن أكبر، تعدّان خطوات المشاة، تتأملان وجوه المنتظرين الذين يقفون بجانب "البسطة" الفارغة و"القرطة" التي تشكو غياب صاحبتها.

مسراتٌ كثيرة يفتقدها العابرون هناك، يقفون لحظات، يدورون حول المكان، لقد أضاعوا شيئاً ثميناً، ويصرّون على البحث عنه...

أم محمود بالنسبة لي فقرة ثابتة في صفحة يومياتي، وجب عليّ أن أقرأها يومياً. فبدونها يفقد يومي معناه، وتنقص قصتي شيئاً أساسياً.

هي جزء مني ومن هذا المكان، وذاكرة الشارع، وفي زاوية الرصيف تحديداً، يجلس الفراغ الآن.

ذلك الكرسي الخشبي المهترئ، الذي حمل لأعوام وزن امرأة واحدةٍ استطاعت أن تحمل في عينيها دفئاً يكفي العالم، يقف صامتاً اليوم. صمت يجلجل في الأذنين.

- إن نقص شيءٌ من حياة أيٍّ منا، يشعره بارتباك وقلق. كيف إن كانت تلك المرأة التي حوّلت ركنها الصغير إلى ميناءٍ يأوي الكثيرين؟

اليوم، تحول الرصيف إلى لوحة بلا ألوان "الفجل والبقدونس والقرع والجزر والبصل..." المارّة قليلون، وخطواتهم ثقيلة يسحبون أحذيتهم سحباً.

- كيف نعيش دونها؟

السؤال يتردد، وصداه في أزقّة الحي. الرجال العائدون من العمل لا يعرفون من أين يشترون حاجياتهم دون أن تبتسم لهم. الأطفال لا يجدون من يدفع لهم بقطعة حلوى خفيةً في أكياس البقالة. حتى قطط الرصيف تتجمع حول "قرطتها" الفارغة، تنتظر بصبر يعرف أنه قد لا يجدي.

- أين نجد إجاباتٍ لغيابها المفاجئ؟

في عيني العجوز الذي يهمس:

- "ربما مرضت"

في دموع البائعة المجاورة التي تحاول إخفاءها؟

أم في ذلك الظل الطويل لشباب يدورون حول المكان، وحول القرطة الخشبية على الأرض، يشيرون إلى مكان لم نعتد أن نبحث فيه عنها.

الكل يعرف أن شيئاً ما انكسر اليوم. ليس مجرد غياب بائعة، بل اختفاء قلب ينبض للرصيف كله. والقرطة الفارغة تصرخ بصمت:

- إنها ليست مجرد امرأة... إنها أم محمود.

وصلت شمس الظهيرة الحارقة، دخل شاب الدكان، تحيط برقبته كوفيّة سوداء، رفعها لتخفي أسفل وجهه الشَّاحب، وعليه علامات التعب، والضيق والضجر، وبقايا شُحَّار إطارات محترقة تلفُّ عينيه، قال بعد التحية:

- أين رصيف أمّ محمود؟

سؤاله بدا غريباً عجيباً، ولكنَّني أحببت الاسم، نعم، إنه رصيف أم محمود... فعلاً...

أردِّد السؤال نفسه في عقلي:

- لكن أين هي؟ ...

فأجبته:

- لا أعلم، ولكنَّها تجلس هناك....

تردد بُرهة بالخروج، هزَّ رأسه ملتزماً الصَّمت، وعيونه تخفي سراً غامضاً، ثمّ استطرد بصوت منخفض قائلاً:

- هل تركت لي شيئاً عندك؟

- لك! من أنت؟

- محمود...

استجمعت أفكاري، تبادلنا النَّظرات المستغربة، قطبت جبيني، وابتسامة عابرة، أومأت له بعدم معرفتي...

خرج مسرعاً... يبدو أنّه تذكَّر شيئاً.

تجاوزت السَّاعة الخامسة مساء، وبصوت واهن لا يكاد تسمعه أذناي، ودَّعت المكان والرَّصيف. عائدٌ إلى بيتي، أحمل بين أصابعي فراغاً غريباً، وكيساً بلا بضاعة. زوجتي تلقاني عند الباب، عيناها تتساءلان قبل شفتيها:

–"وأغراض البيت؟ ألم تمرّ على أم محمود اليوم؟"

أحني رأسي، لا أملك جواباً، وحيرة تملأ فراغ المكان. أطلب منها الانتظار، قد يكون في الانتظار أمل بعودتها. فقاطع شرود ذهني أذان المغرب ليعيدني إلى مسار الحياة، وصوت المؤذن لم يجد طريقة لإرجاع ما فقدناه اليوم. دخلت المسجد يوم الجمعة لأداء الصلاة، الجو ثقيل بالحزن. المصلون يتدافعون، حركاتهم متشابكة، لا تكاد تميز من يدخل من يخرج. المكان مكتظّ، وأصوات "رحمات" تتردّد بأنين خافت يسبق جنازة شهيد ستحمل بعد الصلاة. رفعتُ عينيّ نحو الجدار المقابل، ملثمون يقفون بوجوه مغطاة تماماً. عشرة، ربما أكثر، يرتدون ملابس سوداء ويحملون علب رش الألوان. يد ترسم شعاراً مبهماً، أخرى تكتب جملة قصيرة، ويكتبون رسائل إلى عالم لا يسمع. أصوات خافتة مكتومة تتناقش، وحركات متسارعة. ليست فوضى بل حدث جلل بدأ يتكشف...

في المنتصف، وقف رجل طويل القامة يرتدي كوفية حمراء بالية. يستند إلى الحائط بثقل جسده، يحاول منع نفسه من السقوط. أمامه شاب يرتدي كوفية سوداء يحدّق به في صمت. لم يتحدثا، لكن التوتر بينهما كان كخيط مشدود على وشك الانقطاع.

اقتربت خطوتين. رائحة الطلاء الحديث تختلط برائحة عرقهم. الشاب ذو الكوفية السوداء همس شيئاً في أذن صاحبه، فانتفض الرجل الأحمر كما لو أنه تلقى صعقة كهربائية. لفّ على نفسه، وأشار بيد مرتعشة نحو نهاية الزقاق.

في لمحة اختفى الجميع تاركين فقط رائحة الحزن، وطبقة رقيقة من الطلاء الأسود لم تجف بعد.

حاولتُ أن أقرأ ما كُتب خلفهما، لكنّ ما ظهر لي كان اسماً واحداً: (محمود).

جلست وسط الجموع، بينما بدأ الخطيب يرثي الشهيدة بصوت يهزّ الأعماق. كلماته تقطع القلب وتُذكّر بالثمن الباهظ للحرية.

ثمّ توقف فجأة، وبدأ يقرأ "بياناً" باسم "القيادة الموحدة للانتفاضة الفلسطينية". وما صدمني عندما قال:

- "أم محمود ..."

صمت ثقيل تلا الكلمات، الاسم نفسه يحمل في طياته جرحاً نازفاً. تساءلت في حيرة وألم:

- أين تكمن حكاية أم محمود بكل هذا؟
- هل هي الشهيدة، أو أمّ الشهيدة؟ أم هي رمز لفقدان أكبر؟

جلست أبحث بين الكلمات عن حقيقة غائبة، عن قصة لم تُحكى بعد في ذلك اليوم، لم تكن الصلاة مجرد صلاة، بل لحظة من الحزن والاستغراب، كل شيء حولي يحاول أن يخبرني بقصة لم أكن أعرفها عن أم محمود، تلك

المرأة الهادئة التي تحمل في صمتها أسراراً لم أكن أتخيلها. كانت كالسرّ الذي يلوح من بعيد، يشعل في القلب أسئلة لا تجد إجابة.

سادت لحظة من السكوت العميق في دماغي، وأطفأت مسامعي ومشاعري، لأحاول تكرار الاسم مع نفسي؛ لأقنعها أنَّ الشَّهيدة المسجاة هناك هي "أمّ محمود".

ويكمل الخطيب...

- لقد اغتالتها قوّة صهيونية خاصّة بين القدس ورام الله، عندما كانت تنقل سلاحاً إلى المنتفضين...

لقد عادت شمس الظهيرة لتروي حكاية مختلفة، لم تكن أم محمود مجرد امرأة عادية، لم تكن مجرد جسد ينحني فوق "قرطة" خشبية، ولا وجهاً عابراً في زحام الرصيف، وليست بائعة تجلس على الرصيف، بل حكاية من نوع آخر.

لقد كانت الذاكرة الحية للرصيف كله، الحكاية السرية التي يهمس بها المارون هناك، الساعة الرملية التي تحفظ زمناً لن يعود كل صباح، عندما تفتح بسطتها الصغيرة تفتح كتاب تاريخ لم نقرأ منه إلا سطوراً قليلة، والآن وقد غابت... أدركنا أننا كنا نمرّ عليها مرور العميان، بينما هي تحمل أسرار المدينة تحت ثوبها الأزرق.

لم تتزوج، ولم تنجب أولاداً، كانت غنيةً بقلبها وإيمانها، وأنفقت أيامها وأموالها في سبيل الله ووطنها. وهي الصغرى بين أختين تعيشان في القرية، ورثت عن أبيها مالاً وعزاً، وورثت أيضاً جرحاً عميقاً بفقدان أمها منذ زمنٍ ليس ببعيد.

في سنٍ مبكرة، تشكّل كرهها للاحتلال، حين استشهد خطيبها "محمود" دفاعاً عن أرضه. فحملت اسمه شعاراً، وتوشحت بدمائه رداء للعزّة.

أمضت بعد ذلك أحد عشر عاماً في سجون الاحتلال، تدفع ثمن مقاومتها سنوات من عمرها. وعندما خرجت، كانت الانتفاضة في أوجها، فتحوّل الرصيف الذي تجلس عليه إلى نقطة لقاء للمنتفضين، توزّع عليهم السلاح والقنابل التي تشتريها من مالها الخاص. تخبئها في تلك الصُّرر السوداء، وتغطيها بخيرات الأرض، لتزرع المقاومة وسط الخذلان.

في وقت قصير، تمكّنت أم محمود من أن تحظى باحترام ومحبة الجميع. أصبحت "أمّاً" لكل "محمود" شغوف بفلسطين، لم تضع سياجاً بينها وبين الموت أو الحياة، بل عاشت حياة خشنة، لم تفكّر فيها أبداً، لأنّ همّها الوحيد فلسطين.

عندما ابتعد الملثمون عن الشعار المكتوب على الجدار، ليُزفّوا الشهيدة، ظهر باقي الاسم: "أمّ"، لتكتمل العبارة: "أم محمود". تساءلت في نفسي، وأنا أرى الدموع تملأ عيونهم:

- هل كانوا يحتضون "أمّهم" هؤلاء "المحمودون"؟

هل كانت هي الأمّ التي ضحّت بكل شيء من أجلهم، من أجل فلسطين؟

أم محمود أكثر من مجرد امرأة، قصة لم تنته بعد، ولأم لم تمت، ستبقى حية في قلب كل من عرفها، وفي ذاكرة وطن لن ينساها.

سرنا في موكب التشييع، طريق بلا نهاية، طريق من الحزن والفخر. كل لسان فينا يهمس بحروف الوفاء للشهداء، وكل كلمة تحمل لهجة المقاومة والثأر.

في هذا اليوم، لم يكن هناك حد فاصل بين الأحلام والواقع، فرأيتها كما تخيلتها دائماً قائلاً:

- عروساً... أم محمود في أجمل هيئة، في أحلى زينة، لم تكن عروساً عادية.

وراء جفنيها المطبقين، تعتصِر وجوهاً لا تحصى. وجوه من أحبت وفقدت، ومن قاومت معها، لم تكن شفتاها عابستين، بل مرتسمتين بابتسامة هادئة، تودع الدنيا وهي مطمئنة. لم تذرف دمعة واحدة تندب حظها، بينما نحن ذرفنا أنهاراً من الدموع خلف نعشها، ترتدي طرحتها البيضاء، ملونة بدماء التضحية، دماء تشهد على حياتها التي عاشتها من أجل فلسطين.

زغاريد نسوة الحارة وقريباتها تزفها، لم تكن زغاريد فرح عادي، بل أناشيد مقاومة وفخر. والصبيان يجمعون حلوى الشهادة، وهدايا الشفاعة من السماء لمن يستحقونها.

لقد أنجبت أم محمود المئات من "محمود"، كلّ واحد منهم يشكل جزءاً منها، يتبعونها في خطواتها، وحتى في مماتها.

حفل زفافها الخاص وداع مؤلم. الجميع في حالة حزن، يعرفون أنَّها لم تمت، بل ستظلّ حية في قلوبهم، وفي كل خطوة يخطونها نحو الحرية.

أم محمود رمز للصمود، لقوة لا تنكسر، ولحبٍ لا يموت. وفي موكبها، تعهّدنا أن نكمل الطريق، لأنّها علمتنا أنَّ المقاومة ليست خياراً، بل هي الحياة.

في اليوم التالي، عدت إلى الدكان، ووقفت للحظة، فالزمن قد توقف. تأملت الرصيف، وتنهدت بعمق، وصدري يحمل جبالاً من الحزن.

الرصيف بدا حزيناً جافاً، والشمس التي تلمسه فقدت دفئها، و"القرطة" جلست صامتةً، تواجه الكآبة وحدها، تتحدى الفراغ الذي تركه غيابها.

لم يكن لدي خيار إلا أن أجلس، أفكر، وأحاول أن أجد معنىً لكل هذا. رأسي ثقيل بالأفكار التي تدور في داخلي. "القرطة" بقيت في مكانها، بلا رفيق أو صاحب، فقلت لنفسي بصوت حازم:

- لا يمكن تركها هكذا...

ظلت الكلمات عاجزةً عن التعبير عما في قلبي. فقررت أن أفعل شيئاً، ولو كان بسيطاً.

حملتها إلى دكاني، وتذكرت ذلك اللون الأخضر الذي تخيلته لصندوق عرسها. وأصبحت العتّال الذي يعتني بحملها، وبيد مرتعشة من الحزن، حفرت عليها عبارة:

- "رصيف أم محمود".

محاولة صغيرة لأرثيها، لأنّ فعل شيءٍ، أيّ شيء، أفضل من لا شيء. خضّبت حروفها باللون الأحمر، أرسم جرحاً نازفاً، أو قلباً ينبض بالذكرى. وفجأة، عاد إليّ سؤال الشاب الذي كان محفوراً في ذاكرتي:

- أين رصيف أم محمود؟

تساءلت في حيرة:

- كيف لم يخطر على بالي أن أسمّي الرصيف باسمها؟

فعلّقت اللوحة هناك، على جدار الرصيف، أمامي تماماً. نافذة تطل على روحها، تذكرنا بأنّها لم تغب، بل ستظل حاضرة في كلّ خطوة نخطوها، وفي كلّ نفس نتنفسه.

عَــريــن

تنحني هنا أقواس البيوت القديمة لتحاكي ظهور الشيوخ الذين حملوا أسرار القرون فيها، تقف حارتنا شاهدة تحدق في الزمن بعين واحدة مفتوحة.. عين لم تغمضها السُّنون، شوارعها ليست مجرد ممرات، بل شرايين مقطوعة من جسد التاريخ، جفتْ زمناً، لكنها لم تَنْسَ نبضها.

كل حجر هنا يصرخ باسم شهيد، وكل زاوية تهمس بقصة لم تكتب بعد.. لأن أبطالها ما زالوا يُخلَّدون بين التراب والدم.

هذه الحارة لم تنسج بالطين والحجارة وحدهما، بل بأظافر الرجال الذين حفروا الأرض بحثاً عن جذورهم، وبأهداب النساء اللّواتي حبسن الدمع خلف ستائرهن كي لا يبلل حجراً. حتى الهواء هنا مُثقَّل بالذاكرة، رائحة الزعتر الذي يذكر بالأرض الضائعة، وعبق زيت الزيتون الذي يلمع كدموع الشمس في صحون الفقراء، ووشم الحناء الذي يزين يدي العروس والمقاومة في آن واحد.

لكن بينها كلها، تتسلل رائحة بارود قديم، يعود ليُذكّرنا وليصفع الطغيان:

- احذروا.. فالتاريخ يعيد نفسه.

وإذا ضغطت أذنك على الجدران المتشققة، ستسمع همسات الأجداد "العُمريّة" الذين طردوا الغزاة ذات يوم بسيوف من نور، سيوف لم تغمد بعد، لكنها تنتظر أيدي جديدة تحملها. لتذكرك:

- "هذه التربة لم تكن قط بلاداً للغرباء."

غرباء اليوم يرون فيها مجرد أزقة ضيقة، أما أبناؤها فيعرفون أن حجارتها صفحة من كتاب المجد. حين تمشي فيها بالليل، تسمع أصوات دفاتر الأرض تتناهد:

- هنا حيث سقط الجد "محمد"، وهناك حيث رمت الجدة "فاطمة" قنديل الزيت على دبابة العدو.

الحارة ليست مكاناً، بل ذاكرة تمشي على قدمين. وأنت اليوم إذا مررت بها، انتبهت إلى أنَّ الحجارة البالية تحت قدميك لها لغة خاصة، تحدثك بالفخر:

- "نحن لم نهزم قط، نحن ننتظر."

بعد العصر، عندما تغيب الشّمس خلف الأفق، تغمر الحارة ظلمة كثيفة، لا يقطعها إلا وهج خافت ينبعث من مصابيح معلقة تحت أقواس تزين مسجد الحارة القديم.

أجلس تحتها أحياناً، أشعر بأنها تحتضنني، تهمس لي بأمل جديد، وتعيد إليَّ شرارة العزيمة التي كادت تخبو.

أتعثر بحجارة أزقتها البارزة، تريد إيقاف بعض من يحاول عبورها. لم يكن السير هنا سهلاً؛ وليس مسموح العبور هنا للكل، فأنت تحتاج إلى نظرات سريعة ومتناثرة؛ لتجنب الاصطدام بالجدران المتآكلة، أو الانحناء لتخطي حبال الغسيل المعلقة بين النوافذ المفتوحة، التي تنبعث منها أصوات وأحاديث تختلط مع رائحة الطعام الطازج.

أحياناً ألتصق بالجدار لأفسح المجال لشخص ما ليمر، فالحارة تعلمك فنَّ الانتظار والصبر.

وفي نهاية الزقاق يقع كشك العم "أبو طلال"، الصوت الأكثر حضوراً في الحارة: صوت "بابور" الكاز الذي يصرخ بالأولاد، معلناً قدومه بعربته ذات الإطارات الثلاثة، أحدها تالف بسبب رصاصة طائشة أصابته في ليلة مظلمة من ليالي المواجهات.

أشتري منه الذُّرة المسلوقة الساخنة، أو الحمص بالكمُّون الذي يسميه "البليلة". "كُشكه" نقطة التقاء للجميع، تتداخل الروائح والأصوات، وتختلط القصص مع الضحكات، فالحارة تتجمّع هناك في ذلك الزقاق الضيق، الذي يحمل بين طياته حكايات ساكنيه لا تنتهي.

صفوف من البيوت تنام في وقت واحد في مجاهل بعيدة عن الحياة، تنام المحلات، وعربة العم (أبو طلال) بعد أذان العشاء، وأحياناً بعد المغرب، ولا أسمع إلا أصوات القطط المتصارعة في حاوية طرف الشارع.

يبدأ الغضب يتسلل إلى صدري، وشعلة خفية تتوهّج فيه، أحاول بشقِّ النفس أن أمسك لساني عن التذمر كلما ينادي علينا أبي للنوم بعد العشاء، أبي قائد يوزع الأوامر في ثكنته العسكرية، كما كان أيام النكبة.

ألتفت إلى دجاجات الجيران وأحسدها لأنها ما زالت تنقنق بصوت منخفض، مستمتعة بليلها الطويل، بينما أنا مضطر للاستسلام لفراشي مبكراً.

أستلقي وأحدق في تشققات السّقف التي تشبه شرايين جسد متوتر، تسير في طريقها لتتجمّع حول "النوّاسة" الحمراء التي تتدلّى من السقف، لتضخ الدم إليها فتضيء ليلي الباهت.

أحياناً أشعر أنّني مصاب بمتلازمة الشقوق، فهي تلاحقني في كل مكان: في البيت، في الشارع، في المدرسة، وحتى في أحلامي، وفي زاوية الغرفة المظلمة، تختبئ الظّلال، وتتلوى مثل حيةٌ سوداء، هناك يقبع "الشعشبون" بخبثه. يمد أرجله الطويلة الرّفيعة، خيوط مريبة تمتدُّ في الظلام، مخبر خفيٌّ يحاول اقتناص الأخبار والأسرار.

يداه اللتان تشبهان خيوطاً متلونة، تتحركان ببطء ودهاء، تنسجان شباكاً خبيثة حول كل شيء، حول السرير، حول الخزانة، وحتى حول ذكرياتنا. لكنَّ أمي، "بمكنستها" من القش، كفيلة بأن تنهي حياته في لمح البصر.

صباحاً تبدأ معركتها معه، تضربه بقوة، تقاتل محتالاً مخادعاً، فيسقط خلف السرير، ميتاً–أو هكذا نظن– لكن "الشّعشبون" لم يكن وحيداً، له من أمثاله الكثيرون، ينتشرون في كل زاوية مظلمة، في كل بيت، في كل شارع

وفي كل الوطن. ومع حلول الليل، يعودون من جديد، ينسجون خيوطهم بخفة وغدر، يعيدون بناء عالمهم السري الذي لا يراه إلا من يحدق في الظلام طويلاً.

أما ستارة الشباك، فهي صديقة أكثر رقّة، تلاطف سريري الخشبي القديم، تهمس لي برائحة الياسمين العطرة، تريد أن توقظني برفق من كوابيسي.

وروائح أخرى لا تفارق جهازي التنفسي، روائح تختلط بين رطوبة الجدران، وعبق الذكريات القديمة، تذكير بأنَّ هذا البيت، بكل تفاصيله الغريبة، هو عالمي الصغير الذي لا أستطيع الهروب منه. عالم حيث الشقوق تتكلم، والشعشبون يتربص، والخيوط الخفية تربط الأشياء ببعضها في صمت مطبق. والستارة تنقل الروائح...

- لست أدري لماذا يقتلني الفزع كل ليلة؟

يلفني الخوف أحياناً، وتثور أعصابي، وتنفث تنهداتي بخاراً متصاعداً، تكافح أطيافاً غامضة تهاجمها من كل اتجاه.

- لا أعرف ما الذي سيحدث إن غفوت؟

ما إن تطبق جفوني على عيني حتى أجد نفسي في فلاة قاحلة، تحيط بي أسلاك شائكة من كل جانب، أحاول عبثاً تجاوزها، أهرب من خوف يلاحقني دون ظِلّي.

تتمزق ملابسي، وتتناثر كتبي بين الأسلاك، تترك شقوقاً في جسدي تشبه تلك التي في سقف غرفتي. أصوات مجهولة وبعيدة تتبعني، تُلحُّ عليَّ بالعودة أو بالقفز، لا خيار آخر.

بينما ينسج العنكبوت خيوطه على الأسلاك الشائكة أيضاً. خيوطه هناك أكثر سماكة وشراسة، وله أنياب وأرجل طويلة تتربص بي. ومن خلف تلك المتاهة، ليس ببعيد، وقرب أجمة مصفرّةٍ يقف ملثم يناديني دون صوت، حركات يديه ورأسه تكفي لإيصال صوته. يتوشح كوفيّة سوداء، تشبه نقوشها تلك الأسلاك.

- لا أدري هل انطبعت عليها؟

- أم أنه تغلب عليها وحبسها في كوفيته؟

لا شيء سينقذني إلا معجزة تنزل من السماء، أو أن تسوق لي المقادير حلاً ما. حلٌ يخرجني من هذا الكابوس الذي لا ينتهي. ويطلع الصباح كالعادة مع تمتمات أمي وأبي...

- اثنين!

- لا يا حج، ثلاثة، يقولون هناك جرحى...

نداءات الفجر، أو ظننتها تكبيرات الصلاة، لم تكن سوى أصوات مقاتلي الحي، مختلطة مع أذان المسجد القريب. استيقظ وأنا أحمل ذلك الشعور الحار في صدري، سكين يخترق قلبي، أفتش في ذاكرتي عن بقايا حلم ضاع. الانتظار أرهقني، وأنا أحاول أن أمسك بخيوط الواقع قبل أن تفلت مني.

أمشي كالموج المتدافع نحو "حوش" الدار، وأفكاري تبقى عالقة في بحر من الخوف. أحاول أن ألملم شتات نفسي، وأتساءل:

- هل أبدأ حديثي مع والدي بالتحية أم بالتعزية؟

أم أنشر همومي بجانب صحن الفول الساخن، وحبات الفلافل المقرمشة، ورغيف خبز "الطابون" الذي يحمل بقعاً سوداء من ندوب الماضي؟

هل أطفئ رائحة النعناع المنبعثة من إبريق الشاي، أم أتركها تعبق في المكان ذكرى لصباح لن يعود؟

ستنهال عليَّ مواعظ والدي الحكيمة التي أحترمها، رغم ثقلها على قلبي، وأكتسي بدعوات أمي الدافئة، قبل أن أخطو نحو المدرسة، سأجلس وألقي بكل همومي أمامهما، لأفرغ جرحاً نازفاً.

أسئلة كثيرة تثقل كاهلي، تكاد رجلاي ترتعشان من ثقلها. أحياناً لا أستطيع السير، وصديقي "أدهم" ينتظرني في نهاية الزّقاق، ليبدأ معي مشوار اليوم المعتاد.

لا يعلم أنني قد أنساه كما يحدث في معظم الأيام، لأنني أعيش في مكنونات نفسي أكثر مما أعيش في العالم الخارجي. أعيش في عالم من الأسئلة التي لا إجابة لها، والخوف الذي لا يزول.

- كم نحن أشياء هشة...
- صدقت يا أَدهم...

أهرب إليك ليلاً، ميناء أخير لأحلامي المتمردة. ألوذ بك كما يلوذ الغريق بقطعة خشب، أغوص فيك لأجد نفسي فجأة عائماً على سطح الحياة. لكن النهار لا يرحم.

ثم أعود من يومي معك مثقلاً، كتلك الكعكة الهشة التي تغمسها أمي في الشّاي الدّافئ، فتنتفش لحظة ثم تنهار، تذوب حدودها، وتتباعد أجزاؤها في السائل، وذكريات طفولتنا المنسية معها. هكذا أنا معك:

- كيان يبحث عن تماسكه، فيجد نفسه أكثر تفككاً.

أحاول أن أجمع شتاتي بين كلماتك، وكلما أمسكت بطرف انفلت مني آخر. معك أتعلم فن البقاء، فأفشل في كل مرة. ستسألني يا أدهم عن سبب هذا التفتت، وأبحث في أعماقي عن إجابة، لكن الدوامة أسرع. تدور بي حول بالوعة غارقة، تبتلع كل شيء، حتى صوتي.

أفهم متاعبك وألمك يا ياسر... فأنت تعيش مشهداً يتكرر أمام التلفاز، الكلمات فيه تتدفق هادرة، تملأ القنوات الإعلامية، تتردد في المؤتمرات الفخمة. ثم تنتهي فجأة، كما لو أن أحداً ضغط على زر "إفراغ" خفي. تختفي كل الوعود في البالوعة العميقة، تاركة وراءها رائحة مواعيد عفنة لاتفاقيات نجسة.

أنا هنا معك يا أدهم، في الزقاق وتحت الأقواس، أعيد تكوين نفسي من لا شيء. أعيد تشكيل أفكاري من الظنون، وأملأ عروقي بالشك. ثم أعود للانهيار من جديد.

هذا الصباح لم يكن أمس. الزقاق الذي عشنا فيه ذكرياتنا صار غريباً، مغطّى بطبقة بيضاء ثلجية، لكنها سامة، سحابة الغاز الخانقة لا تزال عالقة في الهواء، تحرق العيون وتذكّرنا بأن الاحتلال لا ينام.

- أتدري يا ياسر؟ لم نعد نبكي من الغاز وحده..." –همس أدهم بصوت مبحوح، بينما دموعه تذيب شيئاً من الألم على خده–.

نبكي على أطفالٍ كانوا يلعبون هنا أمس، واليوم صاروا ذكريات على الجدران... نبكي لأنّ الحياة صارت تذوب أمامنا ولا نستطيع إنقاذها. حتى الهواء هنا صار مرّاً لاختلاطه بمرارة قلوبنا. البكاء لم يعد مجرد دموع... لغة صامتة يفهمها فقط من عاش هنا.

- "يجب أن نتحرك..."

قال ياسر فجأة، كلماته قطعت سلسلة الألم التي طالما كبّلتهم:

- هذا الزقاق المعتم لا نهاية له إلا إذا مشينا نحو النور.

نظر أدهم إلى نهاية الشارع، حيث يبدو ضوء خافت يتسلل وينتظرهم.

- "أتعني أن نترك كل شيءٍ وراءنا؟"

–"نعم، نبدأ من جديد... لأنّ البكاء صار حياتنا، ولأنّ الحياة – يا صديقي – قد تكون مجرد خطوة واحدة تفصلنا عن يوم مختلف".

ثم توقفا للحظة... هل هذا الضوء هو خلاصٌ قادم، أم مجرد وهج آخر من الأمل الزائف؟

لكنّهما قررا السير على أي حال. ففي النهاية، حتى الجنين الحبيس في الرحم يولد ذات يوم... وقد حان وقت ولادتهم من جديد.

جلست وصديقي على الرصيف المقابل للمدرسة، نراقب دخول الطلاب ترددهم واضح، يخطوُن نحو مصير مجهول. همساتهم مسموعة للمعلم المناوب، الذي وقف بجانب البوابة، تسأله بصوت خافت:

- اليوم إضراب؟ أم حداد؟

حركات يديه مع عصاه الصغيرة كـ "المايسترو" الذي يقود "أوركسترا" يومية، حيث مجموعة الطلاب بأصواتهم وحركاتهم المتكررة التي لا تمل. لكن ملامح وجه المعلم لا تبتعد عن خريطة الوطن، تحمل في طياتها مقاومة صامدة لكل أحزان الأرض وجورها.

- هل جفت دموع عينيه يا ياسر مثل بحرها الميت؟
- نعم، واحتلت الأخرى مثل طبريا.....

يوزع عليهم ابتسامات متقطعة من حياتهم وعيشهم ودراستهم، ويعلمهم ما تبقى معه: الابتسام. أو ربما يعطيهم جرعات من الأمل، ويقدم لهم دواء لعلاج جراح لا تُرى.

قرع جرس انتهاء الدوام، وخرجنا من المدرسة، جيش تحرر من قيوده، نسير في فِرق متتابعة، كل منا يحمل جعبته على ظهره. بعد عدة أمتار، توزعت الفرق؛ منهم من عاد إلى بيته، ومنهم من توجه صوب الحاجز البعيد، بينما وقف بعضهم متفرجين لا أكثر.

المشهد كفيل بأن يكون لوحة تعكس واقعنا: بعضنا يسير نحو المستقبل، وبعضنا يقف عند الحاضر، وآخرون يكتفون بالمشاهدة، ينتظرون شيئاً ما، أو ربما لا ينتظرون شيئاً على الإطلاق.

عدتُ وصديقي أدهم إلى الحي، نعود من معركة خفية خضناها في شوارع المدينة. دخلت المسجد لأصلي العصر، فأنا صغير "الكنغر" الذي لا يشعر بالأمان إلا في جِراب أمه، تحت القبة الخضراء في مسجد النصر، رفعت يديَّ مناجياً ربي، داعياً أن يرحم شهداءنا ويعزَّ أحياءنا بدينه. كلماتي همسات تختلط مع صمت المكان، تحمل كل آمالنا وآلامنا.

استندت على الجدار بجانب رفِّ الكتب القديمة وهي تتراص بجانب بعضها، حُماة صامتين. من بينها، برز كتاب واحد، آخر كتاب فتحه صديقي أدهم، وحياتنا كانت تتشكل من حبر كلماته.

ذلك الكتاب خريطة رسمت لنا معالم الطريق، وأضاء لنا دروباً كنا نظنها مظلمة. لنكون أسياداً على العالم كما أراد سيد الكتاب.

التفتُّ إلى يميني، حيث أدهم واقفاً، ويحمل هموم العالم على كتفيه. نظرت إليه وهمست:

- أشعر يا أدهم أنني جُرحت في المظاهرة.

كلماتي تخرج بصعوبة، تحمل معها الألم الذي كتمته طوال اليوم.

نظر إليَّ بصمت، فهو يعرف أن الجرح ليس في الجسد، بل في الروح.

يا ياسر:

- في ذلك المكان –تحت القبة الخضراء–، كنا نبحث عن شيء ما: ربما عن سلام مفقود، أو عن أمل جديد، أو ربما عن إجابة لسؤال لم نعرف كيف نطرحه.

يتفقد جسدي بنظراته الحادة، يتحسس شعر رأسي بيديه، وعلامات الاستغراب لا تفارق وجهه.

هو يعلم أننا لم نشارك في المظاهرة، لكنه صديقي العطوف، الذي لا يحتاج إلى تفسير ليفهم أن شيئاً ما يؤلمني. وأكملت حديثي بصوت خافت:

– الجرح ليس في جسدي، بل جرح يتحلل بعمق في عقلي.

صمت أدهم في حيرة، وعلامات الأسى تشعبت في وجنتيه، حتى لامست عينيه المستغربتين.

سأل بصوت هادئ، يخشى أن يكسر شيئاً بداخلي:

- وكيف جُرح عقلك يا صديقي؟

أجبت وأنا أحاول أن أفهم نفسي قبل أن أفهمه:

- أشعر أن الكل يتجاوزني ويسبقني دائماً، أوراق الخريف التي تدفعها موجة رياحٍ موسمية من خلفي تسبقني. أنا لا أجرؤ على النظر إلى الخلف، خوفاً من أن يصيبني غصن طار معها. وأجاهد نفسي لأعرف من هم؟

نظر إليَّ والحيرة أكبر من الكلمات، لغز لا يفككه صمت:

- لا أفهمك يا صديقي... من هم الأوراق؟

أجبت، لأروي قصة طويلة مختزلة في جملة واحدة:

- إنها أيام حياتي، وليالي الحي المتعاقبة، واندفاع الناس لفعل شيء ما، بينما أنا أراقبهم من نافذتي فقط. إنها رائحة الياسمين في كل مكان...

أحاول أن أغري نفسي بالنوم، فالأحلام تجتاحني. أعلم أن النوم في حياتنا ليس متاحاً، فهو نداء يطرق جدران قلبي، ويحرك أطرافي بأن أتحرك، بأن أتجاوز كل الأسلاك الشائكة في حلمي.

قال أدهم بصوت مذهول:

- أسلاك! حلمك! ماذا تقول يا صديقي؟

كلمة قذفها أدهم طلقة استفهام، لكنّني صمتُّ. فبعض الأسئلة تشبه الأسلاك الشائكة: تلمسها فتجرح، تتأملها فترى حدوداً لا وجود لها إلا في عين السجّان...

فما هي هذه الأسلاك التي تحاصر حلم ياسر؟ هل هي:

- جدران الفصل العنصري التي تقطع الأرض جسداً وذاكرة؟
- أم قيود الخوف التي ينسجها الاحتلال في العقل حتى قبل أن يفرضها على الأرض؟
- أم هي الخط الأحمر الوهمي بين الحياة والموت، حين يصبح الشهيد حاضراً في الذهن أكثر من الحاضرين؟
- "وهمية"... نعم!

لأنّها أسلاك لا تحمي أحداً، بل تخفي خلفها ظلاماً مفتعلاً. ستار يسقطه المحتل ليقنعك بأنّ الأفق لك أيها الفلسطيني انتهى هنا. لكن الصمت يقول شيئاً آخر:

- "إنّها أسلاك تُقطَع بالتذكر، بالسؤال، وبأن تحيا السؤال نفسه"

فهل يكون اختراقها بداية لفهم الحلم من جديد؟

لا يعلم صديقي أن الملثم الغامض الذي يظهر في حلمي، ويحثني على التجاوز، أقرب مما يتخيل. ذلك الملثم الذي يشير بيديه في حلمي، يحثني على تجاوز مخاوفي، وتجاوز الحي بأزقته الضيقة، وحجارته البارزة، يبدو أنه يعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

في ليلة كثيفة الظلام يا أدهم، بينما القذائف تزمجر في الخارج، عثرت على ورقة صفراء باهتة... كانت جزءاً من وصية شهيد. لم يكن يعرفه أحد باسمه، فقط "الملثم". كلماته نبضات تُخْبِرُ عن سر عظيم:

" يجب أن ننفصل عن كل شيء ولو للحظة... نغرق في الظلام كي نرى النور. نترك الدنيا خلفنا لنمسك بيد الخالق، ونستمد القوة من مسيرة النبي (ﷺ). لا عزَّ لنا إلا به".

لكن الملثم في حلمي مختلف... يمسك بوصلة بيد ثابتة، ورياح التّشويه والضلال لا تؤثر فيها. بوصلته تشير إلى اتجاه واحد: العقيدة. المبدأ.

التفتُّ إلى ياسر وسألته بلهفة:

"من هو الملثم؟ "

ضحك بحزن غامض، ثم قال:

- "لقد ناديته أنت بـ'الملثم'... فكيف لي أن أعرفه أكثر منك؟ لكنّني متأكد من شيء واحد "...
  "ستعرفه أنت يوم تحتاجه البوصلة."

نظر إليّ صديقي محاولاً أن يرى ما لا أراه أنا. هل هو يرى شيئاً ما في عينيّ؟

أم أنه يرى ذلك الملثم الذي أصبح رمزاً لقوة ما، لقناعة ما، لشيء يدفعنا لأن نتحرك، لأن نتجاوز، لأن نعيش.

في هذه اللحظة، أدركت أن الملثم ليس مجرد شخص في حلمي، بل هو جزء مني، جزء من صديقي، ومن صداقتنا التي تجعلنا نرى ما لا يراه الآخرون. هو البوصلة التي لا تشوهها الأكاذيب، ولا تحرفها المسميات الخادعة. هو الذي يذكرني بأن الانفصال عن كل شيءٍ، ولو للحظة، قد يكون بدايةً لفهم كل شيء.

وهنا في هذا المكان، تحت سماء مليئة بالأسئلة، نكتشف أن الحلم والواقع قد يلتقيان في عمق الصداقة، حيث يصبح كل شيء رمزاً، وكل رمز حقيقة. في زقاق مظلم حيث تشم رائحة الفساد في الهواء، التفت أدهم بوجه محتقنٍ من الغضب:

- "هل تدرك يا ياسر أننا صرنا أشباحاً في مدينتنا؟ نكتب ونصرخ ونغلي من الغضب، بينما اللصوص الحقيقيون – سارقو والمال والقرار – يحولون حياتنا إلى سوق نخاسة، يبيعون كرامتنا "بملاليم"، ويشترون ذلنا بأبخس الأثمان...

أمسكت بذراعه المرتعش، بينما كان صدى الزئير القادم من أطراف المدينة يهز الجدران:

- "لكن اسمع هذا الصوت يا صديقي! 'الله أكبر'...

إنه الرصاصة التي تخترق قلب كل هذا العبث، انتفض أدهم كالأسد الجريح، صوته يجلجل في الأزقة:

- هذا النداء ليس مجرد كلمات، إنه زلزال يهز عروشهم الواهية، تذكير بأن جذورنا ما زالت حية تحت أنقاض مدينتنا المسروقة.

- "تخيل يا أدهم!"

قلت وأنا أضحك مصاب بجنون الأخبار:

- حكومتنا العظيمة تحارب 'أزمة التُّمباك المهرّب' غزوة نووية، بينما اللحوم الفاسدة تتحول فجأة إلى 'كنوز وطنية' وبائع البطيخ العفن يحاكم في محاكم جرائم الحرب..

أجاب أدهم بمرارة:

- "إنها سيرك سياسي لا يليق به سوى أن نسميه 'جوقة الفساد' حيث يصبح الفاسدون مخرجين، والجوعى ممثلين، والشعب كله جمهوراً مقهوراً..

- "الطريف يا ياسر" تابع أدهم وهو يضغط على جبهته،

هؤلاء 'الآلهة الصغار' يجلسون على كراسيهم العالية، يلعبون بمصائرنا كما يلعب الصبية بالعرائس، قراراتهم كوميديا سوداء، لكن دماءنا الحقيقية هي التي تسيل على خشبة المسرح.

سألني بنظرة حائرة:

- "فيم نفكر يا ياسر؟ في البكاء أم الضحك؟"

أجبته والدمع يختلط بالضحك في حلقي:

- نضحك كي لا نموت من البكاء، لأنّ هذه المسرحية السوداء، لا نعرف من كاتبها المجنون، لكننا ندفع ثمن المشاهدة بأرواحنا...

قال أدهم فجأة ويرى نوراً في النفق:

- لكن تذكر يا صديقي أن الملثمين مثل البذور الطيبة... جذورهم في تربة لم تستطع أيديهم الدنسة شراءها...

رددت بحسرة:

- لكننا نعيش في ذل منذ زمن طويل يا أدهم..

أمسك كتفي بقوة، عيناه تتقدان:

- عندما نكشر عن أنياب حقيقتنا، تخرج الأفاعي من جحورها، يحاولون خنقنا بسمومهم، ويظنون أنهم يمنحوننا 'مناعة' لكنهم لا يعلمون أن كل جرعة سمٍ تزيدنا اشتعالاً.

في ذلك الزقاق المظلم، بين أنقاض المدينة المسروقة، كنا نحن الاثنين – أدهم وياسر – آخر حراس البوصلة التي لا تنحني... حتى لو كان الثمن أن نتحول إلى شهداء في مسرحية لم نختر أن نكون أبطالها.

في أحلامي أقف على مفترق طرق ضيّق، حيث يتقاطع شارع الحارة مع شارع المدينة، وتختفي رائِحة الياسمين بعد التَّقاطُع، ولا أحد يتجاوزني هناك، وتتجمَّد مخاوفي، فقد دخلتْ فصل شتاء قاسٍ، ويتعرَّق جبيني، وتقوى رجلاي، ويخيّم الصَّمت العميق على الكل، إلا لساني لم يغلفه الصَّمت، ويتمتم بكلمات ثائرة من بقايا ذكرياتي وصلواتي، وأدركت أنَّ الذين يسيرون في المدينة من كبار السن في الوطنيَّة خذلتهم مسيرتهم، فأَصبحوا في سكينة عجيبة، يجلسون في مقهى ضيق، محاط بالحرس والخدم، ويكسرون الكأْس الذي يشربون منه بعد الثمالة، ويحرقون كراسيَّهم إِن جلس عليها غيرهم، ويلبسون أحذية من قماش، تَبتَلُّ إِن وطئت أقدامهم شارعاً، ويسيرون مثل صقور نُزِعَ ريشها، يعيشون بكبرياء كاذب، فقد أصبحوا حمائم وديعة، ومن يراهم يشعر بالكآبة والأسى.

يعيشون في حاضر مقلق، وحوصر مستقبلهم بألاعيب نجسة، لا أعلم إن كانوا نادمين على ترك وجهتِهم في الماضي، معتقدين أنَّهم قادرون على إيجادها في المستقبل.

الآلاف تَمرّ يا أدهم من أمام المقهى، ومن الصعب تمييز الأطفال من الشباب وحتى الشيوخ، ولهم صرخة مسموعة.

- ما صرختهم؟
- يا أدهم، صرختهم تكبيرهم في محرابهم، ورصُّ صفوف أقدامهم معَ أَنفاسِهم العالية.. طلباً لسحر الشَّهادة التي تفعل فعلها.

لقد هجروا المقهى، ويصارعون اليد الثَّقيلة التي تغطي أفواههم وحريتهم، يسيرون نحو المفترق نحو رائحة الياسمين؛ ليزفوا شهيداً ملثماً هناك، وليتربى طفل آخر على رائحة الحيّ ليكون شهيداً آخر.

- يبدو أنَّنا يا صديقي نعيش زمن خطابات النهايات وأفعالها، ونهاية جمهور القطيع، وظهور التَّوسلات الجماهيرية بالحشود القسريَّة الرَّخيصة للحفاظ على القديم المنتهي.
- سنعود يا أدهم رويداً رويداً؛ لنحتمي بالأقواس والقباب، فهي عرين الصادقين المخلصين.

ودعت صديقي أدهم عند مدخل الزقاق، عدت إلى الحي وحيداً، لم أكن وحدي تماماً. كنت أتحدث بصوت مكتوم، أخشى أن تسمعني نفسي، لكنه كان يسمعني بصمت، يرافقني في كل خطوة: إلى المسجد، والمدرسة، إلى عربة العم "أبو طلال"، وحتى في أزقة الحي الضيقة.

نظراته تعلو وجهه، نظرات تشق عظامي بخيوط رفيعة ممتدة من الشمس. لم أتوقع يوماً أن يكون الظل لحياتي، ذلك النوع الخاص من سكان الحي الذي لا تراه العيون، لكنك تشعر بوجوده في كل شيء.

محاط برائحته التي تهب عليَّ من نافذتي، ويصلني سلامه مع ستارة الشباك كل ليلة، هامساً:

- "أنا هنا".

أتمنى أن أتحرر من تلك الأسلاك الشائكة التي تحيط بي، لأقفز إليه. وفي لحظة من لحظات الصفاء، أدركت الحقيقة: لم يكن الملثم سوى طيف لصديقي الذي يحادثني طوال الوقت. كان مجرد ظلٍّ لشخص رحل، لكنه بقي معي، يرافقني، يسمعني، ويحاول أن يخفف عني وحدتي.

وهكذا، انتهت قصة عريني الصغير، أو ربما لم تنته بعد. لأن بعض الأشخاص، حتى لو رحلوا، يبقون معنا إلى الأبد. فلا أنا قادرٌ على الانتقال إلى حياة الشهداء، ولا هو قادر على العودة إلى عالم الأحياء.

آسـيا

(قصة طفلة من سوريا)

لم تعد الخريطة كما هي، الحدود تكسّرت تحت أقدام الوحوش، وتحول الوطن إلى متاهة من الدم والرماد. والظلم لبس وجه العدل، والباطل راح يخطب باسم الحق. الصوت الذي يعلو يظن نفسه النذير، والبندقية المترفعة تزعم أنها الخلاص. لكن الأرض وحدها تصغي إلى الحقيقة وتصرخ بصمت:

- الدماء واحدة، والوجوه التي غابت لا تعرف معنى الشعارات.

في زحام الخراب، ووسط ضجيج لا يميّز بين أنين وضحكة، لم يعد أحد يعرف من المخطئ. أو إن كان هناك مخطئ، أو إن كان هناك حقٌّ أصلاً يمكن القبض عليه دون أن يذوب بين الأصابع.

ذلك اليوم حين رأيت "حارتي" تنهار على شاشة ملونة، تتقطّع فيها الصورة كما تتقطّع أوصال المدينة، شيء في داخلي انكسر.

فأنا أعرف تلك النافذة التي تطل على حلم صغير مؤجل، نجونا به من الجنون لبعض الوقت.

صديقي هناك، صوته يتسلل إليّ عبر مكالمة مشوّشة، يختلط صفيره بصوت الانفجارات، والزمن نفسه يتردد في اتخاذ قراره. ثم صمت عميق.

لم أستطع أن أبقى في الظل. لم أقبل أن يتحول صديقي إلى سطر في نشرة أخبار، أو رقم في إحصائية بلا ملامح.

الحرب لا تترك شيئاً كما كان. حتى الذكريات صارت شظايا مبعثرة، والوجوه التي عرفتها ذات يوم باتت أشباحاً تتلبس أقنعة جديدة. صباحاً نستيقظ على خرائط معاد رسمها بدماء جديدة، وكل ليلة تدفن حقائق أخرى تحت أنقاض البيوت. في هذا العالم المشوّه يمتزج الدّخان بأنفاس المحتضرين، لم يعد هناك فرق بين صوت القذيفة، وصوت الأجراس، ونداء الأذان.

انطلقت في رحلة لأفتش في ركام الذاكرة، بين أنقاض الوطن، لا لأبحث عن صديقي فحسب. بل عن إجابة واحدة تؤرقني منذ سقط كل شيء:

- هل هناك من معنى لهذا الجحيم؟

أم أن الجنون قد انتصر أخيراً، ونحن فقط نبحث عن وهم نرتّق به أرواحنا؟

كشفت أنوار المركبة مشارف الحي المدمر، يلف السكون المكان، كفن ثقيل وكبير، لا يقطعه إلا أصوات دجاجات متألمة، وجثة ديك ميت بينها، صياحه توقف منذ زمن. وقفت في وسط الحطام، وأبقيت هدير المحرك يصرخ، لعله يصل إلى آذان أحد ما.

لم أكن أعرف لماذا عدت إلى هنا، ربما لأنّ الذاكرة لا تموت، بل تظل تنقر على جدران الروح حتى تجد ما تبحث عنه. هذا الحي فيه بيتي قبل أن تحوله الطائرات ببراميل متفجرة إلى ركام، وقبل أن يدفن تحت التراب صديق لي لم أستطع إنقاذه.

هنا يصبح الغياب لعبة قاسية. يغيبون تحت الركام، وهناك من يغيبون في عيون من ينتظرونهم، والأقسى هم من يغيبون شيئاً فشيئاً بين أمواج البحار كل يوم، حتى لا يتبقى منهم سوى ظل يحمل اسمهم.

أتساءل أحياناً بين كل هذا الدمار:

- هل كان صديقي حقيقياً؟

أم مجرد قصة اخترعتها كي أتحمل هذا الجنون؟

اليوم عدت لأن أحداً ما في حلم الظهيرة أخبرني أن بين هذه الحجارة المُسوّاة بالأرض رسالة بخط يده... رسالة قد تفسر دعوته لي للبحث عنه، ودفن جثته...

أخرجت المصباح من جيبي، محاولاً تقوية نظري الغائر من التعب. وفي اليوم الثاني من البحث ومن الأمل الذي يتضاءل مع كل ساعة تمر. بدأت أتأمل الحطام الذي بدا بارداً. جثة تغسلها قطرات المطر. لساني لم يتوقف عن الدعاء، وأذناي تفرغان من الطنين، محاولتين التقاط أي همسة تنبض بالحياة.

لم أفهم أبداً لماذا اختاروا البقاء في هذا الحي العجوز. لقد تكسرت عظامه، ومالت مفاصله عند أول هزة عنيفة. والآن، هو يرقد فوقهم بجسده، بدلاً من أن يحميهم. صراخي عليهم يرثي أطلال منزل لمحبوبته، والأرض لم تخرج بعد كل ما تخبئه في جوفها.

أمشي بين الأنقاض وأنا أعرف أن كل الطرق تؤدي إلى المجهول. ربما سأجده، وربما سأجد جثته، وربما لن أجد سوى دليل صغير على أنه كان هنا يوماً ما.

سأستمر في البحث، لأن في هذه الرحلة المضنية معنى وحيداً باقياً:

- أن أسناننا لم تكسر بعد، وأن قلوبنا ما زالت تنبض رغم كل شيء.

هل يسمعني أحد؟ هل هناك أحياء؟

فانحنى سمعي نحو كومة من الطوب الأسود، كهف صغير ضيق. اقتربت ببطء، وانحنيت عند كل ثقب، محاولاً سماع أي صوت، وفجأة سمعت أنيناً خفيفاً يختلط مع قطرات المطر، وحفيف الرياح.
قد نصبح جميعاً أرقاماً في سجلات الضحايا، جثثاً بدون أسماء، ذكريات تتبخر مع الوقت. كنت أعتقد ذلك... حتى سمعتها.
صوت خافت يتسلل من بين صفير الريح، وأنين الحطام، نبض خفيٌّ تحت الركام. توقفت، حبست أنفاسي، وظننت لوهلة أن الجنون بدأ يتسلل إليّ أخيراً.
ثم عاد الصوت— بكاء طفلة صغيرة ضئيل– ارتجاف عصفور جريح أقوى منه...
رميتُ نفسي على كومة الأنقاض، وأنا أسمع دقات قلبي تضرب في أذنيّ كالمطرقة. مع كل حجر أزيحه، كان الصوت يصبح أكثر وضوحاً:
نحيب مبلل بالتراب، يتشبث بالحياة بعناد. في تلك اللحظة، لم يعد الأمر يتعلق بي أو بصديقي. فجأة أصبحت كل الإحصاءات والأرقام كذبة. فهذا الصوت الضعيف يخترق ضباب الحرب، يصرخ بأننا لسنا أرقاماً، وبأن تحت كل حجر قد تُختَزَن معجزة. وعرفت هنا أن الحرب فشلت في سرقة كل شيء. لأنّ هذه الطفلة تذكّرنا جميعاً:

- أن الحياة أقوى من الموت، وأن الأمل قد يختفي، لكنه لا يموت أبداً.
- إن... إن"...

أمعنت النظر في إحدى الفتحات، في أنبوب من الظلام الدامس. أدخلت ضوء المصباح، فصرخت طفلة صغيرة منكمشة في قاع الحفرة، محاطة بأنواع الموت من كل جانب. بدت كأن شيئاً يعصر حنجرتها، وحِمْل الطوب والركام أثقل جسدها الصغير. حاولت أن تغطي وجهها وعينيها من شدة الضوء بيدها الطليقة، وتشعر بالرعب في تلك الظلمات العميقة بين الجثث.
" –أنا آسيا يا عمو... آسيا".

- هل تلفظ أنفاسها الأخيرة؟

تحاول أن تتمسك بما بقى لها من وقت. عيناها الزجاجيتان، اللتان كانتا يوماً ما تلمعان بالبراءة والفضول، أصبحتا الآن باهتتين. أنفاسها قصيرة متقطعة، تحاول أن تمسك بالهواء الذي يتسرب منها ببطء. يداها الصغيرتان، اللتان كانتا تلعبان، وتصنعان أحلاماً من الطين والورق، أصبحتا الآن ترتجفان من البرد والخوف، تحاولان أن تمسكا ببقايا الحياة التي تتدفق منها كالماء بين الأصابع.

تحاول أن تبتسم، تلك الابتسامة التي كانت تملأ وجهها بالضوء في الأيام الماضية، لكنها الآن مجرد ظلٍّ لابتسامة، تعرفُ أنَّ الوقت قد ضاق بها. تنظر إليَّ بعينين مليئتين بالأسئلة التي لا تجد إجابات لها:

- "لماذا أنا هنا؟ أين أمي؟ أين أبي؟"

لكنها لم تنطق بكلمة، فقط همست بصوتٍ خافتٍ بعيد:

- أنا آسيا... آسيا"...

تحاول أن تعقد صداقة مع الموت، فهو صديق قديم جاء لزيارتها في لحظة ضعفها. أعلم أنها لا تريد الرحيل، وتريد العيش، أن تلعب، أن تضحك مرة أخرى. تحاول أن تمسك بيد الحياة، لكن الحياة تفلت منها قطرة قطرة.

- اصبري يا صغيرتي... سأخرجك من هنا".

- أنا عطشانة يا عمو... كثير... بدي أموت عطش... بس بدي أشرب

ثم اختفى صوتها فجأة، فقد سقط في جوف الظلام. شعرت بالقلق عليها، وأعدت النداء والرجاء، فعاد صوتها من جديد، يطلب الماء فقط، فوثبت بأظافري على كومة الركام، تخيلت نفسي أسداً عجوزاً يحفر مسابقاً الزمن.

لا أعرف إن كانت أربعة أم خمسة أمتار تفصل بيننا وبين الحياة والموت، بين الظمأ والارتواء، بين الاختناق والتنفس، بين الأمان والخوف. أضداد اللغة تراكمت فوق حطامنا، لتزيد ثقله على عزيمتنا.

ملَّ القمر من الانتظار، وانزوى يلملم خيبته مني. وبدأت تشرق الشمس باردة على ظهري، تسألني:

- كم بقي لك لتصل إلى ذلك اللحد اللعين؟

ثم بعثت الرعدة في جسدي صرخة منهكة أخيرة، وفيها من حنان الطفولة ما أقشعرّ له بدني:

- عمو... خلص لا "تعّب حالك"...

ولكن مفاجأة غير متوقعة، فقد انهار جزء من الركام، وشكل ساتراً منيعاً بيننا. كنت كابن يأجوج، لم أستطع له نقباً. فانطوى كل رجاء بالنجاة خلفه في يأس.

جلست القرفصاء بجانبها منكفئاً، والإحباط يكسرني، ألطم بيدي على رأسي وخدي:

- أنا الملام في ذلك، إنه خطئي، لقد قتلتها بغبائي واندفاعي

عاد وهج الشمس أكثر دفئاً، فقد مرت الغمامة السوداء الكثيفة التي كانت تحجبها. لم أجرؤ على النظر في وجهها، وخيل إليّ أنها تخاطبني:

- لن أسمح بذلك... لقد رجعت لإغاثتك..

نظرت إلى المحيط، والفزع يقتلني خوفاً وقلقاً على "آسيا". بحثت عن أي شيء قد ينقذها، حتى عثرت أخيراً على سكة حديد تستخدم في الحراثة. ربطتها بحبل بدعامة مؤخرة السيارة، وغرست السكة في جسد الركام، وبدأت أجرها لأمزق أشلاءه، وأنهش تماسكه. كررت المحاولة عدة مرات مضنية، حتى أطل النجاح من جديد.

- أنا هون يا عم... بس بخاف منها... راح تقتلني
- إنها لن تؤذيك، وسأحميك يا صغيرتي من كل شيء.

تنهدت "آسيا" بعمق، فقد بدت لي ذراعها، وأمسكت بطرفه، غصن بلا أوراق. عدت للحفر بيدي وأظافري حول جسدها، حتى انتشلتها من الركام. احتضنتها بروية، رفقاً بعظامها المتخلخلة، وقبلتها قبلة خاطفة، ودموعي تغسل خديها الورديين.

جلسنا فوق الركام، فانكمشت في صدري، وقالت لي ضارعة:

- شكراً يا عم... بدي أشرب عطشانة كثير.... وين أهلي؟

أسقيتها الماء، وكان لوقع سؤالها رنيناً مرعباً يتردد صداه في الأرجاء. تساءلت:

- من الذين ماتوا بجانبك؟

كانت تلهث بعنف، وانحنت إلى الأمام ناظرة إلى الحفرة:

- ما بعرفهم يا عم... أنا 'آسيا' وهم مش أهلي...

ترتعد برداً وخوفاً، وعيناها تدوران في المكان، تلاحق شبحاً يطوف حولها. ثم ركبت في سيارة الإسعاف، وتطلُّ عليَّ من نافذتها بأمل عجيب. وأنا تائه في السؤال:

- أين عائلتها؟!

لم تعرف أنني أعرف عائلتها... فقد رأيتها آخر مرة وهي طفلة في حجر أبيها، يوم كان هذا الحيُّ لا يزال حياً. ثم ابتعدت في سيارة الإسعاف، وعيناها ما زالتا تطلان عليَّ من نافذتها، والسؤال المتكرر فيهما يحوم بجناحيه حولي، يرفرف فوقها في نفس الوقت أعرف الإجابة... أعرفها جيداً.

بعد القصف، بعد موت الديك وانقطاع صياحه، بعد أن صار الركام شاهداً على كل ما ضاع، ها هي تخرج من بين الجدران المنهارة، فقد أرسلتها الأقدار لتذكرني بأنَّ بعض القصص لا تدفن مع الموتى.

حين انتشلتها من بين الحديد الملتوي، وضممتها إلى صدري، عرفت أن الحرب فشلت في سرقة كل شيء.

فذلك اليوم الذي انقطع فيه صياح الديك، كان هو اليوم نفسه الذي اختفى فيه صديقي، وكل من في البيت، ولم يبقَ إلا هي... رسالته المدفونة تحت الحجارة....

وبقي سؤالها معلقاً في الهواء... ظل لا يغيب...

الجُمَّيْـزة

استلمت شهادتي، حينها شعرت أنني أمسك أخيراً بثمرة سنوات من الانتظار. ورقة صفراء تحمل اسمي، لكنها لم تكن مجرد إثبات نجاح كانت سجلاً حياً لطفولة عاشها طفل تحت نير الاحتلال، بين انتفاضة وأخرى، في بيت تكاد جدرانه لا تتسع للفقر، ولا تتسع للأحلام.

عدت بها إلى البيت، وخطواتي تتسارع، وأخشى أن تُنتزع مني. فما زال الطريق محفوراً في ذاكرتي، الأزقة الضيّقة، الجدران التي تحمل ندوب الرصاص، وجنود الاحتلال عند المنعطف، يتفحصون حقائبنا فالمعرفة جريمة.

توقفت عند الباب، فاجتاحتني الذكريات، أيام مشيت فيها بأقدام منهكة من بلد لأخرى، وأخرى وقفت فيها حائراً بين دفتر جديد، أو قلم رصاص. لم يكن التحدي في الكتاب الدراسي، بل فيما يحيط به، أقلام ناقصة، ظلام يعمّ المخيم عند انقطاع الكهرباء، وقلق دائم من غارة أو اعتقال.

في الصف، أتجنب المقاعد الأمامية، ليس خجلاً، بل لأن دفاتري البالية عاراً أخشى أن يكتشفه المعلمون. ولأن ثمن الدفتر، ثمن رغيفين من الخبز، وفي فناء المدرسة أبتسم بينما قلبي يذوي أسئلة لا جواب لها:

- هل هناك مستقبل لمثلي؟

  هل يستحق العلم كل هذا العناء؟

  هل يمكن للأحلام أن تنمو هنا؟

لكنّني واصلت المسير. لم يكن ذكائي سري الوحيد، بل هناك أياد تدفعني، فدعوات أمي التي لا تنقطع، صبر أبي الذي لا ينفد، وأرواح رحلت قبل أن تحقق أحلامها. في كل مرة هممت فيها بالاستسلام، تذكرت زميلي "أحمد زيد" الذي سقط شهيداً وهو يحمل كتبه إلى المدرسة. وكتابه لم يقرأ حتى النهاية، لكنني قررت أن أكمل المسير عنه:

- هل أختار ما يحبّه قلبي، أم ألتحق بأي عمل يمسح عن أبي بعض تجاعيد الفقر؟

اليوم، أعلّق شهادتي بجوار صورة والدي – رحمه الله– وأعرف أنه لو كان بيننا لقال:

- "هذا أقل حق لك."

وأدرك أن هذا النجاح ليس انتصاراً فردياً، بل هو تتويج لمسيرة جماعية من الألم والأمل، في أرض تجعل من كل إنجاز معجزة.

لقد علمتنا الحياة هنا أن نصنع المستقبل كما نصنع الخبز من القليل من الدقيق، وكما نصنع الفرح من اللحظات الهاربة. إذا كانت الأحلام في أماكن أخرى تزرع، فهي هنا في المخيم تنتزع انتزاعاً، بصبر أعظم من الصبر، وإرادة أقوى من كل محاولات القتل.

لم تتردَّد أمي، تلك العجوز الأرملة التي تشع شمسها في سماء المخيم في إطلاق الزغاريد، وهي ترتدي ثوبها الحريري المطرَّز، الذي خرج من الخزانة بعد انتظار طويل، كان يترقب هذه اللحظة ليُزيِّن فرحتنا. دموعها التي غسلت سنوات الحزن، تحوَّلت إلى قطرات من الفرح، لتعود البهجة إلى بيتنا من جديد، بعد أن غادرتنا منذ رحيل والدي في حرب الخليج.

الحجة التي خيرها لا يعرف الحدود، وعطاؤها لا يتوقف، رغم تجاعيد الزمن التي رسمت على وجهها قصصاً من الألم والصبر، إلا أن عينيها تلمعان بحنان يذوب فيه الحزن، وقلبها الكبير يفيض بالعطاء لكل من حولها. سمعتها الطيبة تسبقها أينما ذهبت، حتى أن وسائل الإعلام تتحدث عنها بإعجاب، الحجة أسطورة حية تلهم الجميع بقصتها.

- ابني صار متعلماً وأستاذاً، وسيعمل في الوكالة.

كلماتها نسيم عليل، تحمل معها رائحة الأمل والمستقبل، لتذكِّرنا بأنّ الحياة، رغم قسوتها، لا تزال قادرة على أن تمنحنا لحظات تشرق فيها الشمس من جديد.

هي الأم التي فقدت زوجها، لكنها لم تفقد إيمانها بالحياة، بل حوَّلت حزنها إلى منارة أمل لكل لاجئ في المخيم. بكلمات بسيطة وأفعال عظيمة، أصبحت الحجة رمزاً للعطاء والتضحية، تعلمنا بأن الخير لا يموت، وأن الإنسان، رغم الظروف، قادر على أن يكون نوراً يضيء طريق الآخرين.

تتفاخر أمام نسوة الحارة، ترددها طوال شهر من استقبال التَّهاني، لم تعرف فيه الكلل ولا الملل، وعلب "السّيلفانا" الفاخرة تجمعها مع الهدايا من أطقم الصحون والفناجين، وتكدس أرطال السكر والأرز في زاوية المطبخ وتحصيها:

- "هذا من أم رائد، هذه من أم جلال، والطقم من أم شحادة..."

قائمة تختزنها في ذاكرتها، ترتب الهدايا حسب الأولويات، فلكل عائلة مناسبة تقترب، تلك ابنها سيتزوج، وأخرى كنتها ستلد، وثانية أضافت غرفة جديدة لبيتها، تقديم المباركة واجب...

- كل شيء قرظه ودين يمّا، حتى دموع العينين... لمن تتوظَّف على خير وتقبض.... بسدّد الزّيارات وبأحسن منها.

في عالم المخيم، تصبح الهدايا ضيوفاً دائمين، يتنقلون بين البيوت في المناسبات، نكاد نحفظها عن ظهر قلب: شكلها، لونها، مميزاتها، وحتى عيوبها! نعم، قد تزورنا الهدية نفسها عدة مرات في العام قائلة:

- ها أنا عدت إليكم مرة أخرى...

لكن "الحجة" لها طريقتها الخاصة في التعامل مع هذه العادة الطريفة. فهي تخصُّ علب "السيلفانا" باهتمام فريد، تخبئها بمهارة في "النملية" الخضراء العتيقة، التي أصبح جلدها الخشبي يتجعد ويتقشر من كثرة الاستخدام.

تلك النملية التي تسند ظهرها إلى حائط الغرفة الوسطى بكل وقار، تلك الغرفة شاهد صامت على كل الأحداث منذ النكسة.

لمن لا يعرف "النَّمْليَّة" فهي لها من اسمها نصيب، فقد صُنِعت خصيصاً لمنع النَّمل من التَّسلّل إليها، وسرقة محتوياتها، هي أشبه بالخزنة الخشبيَّة، وفي العادة تكون من طابقين ودولابين في الوسط، ولها مِفتاح لا يفارق عُبَّ ثوب الحجَّة.

هكذا تتحول الهدايا المتكررة إلى جزء من ذكرياتنا، وتصبح "النملية" الخضراء رمزاً للدعابة والحكمة في بيت الحجة، التي تعلمنا أن الضحك يمكن أن يكون أفضل طريقة لمواجهة تقلبات الحياة.

كنا صغاراً، وكيلا ينام الشيطان، ننطلق في مغامراتنا الليلية بعد منتصف الليل بقيادة أخي "عبد الحكيم"، الذي كان "لص حلوى" محترف. يتسلل بخفة إلى علبة "السيلفانا"، وينزع غطاءها الشفاف ببراعة فائقة، ثم يعيده كما كان، دون أن يترك أثراً يُدينه. ثم يوزع الحبات علينا بسرية تامة، مع عهد أقسمنا عليه جميعاً:

- "لا اعتراف، لا وشاية"

وذلك لتجنب صفعات "شبشب البلاستيك" الشهير الذي ينتظر من يجرؤ على الاعتراف.

أحتفظ بحبتي تحت لساني، أقلبها برفق وحذر، كنز ثمين في فمي، أخاف من ذوبانها بسرعة إذا ابتلت من ريقي.

تلك الحبات الصغيرة تمثل لنا عالماً من المتعة والسرور، في وقت نحلم فيه بأبسط الأشياء. حتى التهمة، إذا وقعت، تتوزع بين أخوتي الثلاثة عشر، قضية:

- "من فعلها؟"

التي لا تحل أبداً!

جاء يوم الأحد، بعد أشهر من الانتظار الذي بدا دهراً بأكمله، وفي ساعة مبكرة من الفجر، حوالي الخامسة، والعالم لا يزال غارقاً في سباته، ودَّعت إمام المسجد بقلب مليء بالأمل والتوقعات. انطلقت والقمر يرافقني بصمت في رحلتي نحو وظيفتي الجديدة في "مدينة القمر"، المدينة التي بدت جزءاً من عالم آخر.

في تلك الساعة المبكرة، كنت على الأرجح الموظف الوحيد في الشارع الذي يبحث عن سيارة تُقلُّه إلى عمله. فقد طُلب مني التبكير، فدوامي يبدأ قبل أن تستعر حرارة الشمس، وقبل أن يستيقظ معظم الناس من أحلامهم.

فرافقت مجموعة من العمال، وبدأنا رحلتنا المليئة بالمغامرة، نتنقل من سيارة إلى أخرى في سباق ضد الزمن.

الطريق متعرجة، تنحدر بنا مثل حية سوداء تسعى بين الجبال الجرداء، التي لم ترَ قطرة ماء منذ آلاف السنين. جبال لا ترتوي، وتقول لنا:

- "كمن وصل البحر، ورجع عطشان!"

بحر مات منذ زمن بعيد، تاركاً وراءه أملاحاً تحيط به، تحنيط لذكرى ماء غادر. الحياة هجرت هذه الأرض بكل أشكالها، تاركة وراءها صحراء قاحلة، وهالة رمادية تحيط بنا من كل جانب.

قلت للسائق، محاولاً كسر الصمت الذي بدا جزءاً من المشهد:

- يبدو أن كل شيء هنا يتبخر، حتى الهواء نفسه.

الرحلة غريبة، خرجت من رواية خيالية، كل شيء حولك يدعو للعجب والاستغراب. مدينة القمر، بجبالها الجرداء وبحرها المحنط، تنتظرني، لتقول:

- هل أنت مستعد لدخول عالم لا يعرف الرحمة؟

تعييني في مدرسة للوكالة في مدينة أريحا، هكذا أقنعتني مشاعري:

- عالم آثار في مهمة؛ لينقّب فيها عن.... لا أعلم.

ولكن في بداية مشواري سُدَّت أذناي عن السَّمع، ولازمها طنين يشكو للدماغ الطرش الذي أصابها، وعيوني ترقب الأفق البعيد، وتتفحصه بابتهاج غريب؛ لأخرج بنتيجة واحدة قلتها في نفسي:

- لم تتغير المدينة منذ آلاف السنين، إلا أن تاريخها المكتوب على الحجارة نما بإضافة أربعة مخيّمات تزاحم تاريخها الأوَّل.

أطل من بعيد مخيم "عين السلطان" وعلمت لاحقاً أن البابليين اقتلعوا بالقرب من نبعها عيني أحد السلاطين، فكان التفاؤل يطل عليَّ من بداية نزولي عن سطح البحر حتى نبع العين. قصة غريبة تثير الدهشة، خرجت من صفحات أسطورة منسية.

وعندما برزت أسوار مدرسة مخيم "عين السلطان" أمام ناظري، شعرت بأنني على أعتاب مكان يحمل في طياته أسراراً قديمة. لكنني بدلاً من أن أستسلم للغرابة، وجدت نفسي مغموراً بالتفاؤل منذ أن بدأت نزولي من سطح البحر، حتى وصلت إلى نبع العين.

التفاؤل يذكرني بأن المكان له قصه تحمل في داخلها درساً أو حكمة. حتى لو تتحدث عن سلطان فقد عينيه، فإنها تظل جزءاً من تاريخ هذا المكان، الذي أصبح الآن جزءاً من حاضري أيضاً.

استُقبِلت بترحاب لطيف بعد اجتياز الباب الأزرق، وتشيد المديرة بالمعلم القادم:

- لم تتأخر، بداية رائعة لمعلم جديد، المسافة بعيدة، والمواصلات صعبة.

ضيافتها عابرة وسريعة، توزيع أوامر لا أكثر. قدمت لي فنجان قهوة مُرَّة بلا وجه، تذكير لي بأن الحياة هنا لا مكان فيها للتحلية ولا الوجوه المتفائلة. ثم ألقت في حجري رزمة من الكتب، وكومة من "الكراريس" المبعثرة، وحفنة من الطباشير الملونة.

نبرة صوتها جافة وحادة. حواجبها كالسيف لم تكن تستقيم أبداً، فبينما يرتفع أحدها في تحدٍّ، ينخفض الآخر متقوساً يحمل عبء العالم. ثم أضافت بتعليمات سريعة:

- كن رفيقاً للطلاب، رقيقاً معهم، عالج مشاكلهم بهدوء، لا تضربهم، وابتعد عن التعصب والسياسة.

كلماتها تخرج حاملة في طياتها تهديداً خفياً، حسبتها زوجة السلطان التي اقتلعت عينه عند نبع عين السلطان. أشعر بمحادثة مع ملكة متوّجة، تمسك بصولجانها بيد من حديد، وتنظر إليَّ بعينين لا تعرفان الرحمة.

تعليماتها تبدو قوانين منقوشة على حجر، لا مجال لتجاوزها أو مناقشتها.

وقفنا نراقب دخول مئات الطُّلاب إلى المدرسة؛ لننظّمهم في طابور الصّباح، والشَّمس ما زالت تتثاءب خلف أشجار البلح والجُمَّيز:

- عالمٌ أزرق...

أول كلمة نطقتها بعد الاستفاقة من ذهولي من لقاء المديرة، فالمشهد الذي خطر ببالي لوحة زرقاء تلفُّ المكان كله: العلم أزرق، وساريته كذلك، الأبواب، الأثاث، الجدران، وحتى دفاتر الطلاب وملابسهم. قطعة من السماء نزلت إلى الأرض، أو دخلت قرية السنافر الأسطورية، فاللون الأزرق يحكم كل شيء.

أما الطلاب فهم خليط عجيب من التنوع: أشقرٌ يلمع شعره تحت الشمس، أبيض مثلج، وآخرون ببشرة داكنة كالقهوة الغنية. بينهم لاجئون وبدو وحضر، وجوه تحمل حكايا تختصر طبيعة المكان والسكان، ونوع الحياة التي يعيشونها.

المشهد لوحة فنية رائعة، تجمع بين الجد والغرابة، بين الواقع والخيال، مكان لا ينتمي تماماً لهذا العالم، لكنه يعيش فيه بكل تفاصيله.

أما المعلمون فأعينهم خلف نظاراتهم تغوص في وجوه الطلاب لتبحث عن كنوز مخبأة في جماجمهم. الهيبة تلفُّ المكان، والمديرة تصرخ في "سمّاعة" الإذاعة الصباحية، توجِّه نداءها ليس للطلاب فقط، بل لكل سكان المخيم:

- "انتظموا وبكّروا"!

قرع الجرس، أو بالأحرى "إطار السيارة المعدني" الذي فقد جلده، وبقي عارياً مثل ضحية حادث مروري. يتدلى بجنزير صدئ جانب الساحة، وعندما تضربه بقضيب معدني من جميع الجهات، تحصل على "سمفونية" من الأصوات الرنّانة التي قد تنافس فرقة موسيقية. واللحظة الأكثر إثارة هي عندما تدغدغ جوفه، فيصدر صوتاً يشبه "لهاة الحلق" وهي تترنح من الضحك! نعم، هذا هو الجرس المتطور في مدرستنا، حيث الإبداع يلتقي بالإزعاج والفوضى.

بدأت الحصة الأولى، والشمس تشعل نارها في السماء بلا رحمة، تريد أن تذيب كل شيء في طريقها. مروحة عتيقة تتمايل في سقف الصف الواسع، تحاول أن تنشر نسيماً من الهواء بين خمسين طفلاً، تبدو عاجزة أمام هذا الكم الهائل من الحر والتعب.

طُلب مني أن أعلمهم، أن أثقفهم، بل وأن أربيهم أيضاً، هنا أحمل على كتفي أعباء عالم كامل بخبرة مجترَّة من ذاكرتي البعيدة، عندما كنت أنا ذلك الطالب الصغير الذي يحلم بمستقبل أفضل.

تفقدت الحضور، أعدُّ الطلاب واحداً تلو الآخر، أحصي سكان مدينة بأكملها. اثنان وخمسون طالباً، إلا "سعيداً"، الذي لم يصل بعد، كما أخبرني زملاؤه ببراءة:

- "هكذا هو دائماً!

بدأنا حصة القراءة، لأجد نفسي وتسعة طلاب فقط نقرأ بطلاقة، بينما الباقون يتيهون بين الحروف، ضائعون في صحراء بلا بوصلة، بينما العالم ينظر إلى جهة أخرى.

كيف تجتمع هذه الرموز لتكوين كلمات؟

كيف يفهمون العالم من حولهم إذا لم يفهموا حتى هذه الأساسيات؟

وكيف يفترض بهم أن يبنوا مستقبلاً وهم لا يملكون إلا كتباً ممزقة وبقايا دفاتر، تبرعات منسية من الأمم المتحدة، تغطي صورتها الملونة واقعاً باهتاً، وحروفاً لا يستطيعون قراءتها؟

الأرقام تتحدث في مخيمنا، مدرّسة واحدة لألف طفل، وعيادةٌ بلا أدوية تجيد تحويل الناس إلى صفة "أرمل"، وبئر ماء تصلحه المنظمة مرة في السنة، كي تظل صورتها نظيفة.

أما "حقوق الإنسان" و"التعليم للجميع"، فهي شعارات تُعلّق على جدران المؤتمرات الفاخرة، بينما أطفالنا يتعلمون الجوع قبل تعلم الحروف، ويتقنون الخوف قبل إتقان القراءة.

السؤال الحقيقي ليس كيف سيفهمون العالم، بل كيف سيفهم العالم يوماً معاناتهم؟

بدأ الغضب يتسلل إلى مفاصلي، وعرقي يتصبب يحاول إخماد نار تشتعل في داخلي خوفاً من أن أفقد صوابي، جلست بجانب النافذة، تلك البوابة المفتوحة على جهنم، تطلق لهيبها بلا توقف. الكرسي الخشبي، المليء بغبار الطباشير، غير مريح كفاية ليجلس عليه إنسان يحمل هذا العبء الثقيل.

ذلك المشهد، وكل هذا العجز والتيه، هو نتاج قهر الاحتلال الذي حوَّل عالماً كان يوماً ما راقياً إلى عالم من اللاجئين في مخيمات تفتقر إلى كل شيء. مخيمات حيث الحروف تتطاير في هواء خريفي جاف، والأحلام تدفن تحت ركام الفقر والحرمان.

كيف لأنفاسي أن تهدأ، ولعطاسي أن يتوقف، وأنا هنا، في هذا المكان، أحاول أن أُعلّم، أن أُصلح، أن أُغيّر، بينما كل شيء حولي يصرخ بأن العالم أكبر من أن أحمله وحدي؟

هذا هو عالمنا الآن، عالم كان يوماً ما يزخر بالحياة والثقافة، فأصبح مجرد ظل لنفسه، يحاول أن يمسك بأشلاء كرامته، وسط غبار المخيمات وحرقة الشمس.

أخيراً وصل سعيد بضجة، يدق طبول الحرب على باب الصف المعدني، منتظراً الإذن بالدخول. فاستدرت نحوه، وفجأة كادت عيناي تخرجان من مكانهما...

جفَّ قلبي للحظة، وحتى هو أصيب بالذّهول، ظل واقفاً مذهولاً، فاغراً فمه، يحاول أن يتكلم، أو يعتذر، أو يبرر تأخره، لكن الكلمات خذلته أمام وجه المعلم الجديد.

سعيد قصير، عقلة إصبع جميلة، لم يكن من عالم الخيال. أذناه الصغيرتان الجميلتان كانتا الوحيدتين اللتين تبدوان في مكانهما الصحيح. عيناه الحمراوان تلمعان، تحذّران من خطر ما، وبنطاله الأزرق من الجينز يحمل سراً غريباً:

- له رجل واحدة فقط!

نعم، الرجل اليسرى عارية حتى أعلى الفخذ، بينما اليمنى كانت محظوظة ببقايا الرجل الثانية من البنطال. قميصه الأزرق تحول إلى لوحة فنية بفضل قلّة الغسيل، وشعره المجعّد يخفي بداخله بقايا قشٍّ صغيرة، تبادر إلى ذهني

أنّه يحضّر لبناء عشٍّ للطيور. وعلى كتفه جِرابٌ قماشي ممزق يحمل بقايا أوراق وكتب، ومن أحد ثقوبه يتدلى قلم رصاص مكسور الرأس يقول:

- حتى الأقلام هنا تيأس...

حذاؤه تحفة فنية أخرى، حيث نبتت فيه أعشاب قصيرة، إما من الوحل المتراكم، أو لأنها قررت أن ترافقه في رحلته اليومية دون أن تسأل عن وجهتها.

لم أجرؤ على زجره أو لطمه، فقد بدا لي أحد أبطال قصة الأقزام السبعة، خرج من مخبئه في كهف جبل "القرنطل" المطل علينا.

الفرق أنَّ سعيداً لم يكن يعيش في عالم الخيال السعيد، بل في عالم صنعه الاحتلال والفقر، حيث حتى الأحذية تنبت أعشاباً، والبناطيل تفقد أرجلها، والأقلام تموت قبل أن تكتب حكاية.

هكذا وصل سعيد، ليس طالباً متأخراً، بل شهادة حية على أوضاع تجعل من كل شيء عادي معجزة، ومن كل معجزة مأساة.

لم أكن أسخر من سعيد...

كيف أسخر من طفل يحمل بين ضلوعه هذا الصمت والقهر؟

هو في نظري مجرد شاهد حيٍّ على عالم المخيم الذي لم يختره، عالم يحفر جروحه في جسد الطفولة قبل أن تعرف معنى الجرح. هنا حتى الأحذية تتعفّن من طول الانتظار، وترفض السير في دروب لا تؤدي إلى أيّ مكان. والبناطيل تُبتَرُ أرجلها واحدة تلو الأخرى، ليس لأنها بالية فحسب، بل لأنّ أصحابها لم يعودوا يكبرون.

الفقر هنا أوقف الزمن. أما الأقلام، فتموت في قبضة أياد صغيرة قبل أن تكتب كلمة واحدة، لأن الحروف هنا لا تغني من جوع، ولا تعيد لأحد حقّاً ضائعاً.

سعيد ليس متأخراً عن الحصص.. بل الوقت نفسه قد تخلى عنه، مثلما تخلى عنه العالم بأسره. جاء إلى الصف حاملاً كل هذا العجز والقهر في عينيه، ليس كطالب، بل رسالة موجعة من المخيم إلى الإنسانية تقول على لسانه:

- انظروا.. هذا ما تفعله بنا الحياة حين تتحوّل إلى مجرّد انتظار للمعجزة....

سعيد يعرف أن حذاءه المهترئ سيبقى معه حتى بعد موته، لأن أحداً لن يجلب له آخر.. يعرف هذا كما يعرف أن الشمس تشرق على أطفال غيره في أماكن أخرى بلا حاجة إلى تصريح عبور. في مخيمنا حتى الخوارق تأتي ناقصة:

- قد تحصل على قلم جديد، لكن لن تحصل على وطن تكتب عنه...

عاد الاستقرار لتفكيري، ورسمت ابتسامة لطيفة، وقلت مرحباً:

- تفضل يا "سعيد"، لا تتأخر مرَّة أخرى، وانتظرني بعد انتهاء الحصة، يجب أن نتكلَّم.

كلانا يرمق الآخر من طرف عينه طوال الحصة في مسابقة "من يرمش أولاً يخسر.

كلما التقت أعيننا، يخفضها بسرعة، يلعب "الاستغماية" بعيونه. ونظراتنا تتقاطع مثل خطوط الطول والعرض على خريطة فلسطين... كلاهما موجود نظرياً، لكن لا أحد يعترف بهما على أرض الواقع.

بدأت أظن أن قصة إعجاب خجولة بدأت بيننا أشبه بمسلسل درامي مصغر: نظرات سريعة، ابتسامات مكبوتة، وقلوب تنبض بالسر، واستمرت هذه "الدراما" حتى قرع الجرس، فانتهت الحلقة بلا خاتمة واضحة.

تحت الظل سنكون بعيدين عن ضجيج الحياة، جلسنا في طرف الممرّ مقابل الساحة، تحت شجرة "الجُمَّيْزة" واتفقنا مبدئياً أن تكون مكاناً للقائنا، والطّلاب يقفزون أمامنا كالأرانب، يسرحون ويمرحون في السّاحة التُّرابيَّة الواسعة، ومشهد الغبار المتصاعد من أقدامهم، ووجوههم المحمرَّة وصرخاتهم القصيرة نتيجة اصطدامهم المفاجئ ببعضهم؛ ذكرتني بأفلام الغزوات، فتجاهلت كل ذلك متسائلاً:

- ماذا تفعل يا سعيد كل يوم؟

- أنا سعيد جداً... اليوم هو ...

- فقاطعته، أسألك ماذا تفعل؟!

- "أرجوك لا تضربني يا أستاذ "المعلم جمال يضربنا "بالبربيش" عندما... عندما لا نعرف الجواب.

فقطاعته ووضعت يدي على كتفه برفق قائلاً:

- لا تخف لا يوجد "برابيش" ولا غيره... ولكن أجب عن سؤالي...

- "أعمل في "الحواكير".... نزرع، نحصد، نربي الماشية.. ونعمل الجبن و"الجميد"... وأشياء كثيرة..."

بعد حوار قصير بإجابات موجزة، واستفسارات مختلفة؛ بدت لي أخلاقه الطَّيبة، فعيونه تلمع ذكاء، له من سعة الصَّدر والأناة ما يجعله يجيب على الاستفسارات كلّها. ولكن... لا بدَّ من السؤال الجوهري الذي بقي يتيماً، وأتردَّد في طرحه:

- لماذا ملابسك ممزقة؟

ابتسم سعيد بذلك الخجل الطفولي الذي يذيب القلوب، حتى احمرّت خدوده تفاحة ناضجة تحت أشعة الشمس، ووصل وهج الخجل إلى محيط عينيه، فبدتا بحيرتان صغيرتان تلمعان بالحياء.

خفض يديه قليلاً، محاولاً بتواضع أن يغطي فخذه العاري، وبدأ يتحدث بكلمات بدوية متفرقة، تنساب قطرات مطر متساقطة من سماء قصته المؤلمة:

- ولدت أمي أختي زينب فجأة في ليلة المطر يزخُّ بقوة، وليس عندنا يا أستاذ 'شرايط' لتحفيظها، فمزّعت 'الداية' بنطالي لتستخدم رجله حفّاظة، فلم يكن إلا هو على عمود الخيمة".

داهمتني ضحكة لم أستطع كبحها، فالرواية عجيبة إلى حد لا يصدق، لكنني سارعت إلى طمأنة كرامته، بأن مثل هذا الأمر قد يحدث لأي منا في ظروف قاسية. ثم سألته، محاولاً فهم كيف يستطيع أن يعيش بهذه الظروف:

- "أين تستحم؟ وأين تنام؟ كيف تدرس؟!

أجاب ببراءة تدمي القلب:

- "لما أرجع من المدرسة، أغطس في مجرى "نبع العوجا" جنب الطريق، ولما أوصل 'بيت الشعر'، يعني 'الكشك' يا أستاذ، بكون قد نشفت... وأنام عند المعزات لأحرسها... لأن ذئباً يهجم عليها... وأدرس في المدرسة فقط... وبنجح"...

مشاعر كثيرة اجتاحتني في تلك اللحظة، تحمل معها الألم والإعجاب في آن واحد. على عتبة أفكاري، أيقنت أن سعيداً من ذلك النوع الذي لا يثنيه شيء عن عزمه، ولا يضعف إرادته حتى أقسى الظروف. فقلت له، وأنا أحاول أن أخفي رعشة صوتي:

- أنا سعيد مثلك، وبالتعرف عليك زادت سعادتي...

خلف هذه الكلمات هناك ألمٌ أعمق، ألم يعبث به الاحتلال في كل تفاصيل حياتنا. الاحتلال الذي حوَّل حياة سعيد، وحياة الكثيرين مثله، إلى سلسلة من المعاناة اليومية. الاحتلال الذي يجعل من بنطال طفل حفّاظة لأخته، ومن نبع الماء حماماً، ومن بيت الشعر مأوى لا يحمي من برد الشتاء ولا حر الصيف.

الاحتلال الذي يسرق حتى أبسط حقوق الإنسان، ويترك الأطفال يحرسون المعزات من الذئاب، بدلاً من أن يلعبوا ويدرسوا في أمان.

ذلك الفتى الصغير، رمز لصمود لا يُقهَر، وشاهد على "تراجيديا" محزنة يعيشها شعب تحت وطأة الاحتلال، الذي لا يترك شيئاً في حياتنا إلا عبث به، وحوّله إلى معركة يومية من أجل البقاء.

ثمّ أردف متفاخراً، وقد نصب قامته مستخدماً أصابع قدميه محاولاً أن يصل إلى مستوى قلبي، ويديه على خصره:

- "كمان أنا شاطر يا أستاذ، ببيع جبنة ولبنة و"مخيظ"، وإذا بدك "بجبلك" بكرة رطلين جبنة؟"

حوارنا محزن وكئيب، أشجانه مؤلمة تقبض الصَّدر، شيء مدهش أن يعيش طفل ظروفاً مماثلة، ثمَّ يأتي إلى المدرسة، شعرت أنَّه لا يريد إنهاء الحوار بيننا. ولم أفهم قصده بكلمة "نجاح"...

- هل نجاحه بالتَّغلب على بؤسه وعمله الذي يشغل تفكيره؟

أم يقصد نجاحه في الدراسة... لعلَّ الأيام تجيب عن أسئلتي دون دهشة.

- هيا لنغادر، قد أحرقت الشمس ظهورنا، وتبخرت أدمغتنا يا سعيد...

من الواضح أنَّ "سعيداً" يتَّقد ذكاء، وعلى العموم، لدي أفكار تخصه، وأحياناً يأتيني شيطان الإحباطات:

- هل ستضيع وقتك في تغيير العالم؟

- ما أحلاك يا أستاذ!

أول جملة سمعتها في اليوم التالي تحت "الجُمَّيزة" قد أسعدتني حقاً، ولكن بشكل جزئي؛ لأنّه لا يعلم أن ملابسي قد اشتريتها من "تحويش نقوط" تخرجي، وما زلت أنتظر الراتب الأول؛ لأتوقف عن اقتراض مصروفي من أخي "يوسف" الأكبر مني قليلاً، والذي يعمل بائعاً.

انتهى اليوم الثاني، ثم تلاه العاشر، الزمن ينساب ببطء مؤلم.

سعيد، ذلك الفتى الصغير، يكبر كشتلة ريحان هزيلة، تحتاج إلى الري والعناية، لكنها تظل تصارع من أجل البقاء في تربة قاسية.

كان بارعاً في إحضار مكونات "قلاية البندورة"، تلك الوجبة البسيطة التي تتحول تحت وطأة الظروف إلى طبق فاخر. يتسلل خفية عن الأعين، قافزاً فوق الجدار إلى الحقول القريبة، ليجمع ما تيسر من البندورة والبصل، ثم يسلّمها بسرية إلى "الآذن" في المطبخ.

القلاية، برائحتها التي تملأ المكان، تشعرك بهيبة الجهد المبذول لإحضارها وإعدادها، وحرارة الشطة فيها تشعل ناراً صغيرة تُذكّرنا بحرارة الحياة التي نعيشها.

انتهى الشهر الثاني، والأيام تتراكم في أجندة دوامي، صفحات من معاناة لا تنتهي. مشاعري تتبدل، لكن الواقع بقي كما هو، لا شيء يتغير كثيراً. بدأت حالتي المزاجية تألف المكان، وأحببت لقاءاتنا تحت الشجرة مع كوب

الشاي، رغم أن حرَّ الشمس يطبخ دماغي يومياً مثل شطة قلاية البندورة، فيذكّرني بأنّ الراحة هنا لها ثمنها الباهظ.

أذكر يوماً تأخرت فيه عن الحصة، بعد أن اشتعل جسدي بالحرارة، فذهبت إلى المطبخ باحثاً عن ملاذ بارد. أزلت رفوف الثلاجة، تكوّمت بداخلها، محاولاً إعادة ضبط حرارة جسدي، لأن ناراً تأكلني من الداخل.
"الآذن" أمسك بي، وبدأت نميمته تنتشر بين المعلمين مع تجواله في سجل "الحضور والغياب"، فتحولت إلى طرفة للتندر والفكاهة لبعض الوقت.

وفي طريق العودة، بالقرب من "طريق المعرجات"، رأيت سعيداً يقفز أمامي في الوادي، أسرع من الظبي، يحاول الابتعاد مسرعاً من شيء ما. وفي الأفق مخيم صغير من الخيام السوداء يلوح كشامات على جسد الأرض، تذكّرنا بأن معاناة الفلسطيني لا تنتهي، حتى في أبسط تفاصيل حياته في إعداد طعامه، في بحثه عن برودة تخفف من حر جسده، أو في قفزاته اليائسة نحو مستقبل مجهول.
هكذا هي حياتنا، سلسلة من المعاناة التي لا تنتهي، حتى في أبسط لحظاتنا، فالحاجة تلاحقنا في كل تفاصيل وجودنا.

- لقد رأيتك مسرعاً أمس في طريق العودة؟
- "لازم أحلب المعزات والخرفان يا أستاذ وأشربهم وأطعميهم..."
- هل التزمت باتفاقنا؟
- "نعم، حفظت الآيات والأناشيد، نسخت الدَّرس ثلاث مرات، كتبت الإملاء، وخطي أصبح جميلاً"
- وجهك أصفر قليلاً.... عيونك... أم ماذا؟
- "من التَّعب والشّوب يا أستاذ..."
- ممكن، لكن انتبه لنفسك أكثر...

تسرع الأيام أكثر، وسعيد يزداد تعلُّماً، ولم يخيّب رجائي فيه، رغم عدم مقدرتي على تغيير نوعيّة حياته، أو حتى ملابسه، إلا أنه أثبت قدرة فائقة على التعلم، وهو الشّيء الوحيد الذي تغير فيه حسب ظني. لقد أحببت هذا الطّفل المشاكس، ويعجبني عناده وإصراره، وأذكر يوماً قال:

- ليش تهتم فيِّي يا أستاذ؟ "

سؤال بسيط في ظاهره، لكنه يحمل في طياته غموضاً يهز الأعماق. لم أتوقعه، ولم أكن مستعداً للإجابة عليه. فعلاً، لماذا هو بالذات، دون الآخرين؟

لماذا يثير فيّي هذا الاهتمام الذي لا أعرف مصدره؟

أجول في عقلي، وأسائل نفسي:

- هل لامست حياته مشاعر دفينة فيَّ، نغمة قديمة أعادتني إلى زمن نسيته؟

أم أن قصته نبشت أوجاعاً مختزنةً في أعماقي، أوجاعاً من ماضي المخيم الذي ما زال يعيش فيّي رغم كل هذه السنوات؟

لم أجد إجابة واضحة، فقلت له محاولاً إقناع نفسي قبل إقناعه:

- إنني يا سعيد أحاول أن أتحوَّل بك من حالة عدم الرضا إلى الرضا"...

التساؤل بقي معلقاً في الهواء من ملامح وجهه، كظلٍّ لا يزول:

- هل الرضا ممكنٌ في عالم مثل عالمنا؟

وهل اهتمامي به هو محاولة لإنقاذه، أم لإنقاذ شيء فيّي أنا؟

السؤال يبدو أكثر غموضاً من الجواب، باب مفتوح على أسرار لا نعرفها، ولا نعرف إن كنا نريد أن نعرفها.

تحوَّلت ملامح وجهه إلى شكل غير مفهوم من جوابي، يقف أسفل درج السَّاحة تحت الجُمَّيْزة، وقد سقطت على رأسه بعض الأوراق المصفرَّة الخشنة، عندما رفع رأسه لينظر إليّ من تحت ذقني بدا وجهه غريباً، ازداد نحافة، وصار مثل عرجون نخل جاف، بدت عيونه دائريَّة صفراء مبيضَّة، كعيون سمكة مجفَّفة غائرة بالملح، وزادت حزناً بعد أن سقطت رموشها الجميلة:

- أنت مريض؟!
- "يا أستاذ، بطني دائماً يوجعني، والسخونة معي ليل نهار..."
- و ...
- "أنا تعبان كثير يا أستاذ، "مستوي"، ومفاصلي كمان ضعيفة."
- أذهب للطبيب في عيادة المخيم فوراً...
- بكرة، بس أجيب كرت الوكالة...

- لم يحضر سعيد؟!

سؤالي بقي دون إجابة من الطّلاب، فقط اكتفوا بالنَّظر إلى مقعده، يقولون لي:

- الجواب أمامك، وما عليك سوى النَّظر...

ولكنَّني لا أراه بشكل قاطع، فاليوم هو الخميس، وسيغادر الجميع والبهجة تتبعهم، إلا "سعيداً" سيبقى صدى صوته في مقعده، شقاوته في قرع الباب حاضرة، وبريه للقلم بالشَّفرة التي ينتزعها من المبراة مثل من يشحذ رُمحاً، بقايا الخشب على الأرض تشهد بذلك، حتى الحفرة التي حفرها في مقعده ما زالت ممتلئة ببقايا المِمحاة.

ذهبت إلى الشَّجرة لأستطلع المكان، ولم تكن هناك سوى بعض الوريقات الجافة تطوف حول نفسها من زوبعة هواء.

عدت إلى البيت، وتفكيري ما زال معلقاً على شجرة "الجُمَّيزة" وعيوني تتجول في طريق "المعرجات"، خيالي يطوف حول مضاربهم؛ علَّ الاطمئنان يعود إلى قلبي عليه، أغيب عن الشَّارع في حلم يقظة متخيلاً أنَّني صنعت طبيباً أو مهندساً للمستقبل.

أيام صعبة قضيتها في إجازتي، غارق في التَّفكير، نومي تقاطعه متلازمة الهواجس المزعجة، أفتّش في أركان ذاكرتي عن فكرة تقلب الأمور بضربة حظ واحدة، فصعوبة شرح الشعور كفيلة بأن تجعلني صامتاً حائراً طوال الليل. حتى الحجة ظننت أنني واقع في غرام ما.... وبدأت تضع الشروط، وتمهد للإجراءات...

أطل يوم الأحد من بعيد، نهضْت قبل الشَّمس أسابق ثعالب الطريق، وصلت المدرسة و"الآذن" يفتش في قلادة مفاتيحه ليحرك الباب الأزرق من مكانه، فبدا لي من بعيد فيلاً ضخماً مصاباً بالاكتئاب والحزن.

لم أنتظر كثيراً، قررت زيارة خيمتهم، أو كما يسمونها: "مضاربهم"، ذهبت ماشياً على خطى "سعيد" وقطيع أغنامه، والسَّماء تتخذ مسْحة حمراء مائلة إلى الاصفرار، فذكَّرتني بعيونه كما رأيتها آخر مرّة، دخلت الخيمة، وكانت مستودعاً لكلّ شيء، تفوح منها رائحة خبز الطَّابون المحترق، ونكهة الحطب، ورائحة الرَّوث تشاركنا أنفاسنا، كان مُمدَّداً على فرشته في طرف خيمة الضيوف، بجانب عمود أعوج من شجرة سرو، وعلى الطرف غصن مقطوع منها عُلِّقت حقيبته، خيوط من الشَّمس تخترق الشّادر العلويّ، فتساهم في إشعال الحمى في وجهه، وشفتاه محكمة الإغلاق، تبكي أمّه بجانبه، وتسقيه "ما هبَّ ودبَّ" من: الميرمية، واليانسون، والبابونج، جلست بجانبه بعد تحية مختصرة، عرّفتها بنفسي، والألم يعتصر قلبي، ويضغط على معدتي؛ ليحرضها على أن تضرب عن العمل:

- سلامتك يا سعيد...

أمسكت بيده، باردة رغم الحرارة المشتعلة في المكان... نظر إليَّ متمسكاً بابتسامة طفل عليل، تغيّر لون جلده، ويحاول النّهوض احتراماً لمعلمه فمنعته، تحسّست جبينه، وكان يغلي، فسألت والدته:

- ماذا قال الطَّبيب؟

نظرت إليَّ بعيون غائرة، تقطر بُكاء أسود يختلط بكحل عينيها، وعويلُها تخنقه بشالِها الأسود، أحسست بأنَّني أقف مواجهاً للكآبة بجميع صورها، فقلت في نفسي:

- هذا الحظّ العاثر يمكن أن يحدث لأيّ ساكن في الخيام... يبدو أنَّها اعتادت هذا العذاب قبلنا...

قالت منكسرة:

- طبيب؟!، لم يذهب إلى أيّ مكان، فقد كان منشغلاً في أعمالنا...
- أحضري لي بطاقته، سآخذه إلى المستشفى... بسرعة..

حملته على ظهري، نزلت التّلة مهرولاً، تلحقني وصراخها كمن خطف وليدها، وتهرب العقارب من أمامنا، والغبار خلفي يخفي وقع الألم والخطى، أسابق الزَّمن لأشتري له بعض الوقت، فاستوقفت أول سيارة لاحت في الأفق، عندما دخلنا المستشفى، يبدو بارداً مثل قطعة رخام صفراء انتزعت من أحد القصور...

- اطمئن... سنقوم باللازم... اجلسوا هناك...

قالها الطّبيب دون أيّ ابتسامة، أو ملامح مُبشّرة، اختفى الجميع في غرفة بعيدة، فتسلّلت إليهم، حوله جمهرة من الأطباء والممرّضات، بدا المشهد ملائكياً لمعالجة روحه، وأضحى آلة موصولة بالأسلاك والأنابيب؛ لحثها على العمل.

سُمح لنا بالدخول أخيراً، ومرَّ الوقت وأنا بجانبه على السرير، أراقب خيطاً أخضر يسير ببطء في الآلة المتصلة بجسده، الخيط يحاول أن يرتفع للأعلى قليلاً، لكن دون جدوى، أمسكت يده، وهمست في أذنه:

- سأنتظرك تحت الجُمَّيزة كل يوم... لا تتأخر...

فارتفع المؤشر قليلاً، وأصدر صوتاً مُغايراً عما سبق، فاعتبرت ذلك وعداً منه بالحضور...

في اليوم التالي لليوم الرابع لغيابه، وقفت على باب المدرسة، متكئاً على سارية العلم، أنتظر قدومه كما أفعل يومياً، والوقت توقف عند هذا الحدث الذي لم يعد يحدث.

الانتظار....

نظرت إلى العلم، رأيت لونه الأزرق تبخر شيئاً فشيئاً، يذوب مع الأيام. الكرة الأرضية المرسومة عليه بهتت، وفقدت بريقها، سنابل القمح الجافة بقيت، توشحت بالبياض، تحمل في طياتها ذكرى شيء ما.

قلت في نفسي، وأنا أحاول أن أمسك بخيط من الأمل:

- لقد تأخر اليوم كذلك؟ هل سيخلف وعده لي"...

دخل آخر طالب إلى فناء المدرسة، والحياة تستمر بلا توقف. ثم جاء "الآذن"، يجرجر قدميه ببطء، ليغلق الباب. صرخت فيه:

- توقف! سعيد لم يصل بعد"...

الباب أغلق، ختم على فصل من حكاية لا أعرف كيف ستنتهي. بقيت واقفاً، أنظر إلى الطريق الفارغ، أنتظر شيئاً لن يأتي.

السنابل الجافة على العلم تهمس لي بشيء ما، لكنني لم أفهم.

الغياب يلف المكان، ضبابه كثيف، ولم أعد أعرف إن كنت أنتظر سعيداً، أم أنني أنتظر أن أفهم ما حدث.

ما أدركه أن شيئاً ما قد انتهى، دون أن أشعر كيف، أو متى؟!

الحـاجـــز
(إهداء إلى شهيد يوم الأرض أحمد الشَّيخ اللّحام)

غادرت الشمس سماء المدينة باكراً، تاركة إياها غارقة في الظلام والكآبة. الحواجز العسكرية أفاع سامة تخنق أطرافها، تقطع شرايين الحياة والحركة، حولت الحياة فيها إلى انتظار طويل، وتترك رائحة الدم وصوت الألم يملآن الجو من كل اتجاه.

المدارس مغلقة، والمستشفيات مكتظة بمرضى لا يجد بعضهم أسرّة أو أدوية. في المقاهي، يجلس الرجال صامتين أمام شاشات التلفاز، الأسعار ترتفع، والخوف ينتشر، وتحت أنقاض هذه الأيام الصعبة، لا يزال الأمل ينتظر.

بينما عجوز في طريق "بيرزيت" تنشر ملابسها المبلّلة على حبل الغسيل، توقفت برهة، ترمق الشارع المغلق بعينين متعبتين. زوجها ممد على الأريكة، ينتظر وراء النافذة، ينصت لخطواتها البطيئة، يتابع نبض الحياة الوحيد الباقي.

في الشارع المجاور، طفل يعبث بكرته البالية، يركلها نحو الجدار مراراً، يحاول كسر صمت العالم. صوت أمّه يندفع خائفاً:

- ادخل يا حبيبي

لكنه يلتفت إليها بعينين لامعتين — تحدّياً من صغير يصرخ دون كلام– :

- الحياة لم تمت بعد طالما بقينا نركل جدار الصمت.

المدينة التي ما زالت تلملم جراحها النازفة بعد اجتياح خفافيش الظلام، جسدها مهشم يحاول النهوض. أحياؤها المُنهوبة كالكتب الممزقة، وأقمارها — أولئك الذين كانوا منارة ودرعاً — صاروا ذكريات تُروى همساً. حتى الحواجز العسكرية هنا ندوب يلمؤها الصديد في جسد الأرض، الاستقلال الوهمي، احتلال يغير جلده فقط، تذكّر الجميع بأن الاحتلال لم يغادر أبداً أحياء المدينة... إنّما يستلقي قليلاً، يُقلّب وجهه تحت الشمس، ثمّ يعود باسم جديد: اتفاقية"، "حكم ذاتي"، أو "سلام" فأقول لـ"هادي" عبارة لن يفهمها اليوم:

- أيها المصدقون، أسواركم سقطت، ألستم ترون كيف تمسك أيد خفية بمفاتيح المياه والكهرباء؟

كيف تخصص الطرق للغرباء، بينما تحاصر القدس حتى في خرائط "الدولة الحرّة"؟

الاستقلال المزعوم مثل ملابس العجوز التي تعلّقها في الهواء، تظن أنها تنشرها بحرّيتها، لكن الحبل نفسه ملك لسيّد البيت القديم الذي يراقبها، لكنه يستريح قليلاً.

سيارتي العجوز تشكو قلة الوقود الذي أوشك على أن يجفَّ من آخر نفس. محركها يصدر صوتاً كآلة طحن قمح عتيقة، وطلاؤها الأزرق يتقشر تبدو للناظر مصابة بالبهاق.

المصباح الأيسر أعمى بلا سبب، والدخان يتصاعد منها، فهي تعلمت أن تشارك في احتجاجٍ صامت مع دخان الإطارات المحترقة. في الداخل، أكياس الخضار والخبز مكومة بفوضى، ودجاجة مذبوحة تتربع بجانب سَفط البيض الذي أوشك على الفقس من طول الانتظار.

الخروج في السيارة والعودة إلى البيت بين الحواجز يشبه محاولة انتزاع شوكة من إبهامك في الظلام الدامس.

بجانبي، ابني "هادي" يتسلى ببندقية بلاستيكية، يلعب والعالم خارج السيارة لعبة أيضاً.

الواقع يزداد قسوة، حاجز عسكري يقطع الشارع اليتيم، وعشرات السيارات متوقفة في المنحدر، سرب من الطيور المحاصرة في قفص. قلت في نفسي:

- هذا ليس حاجزاً انتقاميا فقط، بل مركز توقيف وتحقيق مفتوح، أو معبر دولي بلا حدود.

الحقيقة أكثر بشاعة:

- هذا هو الاحتلال، يحول كل شارع إلى سجن ومأساة، وكل لحظة إلى معركة من أجل البقاء.

وما زلت أُمعن النّظر في المشهد، والقهر يلفُّ المكان، فسألني "هادي":

- ما هذا يا أبي؟
- إنه حاجز، يعطل حياتنا وحريتنا، فاليوم كان حافلاً بالمواجهات؛ ليعبّر النّاس عن رفضهم للاحتلال، بعيداً عن الخطب والمهرجانات، فاليوم "ذكرى يوم الأرض".
- ماذا يعني يوم الأرض يا أبي؟

سأل "هادي" ببراءة، فقلت له:

- يوم الأرض هو اليوم الذي امتدت فيه مشارط الاحتلال لتستأصل مزيداً من أراضينا، لكنها فشلت في اقتلاعنا من جذورنا. كان ذلك في مثل هذا اليوم من عام (1976) م، عندما وقف أجدادك جبالاً صامدة في وجه آلاتهم، وقالوا:

– هذه أرضنا، ولن نرحل...

ثم نظرت إليه، وابتسمت:

- لا تقلق يا هادي، أرض الفلسطيني تنبع من تحت قدميه، ومهما حاولوا، فلن يجف النبع. الأرض تعرفنا، ونعرفها، وهي تروي لنا قصص الأجداد الذين سقوْها بدمائهم.

يبدو أن السهرة ستطول، فلنملأها حديثاً عن أرض لن نبرحها، مهما اشتدّ الليل. فنحن –يا ولدي– أبناء شجر الزيتون، كلما هزّونا لعناق السماء، تشبثنا بترابنا بجذور أعمق. ليفهم هادي وغيره، أن سقوط المتخاذلين ألف مرة، لا يعني أن نسقط نحن ولو مرّة. لأنّ هذه الأرض ليست مسكناً نرحل عنه، بل هي جلدنا الذي لن نخلعه، ودمنا الذي لا يُهرقُ إلا هنا.

ردّدَ معي بعض الآيات، وراجعنا واجبات الدراسة، جدول الضّرب صعب علينا، واستمعنا للأناشيد والأهازيج، ونشرة الأخبار تطل من المذياع كل دقيقة، ونرقب الناس من حولنا، فمنهم من يغطُّ في نومه، وآخرون أحاديثهم شكوى معتادة من الظلم والقهر وضنك المعيشة. وصغار يطلبون الحليب، وعجائز تسلَّل الإجهاد إلى عظامهم.

بدأ الشارع يستيقظ من سباته الثقيل، والسيارات تفتح عيونها الواسعة، وأصوات محركاتها تعلو بأنين صامت. اجتازت السيارة الأولى الحاجز، ثم تبعتها أخرى، حتى جاء دورنا. تقدمت سيارتي ببطء. سلحفاة أعياها الانتظار، وتعرف أن ما ينتظرها هو مشهد من مشاهد القهر.

ولما لامست دائرة ضوء مصباحها الحاجز، طلع علينا جنديٌّ دميم الوجه، خرج من ظلام أبديٍّ، يختبئ في جمجمته وعينيه. قبحه صامت، لكنه صارخ في نفس الوقت، يجسد كل القسوة والظلم الذي يمثله.

ضممت "هادي" إلى صدري، محاولاً أن أمنحه دفء جسدي، وقلت له بصوت هادئ لكنه حازم:

- لا تخف يا بني، قبحهم دائم... والخوف منهم يجب ألا يتسلل إلى قلوبنا. هم مجرد ظلٍّ عابر على أرضنا، ونحن شجرها الذي لا يُقتلع.

كلماتي تحمل في طياتها قوة الأرض التي ننتمي إليها. تذكير بأن جمالنا وقوتنا تكمن في إصرارنا على البقاء، رغم القبح الذي يحاولون فرضه علينا. لأتفاجأ برفضه اللجوء لحضني، فقد ملَّ حكايا اللجوء والتراجع، ووقف أمام الزجاج مقابلاً لهم ممعناً النظر في دمامة وجه الجندي، فقد رأى مسخاً سمع عنه قرآناً يتلى، وبندقيّته البلاستيكيّة تتأهب للمواجهة.

فتحت النّافذة، فاقترب الجندي بحذر طالباً الهُويّة، فإذا برائحة نتنة تفوح منه، رائحة كلب تغذّى على لحم خنزير منقوعاً في عصارة القذارة.

لم أتمالك نفسي إلا بابتسامة ساخرة لم تدم طويلاً، وقلت له:

- خُذ!

فقلَّب الهُويَّة بيديه، وجحظ بعينيه، وقال:

- "أهها"... من المخيَّم؟

وفي صوت غير مبال أجبته:

- نعم، أنا من مخيَّم الجلزون.

ارتمى الجندي على مقدمة السيارة، وجعل غطاء المحرك سريراً لانتصار وهمي. فتح ذراعيه على اتساع الغطاء، يحتضن ذكرى ليلة سوداء، ليلة كان فيها جلاداً بلا رحمة. تمرغ فوق الغطاء ليحاول أن يعيد تمثيل مشهد من ماضيه الدموي، مشهد يجتمع فيه المجرم والجلاد في آن واحد.

حركاته تشي بهوس غريب، يعيد تمثيل تلك الليلة التي خرج فيها من ظلام المخيم، حاملاً معه غضباً مكبوتاً وانتقاماً أعمى. قهقهته تتصاعد، صدى لضحكة شيطان يتراقص على جثث الأبرياء.

جفَّ لساني عن الكلام، وأنا أتأمل هذا المشهد المروع. عاد إلى النافذة، وجهه يتصبب عرقاً، وقال بصوت متهدج مليء بالتباهي، مريض هارب من مصحة للأمراض العقلية:

- لقد كنت في المخيم ليلتها! في مثل هذا اليوم تماماً... هل تتذكر أحمد؟"

قسوة لا حدود لها، فقتل طفل بريء هو مجرد خطوة في مسيرة انتقام مجنونة. وجهه يعكس تلذذاً مريضاً، يشعر بالفخر وهو يتحدث عن جريمته، وروح أحمد الصغير، التي أطفأها بدم بارد، ما زالت تلوح في عينيه كشبحٍ يطارده.

هذا هو الاحتلال: قوة مهووسة بالدم، تتباهى بقتل الأطفال، وتتلذذ بآلام الآخرين، تبحث عن خلاص في القسوة، لكنها لن تجد إلا المزيد من الخزي والعار.

ترجع بي الذاكرة أعواماً إلى الوراء، أفتح كتاباً قديماً، صفحاته ممزوجة بالألم والفخر. كل سطر فيه يذكرنا بأن المأساة لا تطوى، بل تورث.

يتجسد الماضي أمام عيني، شريط سينمائي يعرض تفاصيل ليلة لا تنسى، ليلة فيها الأرض تنزف غضباً، والسماء تشهد على انتفاضة من عمق القهر. في الخارج وقف الشباب ومعهم أحمد، جبال شامخة، ينتفضون دفاعاً عن الأرض في يومها، يُحْيُون ذكرى الأجداد الذين سقوها بدمائهم. الأيادي كثيرة التي ترمي الدخلاء بالحجارة، ثورة تخرج من صميم الألم، كل حجر يصرخ:

- هذه أرضنا

إطارات تتدحرج، وزجاجات حارقة تتطاير، شهب من فوق السقوف، أو نجوم ثاقبة سقطت من السماء؛ لتضيء طريق المقاومة.

"سيدي أبو العز" ينقل في سيارته دفعة من الرايات والأعلام، يحمل أرواح الأجداد على كتفيه. وشاب ملثم بكوفيته الحمراء، يحكم ربط حذائه الأبيض، يستعد لمعركة لا مجال فيها للتراجع. يخطُّ شعارات على الجدران، ملأت المكان برسائل التحدي، وأتذكر منها:

- لنكن من الشهداء في يوم الأرض...

عبارة من شعارات كثيرة رسمها صاحب الخطِّ الجميل، الشَّهيد "أحمد"، فبعد أن فرغ من واجبه التَّطوعي في تعليم صفوف محو الأميّة؛ ليقود صفوف الثائرين إلى مدخل المخيم، ويعلّمهم صرخة الوطن الواحد، جبهة رفض ثورية تتقدَّم الأحداث.

- ليسقط الاحتلال، وفلسطين من بحرها إلى نهرها...

ليلة فيها أرواح بدأت تعلن استقلالها في الزّقاق، وطيور أبابيل تعلو كيانهم، وتنشب مخالبها بقوة على حجارة رطبة، فقد هاجر الخوف بلا رجعة، وتشتعل في سريانها فوق أجساد الغزاة، لتتفكَّك بعض أسنانهم، وتعتصر الدّماء من أيديهم.

كانوا جميعاً مثل الحواس الخمس في الجسد الواحد، كل منهم يؤدي دوره بانسجام وخبرة، لحن المقاومة يحفظه الجميع، فالحاجة "حفيظة" تنقل الحجارة من حاكورة بيتها، وكَنَّتُها تطفئ أدخنة الغاز بدلو الماء، وأبو "جميل" ينقل الإطارات ليبني سداً منيعاً أمام عيونهم.

أمّا الحجة "فخريّة" فتوزّع البصل والماء والطَّعام بيد سخية، فهو وقود ليالي المواجهات، وضَرَّة الحاجة "سعديّة" تراقب تحركات الجنود عن سطح بيتها، وتصرخ الحاجة " فتحيّة" على الشّباب لتحذيرهم، بينما الحاجة "عريفة" تودِّع ابنها، والجميع بين كرٍّ وفرّ.

قبل ذلك كان أحمد يلاطف أخاه الأصغر بيد حانية، ويمسح على رأسه بلطف، يحاول أن يمحو آثار الألم التي تركتها هراوات الزبانية ولكماتهم على وجه الصبي بعد عودته من المدرسة. يشدُّ من أزره، ويبتسم له تلك الابتسامة المعهودة التي تبعث الأمل في قلوب الجميع.

ثم قال له بصوت هادئ، يحمل في طياته حزناً عميقاً:

- لا تبكِ... كُن رجلاً، فالدموع ليست للرجال. سيعود وجهك ضاحكاً، كما ستعود أرضنا محررة... وسأهديك كوفيتي بعد العودة.

الكلمات تحمل في طياتها وداعاً يختفي خلف الكوفية الحمراء، أحمد يعلم أن هذه قد تكون آخر مرة يرى فيها أخاه. ابتسامته، دائماً مصدراً للفرح، بدت هذه المرة تحمل شيئاً من الحزن، وتقول:

- سأفعل ما بوسعي لأجلك، حتى لو كان الثمن هو حياتي.

لحظة مليئة بالحب والحزن، الأرض نفسها تبكي معهم. أحمد دائم السند لأخيه، يودعه بقلب ممزق، يخفي دموعه خلف ابتسامته، لأن الدموع، كما قال، "ليست للرجال".

عاد الملثم لقيادة رفاقه، رُبَّان سفينة تتحدى أمواج البحر الهائجة. يغوص في شوارع المخيم التي يعرفها كظاهر كفه، ليلتف على الجنود من زقاق لآخر، وفي دروب المخيم يذيقهم مرارة الهزيمة بمقلاعه الذي لا يخطئ، وقوة يديه التي لا تعرف التراجع.

قبل ساعات من الشروق، الشمس تختبئ خلف الأفق، تترقب نهاية المعركة، وقبل أن يكمل إمام المسجد وضوءه ليبدأ التكبير، دوى أزيز الرصاص، وتلاه ألسنة من نور تخترق الظلام.

جاءت الرصاصة الغادرة، التي اخترقت قلب الشاب الملثم، فسقط متكوماً في طرف السوق، بجانب "دكان اللحام"، حاملاً حجراً إلى صدره، يضمّ آخر رمق من مقاومته.

لحظة صامتة، مليئة بالمعاني. لحظة جعلت سكان المخيم يتساءلون بقلوب مرتجفة:

- من هذا الذي عاد إلى رحم الأرض؟

الملثم، كان قائداً فريداً، أصبح الآن لغزاً يهز قلوب الجميع. رمز للمقاومة، وارتقاؤه للفردوس صدمة للمخيم كله. حتى في موته، كان يحمل حجراً من الأرض، ليقول:

- الأرض لا تموت، لأن المقاومة تزرعها...

النّوم هجر عيون المخيم، وأصوات الانتحاب تملأ زواياه، ترثي الشاب النّائم جانب الدُّكّان، امرأة واحدة وقفت بين الحشود، الرّعب يملؤها، عيناها تحملان صرخة صامتة تكاد تمزق السماء، وتجري الدّموع من مآقيها، تسير خلف ظلّها، فتتبعها كلُّ أشجان الأرض بالبكاء، تشعر بالبرد يجتاح أطرافها كلّما اقتربت منه، والموت نفسه حضر ليشهد اللحظة، جثمت على مقربة من منطقة السّكون الّتي تلفه، تختلط في فمها كلمات لا تملك الرّفض ولا القبول.

حاولت أن تسند رأسه على صدرها، فحنان الأمومة يمنعها من الاستعجال، تدلّك يديه ووجهه، تطلب منه أن يستجيب لها ولو لمرة أخيرة؛ لتودعه وتعانقه، أو تختزن في ذاكرتها آخر كلماته، لكن مخالبهم المسعورة باغتتها؛ فانتزعوه من بين يديها، فتنسحب أصابعها عنه كمن ينتزع روحاً من قلب ما زال ينبض.

جاء جندي، دميم الوجه، عيونه تقطر حقداً أسود، غائرة في بئر من الظلام، ينتزع عنه ملابسه، يريد أن يمحو كل ذكرى لإنسانيته، وأشعل فيها نار حقده، وزرع في جسده بضع رصاصات أخرى ليتلذذ بفعلته الشنيعة، ليتوقَّف الطَّبيب عن محاولة إسعافه ليقول لأمه:

- الأمل نفسه قد مات...

سجى الجندي الجثة فوق غطاء محرك "الجيب"، وبحركات بلهاء، أقام مراسمه الشيطانية منتشياً بالانتقام. وطاف بها شوارع المخيم، يريد أن يزرع الرعب في قلوب الجميع. كل خطوة يخطوها تزيد من كراهية الناس وانتقامهم، وتذكّرهم بأن أفعاله لن تنسى، ولن تغفر.

أوشك الصبح أن يتنفس، والشَّفق ازداد حُمرة من كوفيَّته ودمائه، وبدأت خيوط الشمس تبحث في زقاق المخيم، وزواياه المعتمة عمن غاب عنه؛ لتطلَّ سيّارتهم مرَّة أُخرى بجانب "دكان اللّحام" –دكان والده–، ليضعوه هناك، وما زالت بقع الدّماء تتفجر ينابيع مقاومة من مئات الشَّباب؛ لتروي حكاية الشَّهيد "أحمد".

استشهد "أحمد" ولكنَّهم لم يقتلوا المخيم، والحكاية لا تنتهي، فهناك شيء ما زال يزعجهم؛ ليعاودوا مطاردة ابتسامته التي بقيت على شفتيه، ليمنعوها من الإشراق على محبيه، وملاحقة موكب التَّشييع ليبقى شرُّهم ماثلاً، فشيطانهم لا يتخلى عنهم.

ويقود ملَّاحان وصبيَّة، وعشرات الشَّباب من تلاميذه موكب التشييع، سفينة ستبحر بهم في رحلة الوادع على اليابسة منتظرة الطوفان، ويأبى قائدها أن يكون مُسجىً، فيجلسوه بينهم كالصَّارية؛ ليشدوا عليه الأشرعة، فالمشيئة الرَّبانية قضت أن تشقَّ في طريقها الجبال لتتجاوز الحواجز، وتدخل الكهوف لإخفائها عن أعين لصوص الجثث، لتصل إلى مرفئها الأخير بين محبيه.

رفعت رأسي عن كتف الكرسيّ، واللّيل ابتعد عن الانتصاف، أعيد النَّظر في وجه ذلك الجندي المسخ، الّذي يقف أمام السّيارة مستفهماً من ذاكرتي:

- يبدو، أنَّه هو؟!

فيجيبني المصباح الأيسر للسّيارة، يومض من جديد لآخر مرّة.. خيطُ ضوءٍ يقود إلى الحقيقة في ذلك الأفق المكفهرّ؛ ليريني ملامح وجهه القاسية كلّها، فقبحها راكد في بركة مليئة بالدّماء، وتوحي بشيء يفضح ما حصل في ليلة الثّلاثين من آذار في العام 1993م من ليالي المخيّم بكلّ وضوح.

الخـيـمـة: (99)

جدران تتنفَّس ذكريات عتيقة، صفحات كتاب مفتوح لا يغلق أبداً. الحجارة هنا تحمل حكاياتها، والشعارات المنحوتة على الجدران تصرخ بأصوات الماضي، في المخيم الزمن المتجمّد يتجسد أمامك.

لافتة مهتزّة على مدخل المخيم تُلوّحُ لك... علقتها يد صديق قديم استشهد تحتها، تدفعُك إلى الدخول إلى عالم لن تخرج منه كما دخلت...

- هنا في المخيم، الرطوبة خلف شعارات على الجدران ليست مجرد بقع، بل دموع تسجل حكايات البيوت التي شاخت، والوجوه التي صارت ظلالاً. الطوب الذائب يحترق ببطء، مثل قلوب من يعيشون هنا...

بعضهم رحل، وتركوا خلفهم أرواحاً عالقة بين الحجارة.

لكن انظر... قالها أبو فارس:

- فوقك تمتد أسلاك تحمل رايات الأمل، أشرعة نور في الظلام، يحملها عمالقة من صلب وإرادة. وشباب بوجوه تضيء بالمستحيل، يرفعون أحلامهم عالياً مع الرايات...

يقولون للعالم:

- "هذه أرضنا، وهنا نصنع المعجزات"

والأجنحة التي ترفرف فوقهم ليست للفراشات فقط، بل لأحلامهم التي عَلِقَتْ في السماء، تنتظر لحظة التحليق.

هذا المكان ليس مجرد أرض، إنه قاعدة العودة الأولى، الكائن النابض الذي يحمل في ثناياه أنفاس البناة الأوائل، أولئك الذين رفضوا أن يكون المنفى وطناً، فصنعوا من العدم محطة انتظار للعودة.

هنا قرب الجامع العم خليل صبّاح، حارس الذاكرة الذي يحيك خيوط الأمل من شوك المنفى، ينسج خيمة مؤقتة؛ ليروي تحتها لأحفاده عن بيوت القرية الحجرية التي تنتظرهم، وعند المدرسة الخال أحمد مسعود، شيخ المقاومة الصامتة، الذي حول صفائح الخيام إلى سبورة، يكتب عليها بأصبعه المتشقق:

- "هذه أحرف هويتنا... اقرأوها جيداً قبل أن تبنوا بيوتكم هناك."

والحاج عبد عوض يسند ظهره في المحراب، سجل للمشي على الأقدام، يحفظ في تجاعيد وجهه كل حجر في الطريق إلى الوطن، خريطة حية سيسلمها للأجيال القادمة يوم العودة. ومعه أبو جمال، يشيد بيته من صفائح الوكالة، يضع في أساساته حفنة تراب من أرض البلاد، ويقول لأبنائه:

- "هذا البيت سقيفة مؤقتة... أما البيت الحقيقي فسنبنيه هناك، بحجارة من دموع الفرح."

والخال أبو مدحت الطريفي، فارس المخيم الذي يحول دمعته إلى قصيدة، ويكتب على أوراق الشجر البنية:

- "كل خيمة ستتحول إلى شراع يعيدنا.. اقرأوا هذه الأوراق يوم نُغْرِق الفرح بالزغاريد."

والحاج عبد العزيز مبارك، يداوي جراح المخيم بكلماته قبل أدويته، يهمس للصغار:

- "احفظوا آلامكم.. ستكونون أطباء جراحتها يوم العودة."

والجد مصطفى غنام يحفر كل صباح عند شجرة الزيتون العتيقة، ليسقيها بدل الماء حكايات عن الأرض البعيدة، ويدرب الجذور على طريق العودة. وعند "عين العصافير" الشيخ أبو موسى رمانة، مكتبة المخيم المتنقلة، يروي للأطفال كيف كانت النوافذ هناك تفتح على حقول الياسمين، ويقول:

- "سترونها بأعينكم لا بحكاياتي."

والحاج أبو سمير زياد يحول جدران المخيم إلى متحف حي، يعلق عليها مفتاح بيته القديم وصورة جده الفلاح، ويقول:

- "هذه تذكرة سفرنا.. لا تضعوها في متاحف العالم."

والشيخ الجد "محمد عمر" الرياحي يحمل رايات أجداده من الصّوفية الرفاعية ويردد في خلوته:

- حب الوطن من الإيمان، وحب الله والرسول أعلى وأعظم، "الوجود كله سدٌ بين العبد والرب، فإذا زال السد اتصل الوصل.

والخال عبد العزيز أبو هدبا، يحمل في حقيبته الجلدية دفتراً عنوانه: "خرائط العودة"، يرسم فيه بيوت القرية من ذاكرته كي لا ينساها بنّاؤوها المستقبليون.

هؤلاء لم يبنوا مخيماً، بل أسسوا محطة عبور. كل خيمة تشبه محطة قطار مؤقتة، وغرفة الطوب بعدها هي محطة تالية، والشارع الإسمنتي سكة تمتد نحو الوطن. لأنهم يعلمون كما علمهم الحاج أبو جابر الهودلي:

- أن قوانين الجغرافيا لا تقهر قوانين الدم، وأن الأجيال القادمة ستحمل هذه الذكريات جواز سفر لا ينتهي صلاحيته.

فهذا المخيم ليس نهاية، إنه الغلاف الأول لقصة العودة التي كتبها "وليد"، والقصة التي تبدأ في الخيام لا تنتهي إلا تحت أشجار الزيتون هناك.

هؤلاء وغيرهم نسجوا حكاية المخيم من الخيام البالية إلى غرف الطوب، من شوارع الطين إلى ممرات الإسمنت... كل حجر هنا يروي قصة صبر، والجدار يخبئ خلفه دمعاً وأملاً .

فقصص المخيم لا تنسى، قد تغيّرك إلى الأبد، لأن القصة التي تبدأ في المخيم لا تنتهي إلا فوق أرض الوطن.

يشتعل "كانون" بنار التحدّي كل عام، والأرض التي تنفّست ذكريات القهر قروناً... تَشْهَقُ اليوم هواء الحرية، هذا اليوم ليس مجرد تاريخ يحفر على جبين الزمن، بل انفجار المارد الأخضر من بين ركام السنين.

يقف أبو فارس بين تلك الجدران العتيقة، التي ما زالت تهمس بأسرار الأجداد، وينظر إلى الأفق حيث ترفرف رايات الأمل من جديد، والتي نسجها شباب المساجد مع خيوط الفجر.

يقول بصوت يقطر عزة:

- "لم تكن صدفة... ولا حظاً عبثياً. لم تكن شهادات معلَّقة على الجدران، ليست حركة من غبار الماضي، ولا رتب وهم نبتت في تربة الذل. إنها ثورة الدم الذي يغلي، والأيدي التي نحتت النصر من صخر اليأس.

فوق البيوت التي تبكيها الرّطوبة، وتحت أسلاك الأمل التي حملها العمالقة، ولد شيء جديد. شيء يشبه الربيع وهو يخرق جليد السنين.

وُلِد مصطفى الحالم الذي يحمل قلبه بين السحاب، وخليل صاحب الهمس الذي ينبت زهوراً بين الحجارة، وجهاد، المنصت لصوت الأرض حين تئنُّ، وأحمد الذي ينسج الضياء من عتمة الذكريات. وياسر سليل الصبر الذي يمشي على الجمر ولا يحترق، وحكمت حارس الأسرار الذي يضيء شمعة في عين العاصفة، وعبد الرحمن، الذي يعلم النجوم كيف تغني.

وولد جلال فارس الصمت، الذي يركض خلف الأفق بلا تعب، ومحمد حامل المشعل الذي لا ينطفئ حتى في أعماق الريح، وماجد الذي يبني مجداً من ظلال الغرباء. وإبراهيم الذي لا يحترق من نار الإطارات التي ينقلها في كل مظاهرة.

هؤلاء ولدوا من رحم الفجيعة، حملوا وصية الآباء والأجداد الذين أسسوا المخيم. لن يسقطوا راية العودة، فقد حفظوا الوصية كما يحفظون أسماءهم، ولن يتنازلوا عنها ولو تحولت المغريات جبالاً والحلول المعوجة رتباً.

هم وغيرهم من الشباب الذين صاروا نبض الأمل. صاروا كتيبة تكتب نفسها بدم الثوار، صاروا بذوراً تزهر في كل حقل لم تمسحه يد اليأس.

هؤلاء أبناء الوعد وحراس الذكرى، يسيرون على درب الأجداد، يحملون المخيم على الأكتاف، ليعيدوه إلى أرضه الأولى حين تحين الساعة. فكل خيمة في المخيم هي محطة إعداد لا للبقاء، بل للانطلاق.

هؤلاء من المخيم حفظوا وصية الشيخ عبد الرحمن ممن أسسوه:

- لم يكن المخيم غاية، بل محطة ندرب فيها الأبناء على حمل المفاتيح، ونعلمهم فيها أن البيوت الحقيقية تنتظرهم هناك، وراء الجبال، حيث تروي الحجارة حكايات العودة.

كنا في السوق، حيث تتراكم هموم الفقراء فوق رائحة فلافل "العم سميح"، تحمل جوعنا إلى بيوت جيراننا الأيتام، المخيم في وَهْدَة من الأرض، ومن الرزق والطموح، حفرته سيول التّاريخ بوعورة مسالكها، لتقول لساكنيه أنتم لا تنتمون إلى أماكن البؤس.

وقفت أمام صورة تتنفس صمتاً، "مُغرّاة" بعناية على باب صالون (أنور الحلاق) صورة الشهيد (أمين) الذي "ارتقى" – كما يدعون – في زنزانة لا يعرفها إلا الموتى. ألوانها الباهتة تشيخ كل يوم، لكن عينيه ما زالتا تضيئان. كنزته الصوفية المخطَّطة تحاكيه، وأم حزينة تحتضنه، وأصابعه المتيبسة تخبرها أن البرد لم يترك جسده بعد. ربما لأن بعض الأجساد لا تدفأ إلا تحت الأرض.

همست – وأخشى أن أخطئ التعبير –:

- لن يفهم قسوة الاحتلال إلا من مزقت قدماه حصى الخيمة في النكبة، أو من صار سجيناً بين جدران زنزانتين، إحداهما من أسمنت، والأخرى من صمت العالم.

قبل أن يبلغ النهار منتصفه، اقتحمت مركبات ثقيلة المخيم، تحمل معها رائحة الخوف والرعب. لحظات الفرح التي تلوح في الأفق اختفت فجأة، محاصرة بين غيوم الغاز النفاثة التي تخنق الأنفاس.

أزيز الرصاص المتناثر يرتفع وينخفض، أنين مرعب مع الركض، بينما الأصوات المدوية تضيء السماء ببريق يخطف الأبصار. عيوننا البريئة، أصبحت منتفخة كالبرقوق المنفجر، وصدورنا تئن تحت وطأة القهر الذي لا يطاق.

ركضت مع الجميع، لنحتمي في زقاق "أبو أنور النجار"، ذلك الزقاق الضيق ملاذنا في لحظات الخطر. فجأة وجدت نفسي محاصراً بين ضوءين زاحفين يلاحقانني، يشقان غيمة الغاز الكثيفة، عينا ثعلب ماكر ينقض عليَّ بلا رحمة، فقد سقطت في فخ اللحظة.

اختفى الزقاق، واختفت نداءات الأصدقاء بالتحذير، لم يبق في وجهي المغطى سوى عتمة الليل التي تلف كل شيء حولي.

ظللت واقفاً، وهراواتهم تحاول هدم جبل من لحم وعظم ليركع أمامهم، ورغم تلك الهراوات التي تهاجمني، وتريد أن تهدم كل ما في، إلا أن الصبر والقوة تنهال عليك، ومعها دعوات مخبأة.

مركباتهم الضخمة غطت على أصوات المخيم، وحولتنا إلى كائنات عاجزة، لا نملك سوى الصمت، سلاحنا الأخير.

أعلم أنني سأنتصر، حتى في قبضتهم. وبعد لحظات طويلة من الانتظار، سمعت أصواتاً خشنة تدفعني للاستسلام:

- انزل، يلّا... يلّا...

كل كلمة تسقط مطرقة تضرب على قلبي، أعلم أن الصمود هو انتصار، حتى لو كان صامتاً. ركلني بحقد إلى زنزانة ضيقة، تتنفس جدرانها العفن والرطوبة، قبرٌ حيٌّ بلا جثة...

في زاوية مظلمة يتكوم شاب آخر، حاول النهوض، لكن بِنطاله يرفض البقاء على خصره الناحل، فقد ابتعد عنه، ليذكره بجسده الذي أذابه العذاب. عيناه تلمعان في الظلام، تحكيان قصة إنسان حرم من كل شيء، حتى من كرامته.

سقطت بجانبه، مغشياً عليَّ من الألم والإعياء. عندما استيقظت، وجدته يتحسّس طعام العشاء في الظلام بيدين مرتعشتين، يبحث عن بقايا أمل في صحن مليء باليأس. يطرد بضع صراصير تجرأت على مشاركته وجبته الوحيدة –كمية ضئيلة من الأرز اليابس–، الذي بدا بقايا طعام نُسي منذ زمن.

دفع الصحن بعيداً بيد مرتعشة، يقدم الطعام لمن لا يستطيع أكله، ثم همس بصوت مكسور:

- لقد أكلت منه العصافير... والقطط سرقت قطعة الدُّهن التي تُسمَّى لحماً... هذا كل ما تبقى.

صوته يحمل مرارة إنسان أُهينت إنسانيته، فالزنزانة لم تكن سجناً لجسده، بل سجناً لكرامته وأحلامه. كل كلمة نطقها تشي بظلم لا يحتمل، وقهر لا يوصف.

شكرته على حماية طعامي من الغزاة، قدمته له، فالبؤْس الذي يقتات علينا لا يسمح لي بتناوله، وسألته:

- أين المرحاض؟

تبسَّم، أو هكذا تخيلته في الظلمة، أوْمَأَ برأسه إلى الطرف المقابل، فيه "بطَّانيَّة" رثَّة تستر دلواً أسود كبيراً، وقال بِتهكُّم:

- "الجَرْدَل"!

فهمت قصده، تواريت خلف البطانيَّة لقضاء حاجتي، كان عليَّ أن أنحني بتوازن فيزيائيّ لم أتعلمه في المدرسة أو في الحياة التي عشتها، فأي حركة خاطئة ستكون نتائجها وخيمة علينا، انكمشت في الزاوية أراقب ذلك الشاب، فإذا به يحول لباسه الداخلي إلى ضمادة لجروحه، وأحياناً منشفة لوجهه من العرق والماء، والكوب البلاستيكي لشرب الشَّاي والماء، وحتى للوضوء، فسألته:

- أين نحن؟

نظر في المحيط قليلاً، يحاول أن يجد مَعْلَماً ما ليدلني، أشار إلى سماكة الجدران، ونافذة الزنزانة عين "سَقْطَرِيَّةٌ" ترقبنا بقبحها، قضبانها بارزة تنهش حتى ظل كل من يقترب منها. ومنحوتات كثيرة هنا وهناك لمن سبقونا، مكتظة بأسماء وتواريخ ومعلومات متشابكة... ثم يتمتم في ألم:

- سجن الفارعة...

ثم انكفأ، ونظر إلى الباب، وتراجع عن كلامه بعد ذلك، قائلاً:

- مسلخ الفارعة، نحن الآن في مركز التحقيق (الإِسْطَبل).

بدأت أقرأ الكلمات والعبارات المحفورة على الجدران بما توفَّر من ضوء، وجفوني تَخْتَلج الحائط الأول، واسترعى انتباهي منها:

- (هدني التعب والشبح...)، وكلام غير مفهوم، وأخرى:
- (يترحم على أبيه...)؛ لأنَّه لم يشارك في جنازته، وآخر يقول:
- (عذاب لا يزول...أشعر بالبرد)، وتحتها خرابيش متداخلة، ومن بينها اسم (أمين).

لم أعر الأمر اهتماماً، فالأسماء والتواريخ بالمئات، تتراصُّ في جداول عدديّة كأرقام انتخابية مجردة.

تنفَّس الصباح من الشقوق، ولم يعد بإمكاني أن أتذكر ما أحسست به الليلة الماضية، فقد فشلت في تصور التجربة التي أعيشها، فما أعيشه يجمع بين السخرية والحرج، والترقب والقلق، ما شاهدته فاق خيالي وتصوراتي عما كنت أسمعه، فالمكان هنا يخبرك بقصته مباشرة دون انتظار لتستقصي، بل يضعك في قلب الحدث، وعليك أن تكون لمَّاحاً بقدر ما تستطيع، يجعلك المكان صاحب رأْس عنيد في مواجهة كل ذلك، فقلت لرفيقي:

- لا ذنب للأرض التي تحتضن السجن، فهي – مثلنا – أسيرة تحت نير الغزاة.

فقال لي:

- إن ضاق بنا المكان ذرعاً، فما ذنب تراب فلسطيني دفنت حريته قبل أبنائه؟

فأجبته:

- لقد ظلت تنبت العفو بين حجرات العذاب، أمٌّ تجبر دمعتها على الابتسام لولدها المكبَّل.

تنفَّست من تسرُّب الهواء في زنزانتي، شربت من نَزِّ حنفيَّتها، وتكوَّرت في طرفها فوق فرشة من سالف الزمن، اخترت أوقاتاً للراحة، واستِراق صوت الأَذان من بين صرخات المعتقلين وتكبيراتهم التي يتردد صداها في كل مكان، انتقلت إلى حياة مختلفة بكل تفاصيلها، تبعث الرَّعْدَةَ في جسمي. جسدي حار، يشارك آب في لهيبه، أدركت حينها أن البرد يتغلغل في عظامي، والحمى تحتل مفاصلي، كما احتلُّوا جسدي.

في صباح يوم آخر، وقف أحدهم إزائي، وعلى حين غرّة جذبني من شعري، نزعني من مكاني، فانعكَسَتْ صورتي في عينين مُتبَلِّدتين تذوبان من فَرْطِ الحقد، لأَرى نفسي مجدَّداً منذ شهر ويزيد، دون جزع أو خوف، فقد نكأَ جرحاً قديماً، فشعرت أن شيئاً فقِد من وجهي فيهما، طرحني في مكان مثل ثلاجة الموتى، وأَمرني بالاستحمام، وبسخرية قال:

- عند انتهائي من العد إلى العشرة... يجب أن تنتهي.

لم أعرف ما يرمي إليه.

- هل انتهي من الاستحمام؟!

أم هنا سينتهي أجلي وأتحول إلى جثة مرقومة مثل (أمين)، انتهزت الفرصة لأبلل شعري عند الأربعة، توضأت عند التسعة، وساقاي ترتعشان من فرط البرد، ثم جرني إلى معبر مقابل في طرفه ممر آخر، يتكوم فيه السجناء فوق كراسي أطفال، أنَّاتهم أعلى من طنين النحل، تنتقل في الأرجاء، وفيه غرف لا يخرج منها سوى صوت الصياح والشتائم، وتقابلها الحوقلة والاحتساب.

خزانات حديدية أصغر من القبور وضعت لحودها في الشمس، يطرق من فيها الأبواب طلباً للهواء، وآخرون معلقون في ناحية الساحة، فأدخلني إحدى الخزانات وهو يصرخ:

- الموت للعرب، موتوا هون...

ما هي إلا دقائق، حتى شعرت بصراخ في رأسي، كأن كل من وُئِدَ حياً في التاريخ الغابر ينادي ويسترحم، بقيت فيها حتى الغَبَش من الليل، فلمحت كتابات أخرى محفورة فيها، وكان منها:

- (عذاب لا يزول...أشعر بالبرد... لقد فتتوا عظام صدري...)

تكررت العبارة تارة أخرى يبدو للمعتقل نفسه، ثم أدخلني غرفة فيها محقق، كومة شحم منْتَفِخ الأوداج، شَفَتُه العليا ينقصها قطعة لحم، يظهر أحد أسنانه من ثغرة فيها، ذكرني بمصارع "سومو".

يأكل الفستق بشراهة، يبصق بعضه في وجهي دون أن يتحدث، فمرت جولة المصارعة التي حاول فيها أن يخرجني من دائرة الآدميَّة دون إنجاز له يذكر.

ثم اتَّكأ بمرفقيه على المكتب، ودفن وجهه بين يديه، وبصوت مبحوح فيه نحيب غريب، قال:

- إنها من حجر أصابني في مخيمكم، أخذت بثأري من أحدكم لاحقاً...

خاب رجاؤه في نَزْعِ اعترافي، وانقضت عدة أسابيع من القهر والمشقة، فتحول اسمي إلى رقم من أربع خانات، متنقلاً بين الزنازين والمحاكم وجولات التحقيق.

الإنسانيَّة الكاذبة هنا، جنديٌّ يعالج "بالأَكامولِ" والماء أمراض البشرية، وأمراض أخرى تعالج بالاستهزاء، نقف أمامه صباحاً، فيُظْهِر نفسَه قديساً، ليخاطبنا بعينيّه المستفهمة:

- هل ما زِلْتُم صامدين؟! لن يطول ذلك...

أعيش في دوامة الذكريات المتشابكة، لكن شيئاً منها لا يقاس بقسوة ذكرى 'البوسطة'... ذلك التابوت المتحرك الذي يسرق منك حتى حقك في الخوف.

صندوق معدني بلا نافذة ولا متنفس، تختنق فيه أنفاس العزلة والقيود. الأصفاد تنهش معصميك وقدميك، والعصابة على عينيك تجعل الظلمة زمناً آخر مراً تبتلعه بلا ماء.

الكرسي المعدني – الذي نُزِعت إسفنجته ليكون جلاداً آخر – يغرز في لحمك سكاكين باردة، حتى تشعر أن عظم العَجُزِ قد صار وريداً مفتوحاً.

والرحلة لمن يسأل؟

يوم أو يومان بلا حركة، بلا ماء أو طعام، بلا مرحاض، بلا كرامة... جثة تجوب الشوارع، يبحثون لها عن قبر، تنتظر الدفن في "بُرش" –من ألواح خشبية متعفنة يسكنها البق والقمل– ولا تجد من يدفنها.

حتى السجانون داخلها، يتحولون إلى وحوش أكثر افتراساً، فضيق المكان يجعل قسوتهم أشبه بالاختناق.

ولحظة نزع الأصفاد بعد النزول ليست حرية... بل إدراك مر أن الهوان الجديد ينتظرك خارج التابوت.

المصاعب التي تلتها بدت تافهة مقارنة بتلك اللحظة التي شعرت فيها بالضياع. ما زال الإحساس بالضجة السخيفة عالقاً في ذهني، فقط لأنني من مخيم ينظر إليه بعين الريبة والشك. حتى تلك الحادثة البسيطة، حين انتزعت قطعة لحم من شفة أحدهم، أصبحت جريمة تلاحقني لأنني من المخيم نفسه.

لم تتبخر الكتابات المحفورة على جدران الزنازين والخزانات من ذاكرتي، بل بقيت ندوباً في عقلي، تذكرني بكل لحظة ألم عشتها. وصدى صوت المحقق الذي هددني بالثأر ما زال يطن في أذني، شبح لا يتركني أبداً.

دخلت قاعة محكمة، حيث يتربع القاضي على كرسيه، ينظر إليَّ من عليائه بعيني غطرسة وكبرياء. صوته يقطر استهزاء حين نطق اسمي لأول مرة منذ أسابيع.

- نعم أنا هنا...

فقد كنت مجرد رقم في سجل لا يعنيه. ثم قال بتعال:

- "أنت تعمل ضد دولتنا، وتقوم بتخريب السلام بيننا".

تدحرجت كلمة "السلام" على شفتيه بحروف مسمومة، تذكرت بها طفلة صغيرة أحبها تناديني "عمي" بينما والدها عانى الأمرين في زنازينهم.

رفعت رأسي نحو القاضي – هذا الرجل الذي يرتدي رداء العدالة فوق جبة الاحتلال – وسألته بصوت مع صليل الأصفاد:

- أي سلام هذا الذي تقدمونه؟ سلام المقصلة؟ سلام القبور المرقومة؟ سلام يزرع بلا بذور فوق أنقاض بيوتنا المهجرة، ويسقى بدموع الأرامل؟

نظرت إلى عينيه الزائفتين. عينان لا تريان إلا خرائط المستوطنات، ولا تقرآن إلا قوانينهم المزورة. حاولت أن أشرح له أن العد التنازلي بدأ منذ النكبة، منذ أن سرقوا حجارة بيوتنا ليبني بها سجانهم هذا الكرسي الذي يجلس عليه الآن. لكن كلماتي تسقط وحبات المطر خارج القاعة على زجاج نوافذ سجنهم المسدود.

–"على أي قانون تحاكمونني؟"

سألته وأنا أحدق في شعار "العدالة" المعلق خلفه، ذلك الشعار الذي يحمل صورة بندقيتهم تحت غصن زيتون.

– أعطني محكمة لا تجلس على كرسي من عظام أجدادي، أعطني قاضياً لم يسرق طفولتي من حقيبة مدرستي، عندها سنتحدث عن السلام.

الفهم عديم الجدوى هنا. فما قيمة الكلمات أمام رجل يمسك بيده المذكرة والقانون، وباليد الأخرى مفاتيح زنازيننا؟ إنه يوزع الأحكام كما يوزع جنوده على حواجزهم.

العدالة عنده هي أن تقف أمامه مكبلاً لتسمع كيف سيحول دموع أمك إلى "أعمال شغب"، وأصوات أطفالك إلى "تهديدات أمنية."

في تلك اللحظة، بينما يرفع مطرقته البالية ليصدر الحكم، رأيت وجه أبي المتوفى يطل من النافذة. يهمس لي:

- "لا تخف، فالحكم الحقيقي سيكتب يوم تحاكم فيه جرائمهم لا مقاومتنا، يوم يقفون حيث تقف الآن، ويسألون عن كل حجر سرقوه، ودم سفكوه، وكل طفلة لم تعد تنادي 'عمي'."

لكنه يمسك بأطراف أوراق بلا مبالاة، يفتش عن اتهامات أخرى ليثقل كاهلي بها. فقلت له بصراحة:

- لن نشكو إليك، فمن صنع نكبتنا لن تعجزه الخديعة باسمها الجديد. لقد صرنا نحترق بحقوقنا، ونموت من أجلها. وسلامك هذا ليس سوى صنم سيء الصنع، يتجسد فيه كفركم وظلمكم بلا تورية.

لم يلق بالاً لحديثي، وكلماتي تهب في فراغ لا صدى له. فأكملت:

- وسلام من اتفق معكم بلية فظيعة، أكلت الشجر والحجر والإنسان، وما كان إلا استكمالاً لنكستنا.

وقفت بلا خوف ولا هزيمة مستمعاً إلى حكمه.

أخرج ورقة مطبوعة، "روشتة" جاهزة، وقال ببرود:

- "سنة، وغرامة"...

شعرت بصدمة غريبة حين نطق بالحكم، قاض يقرأ من "سيناريو" مكتوب مسبقاً. أشك أن ما يدور في عقله يختلف تماماً عما قاله، لكنه جعل الحقيقة تبدو أوضح في تفكيري، وقلت لرفيقي في الزنزانة:

- لقد فهمت كل شيء، إنهم ما زالوا يحاولون احتلالنا حتى الآن، ليس بأسلحة أو جنود، بل بقضاء ظالم، وقاض لا يعرف للقانون أو الأخلاق معنى.

قادتني عصابة نحو الخيام، إحداها معزولة، فتَّش أحدهم في مفاتيحه لعله يجد مِفتاحاً ليضعني في تلك المعضلة. وعندما دخلت ساحتها، بدأت تنهشني أسلاكها الشائكة من أطرافها الضيقة، فسألت نفسي:

- هل قدر اللاجئ أن يعيش والداه في خيام النكبة، ويعيش أبناؤهم في خيام السجن؟

الرقم (99) محفور فوق الباب بطلاء أحمر، ندبة نزفت يوماً ثم جفت. تذكرت صوت جدي وهو يروي كيف حملوا خيام الهجرة على ظهورهم تسعة وتسعين يوماً بعد النكبة، وكيف تحولت الخيام إلى جدران من الطين، محطات انتظار للعودة التي تأخرت عن الموعد.

والآن، ها أنا أرث الانتظار نفسه، لكن بين جدران من الأسلاك الشائكة. الرقم تسعة وتسعون يصرخ في وجهي بتفاصيل لا تحصى، تسعة وتسعون شهيداً سقطوا في صباح واحد، تسع وتسعون قصيدة كتبها أبي على "كواشين الأرض"، تسع وتسعون جرحاً في ذاكرة الأرض التي لم نعد نراها إلا في أحلام الصغار.

لكنها هذه المرة لم تكن خيمة انتظار، بل قفصاً من حديد.

(99) الصفحة الأخيرة قبل نهاية الكتاب، اللحظة التي تسبق اليأس الكامل، النقطة التي تسبق انغلاق الباب نهائياً.

وفي الظلام، تذكرت أنّ لله تسعة وتسعين اسماً. أترى يعلم السجان أن هذه الخيمة الضيقة تشهد عليها جميعاً؟ فهو الرحمن الذي يلفنا بعطفه في ليالي الشتاء القاسية، والجبار الذي يحطم أقفال الزنازين بإرادته وحده، والرحيم الذي يمسح دموع أمي على بعد المسافات، والمنتقم الذي يعد العدّة للقاء الظالمين.

- لا ريب عندي في هذا...

فهل يكون في هذا الرقم سر إلهي؟ هل جعل الله من التسعة والتسعين مفتاحاً للخلاص؟ أم أنها دعوة للصبر حتى يأتي الفرج؟

هكذا همست وأنا أتشبث بأسماء الله كما يتشبث الغريق بحبل نجاة. فكل اسم منها سفينة نوح، وكل صفة منها درع يحمينا. وستبقى الخيمة شاهداً على أن من تمسك بحبل الله فلن يضيع أبداً، وأن الظلم مهما طال فهو إلى زوال.

هنا في الخيمة الأسلاك تأكل لحمي كما أكل الزمن أحلام المخيم، إنها الغربة نفسها، فكل خيمة في حياتنا وضعت فوق جرح، وكل مِفتاح ضاع منا مرتين: مرة حين أغلق الباب في وجه الجد، ومرة حين ولدت أنا وفي يدي القيد بدل المفتاح.

بالقرب من القسم (أ)، يجلس في برج المراقبة مواجهاً لها جندي أَصْهَب الوجه، غشيني شعور أنه تمنى الانتحار قبل أن يصل إلى سن الرشد ولم يفلح، عاش خلياً حتى وصل الأربعين، ولو أمكنه محو السماء من فوقنا لفعل، تحته كلب ينبح، وجندي آخر في عينه مسحة بيضاء يغلقها على قذاها، يحرس الأسلاك ليمنعنا من ملاقاة الحياة. دخلت الخيمة بتريُّث، وإطْراق عيوني في جنباتها. مظلمة وكئيبة، وقفت عاجزاً، حتى تقدم أحد بابتسامة واهنة، وبعد تحيات عابرة، علمت أنه (أبو حاتم)، في آخر الأربعين من عمره، دبَّ فيه المشيب قبل الأوان، فسألته:

- أين أنا؟

بدا السؤال غريباً بعد رؤية ملامح وجهه، بعيداً كل البعد عن جميع مشاهداتي، فأَنا في السجن، فلماذا أسأل؟

- أنت في الخيمة (99) من خيام سجن الفارعة.

لا أعلم لماذا شعرت بالراحة والاسترخاء. بعيد عن كل التعب، رحت أتبين ملامح المكان، أتفحص زواياه مثل بناء يعاين ورشته الصغيرة، واستأنف الرجل كلامه:

- إنها خيمة خاصة لمن يعملون في السجن، وبعض المرضى.

تراجع إلى داخل الخيمة ليكمل اتكاءه مستغرقاً في مطالعة صحيفة أخبارها وطعام السجن البائت لا يختلفان، وأسمع صوت اصطكاك أسنانه من حبة "ملبس" يقلبها في فمه لتذوب ببطء كما نذوب نحن، فسألته عن المرحاض، ومكان الاستحمام، قال:

- في الخارج، خلف مربع البطانيات، أما الاستحمام، فعليك أن تنتظر.

كان "جردل" آخر، لكنه هذه المرة في الهواء الطلق، تشعر أنك تجلس فوق فوهة بركان، دخلت الخيمة، خلعت بعض ملابسي لأستبدلها بشيء تركه أحدهم فيها، على العمود كنزة صوفية مخططة شبه ممزقة، خيل لي أنني رأيتها من قبل، فكرت في تسخين الماء؛ لأنظف جسدي، غير أنني تخليت عن الفكرة، وفقدت الدافع لذلك، ولم أجد شيئاً استخدمه سوى نصيحة (أبو حاتم) بالانتظار، وأعدت الكنزة مكانها، عندها قال:

- رحم الله صاحبها، لقد جاءنا محطَّماً من الزنازين...

استرخيت على (بُرشي) لأرتب عظامي من جديد، فصوت طقطقتها وفرقعتِها يخبر السامع كم تعرضت لِلَّوي والشد والضرب.

ظهراً أشاهد أسراب الحمام والعصافير ترتفع، وتعود لتحط في كل مكان، تلتقط الفتات الذي يجود فيه المعتقلون، تمنيت أن تحمل أخبارنا إلى من يسأل عن حالنا، لم أكن أعلم بوجود "عصافير" من نوع خائن، تتحرى أخبارنا خفية عنَّا، سحبت رأسي إلى الخلف لأشاهد أقسام السجن، وأستمع لأصوات المعتقلين، فضجيجهم ينبئك عن حياة مغايرة.

بعد أن أنهكني التعب حتى حدود النوم، سمعت فجأة خشخشة أقفال باب القسم تفتح ببطء، تعلن عن دخول شيء لا يسر.

دخل معتقلون يحملون قدوراً كبيرة قديمة، وضعوها في الزاوية، قواعدها متفحمة، وأجسامها متشققة، تغطيها طبقة سميكة من الشّحار والرّماد، تنبعث منها رائحة الزيت المحروق لتطبع عليها سنوات من الاستخدام. مليئة بأرزٍ شاحب لا لون له.

وفي قدور أخرى ماء أحمر، تسبح فيه حبات قليلة من الحمص والفاصولياء البيضاء، بقايا طعام من زمن مضى على سطح السائل، وجثث حشرات "السوس" تطفو منتفخة من كثرة الغليان، شواهد على الإهمال والقسوة.
وذلك ليس كل شيء، فقد جُرَّت صوان من "النقانق" المسلوقة، التي بدت ثعابين معاد تدويرها. فتساءلت في نفسي خجلاً:

- هذا هو طعام الغداء؟!

طعام بالكاد يشبع بطن أحدنا، ولا يحمل أيَّ مذاق يذكر. ففهم أبو حاتم ملامح وجهي المستغربة، وقال:

- إنه مجرد شيء نأكله لنبقى أحياء، لا لنعيش.

طلب منا أبو حاتم أن نقوم بتوزيع الطعام على أقسام السجن، بحسب عدد المعتقلين في كل قسم. كل شيء هنا يحصى، حتى نحن. يتم عدُّنا ثلاث مرات يومياً، وأحياناً أكثر، فنحن مجرد أرقام في سجل لا ينتهي.
لكنّ أبا حاتم، وبذكاء خفيٍّ، غرس يده في إحدى القدور بعيداً عن أعين الجنود، واستخرج منها بضع "كبسولات" مغلَّفة "بنايلون" شفاف من بقايا الأكياس. علمت لاحقاً أنها كانت مخبأة في أمعاء سجين آخر، جاء من سجن مختلف، لتمر عبر برازه وتصل إلينا، مختلطة بطعامنا البائس.
نظر إلي أبو حاتم بعينين تحملان همساً سريّاً، وقال:

- اذهب معهم، لتستحمَّ في الخيمة الأولى من القسم (أ)، فقد رتبت لك كل شيء.

كلماته تحمل وعداً خفياً، لكنها أيضاً تذكرنا بأننا رغم هذا الظلم والإهانة، ما زلنا نحاول النجاة بكرامتنا، حتى لو عبر طرق يائسة ومحبطة.
ذهبنا معاً، استقبِلت بالترحاب والعناق الدافئ، وزادت فرحتي من حقيبة كانت في انتظاري، فيها: "ملابس وبشكير، شامبو، وشبشب"، ودلني أحدهم على مكان الاستحمام، فكان شغفي لا يوصف بانسياب الماء الساخن علي ليغسل آلامي وعرقي وتعبي، يجر كل شيء بعيداً، تحسست شعري من جديد، تخلى عن كونه كومة من القش الناشف. تعلمت أعمال السجن وفنونه وبعض خفاياه، أن أكون خادماً لنفسي وغيري، احتفظت ببعض الممتلكات لتكون رفيقتي أينما حللت.
هنا تكاثف الجميع مبهر، أحياناً نذهب مجبرين لعمل بعض الإصلاحات والتَّنظيف في محيط السجن، وأحد الجنود يجلس في مقصورة أمامنا، يتولَّى تنظيم الأعمال.

ذهبنا للعمل في مكان قرب الأسلاك الشَّائكة في الصَّف الأَخير منها، على بعد خطوات من الحريَّة، رأيت حقول الباذنجان والبطاطا والملفوف، وبعض الفلاحين من "الفارعة" يعملون هناك، خطوة واحدة كفيلة بأن تكون بينهم، لكن عواقبها ستكون وخيمة.

أحياناً نعثر على صحيفة أو مجلَّة ألقاها الجنود، أو قلماً ما زال فيه رِيقٌ للكتابة، أو مَلعقة وكوباً منسيين، وعليك أن تخفيها في سروالك، أو تحت إبْطيْك، وتسلمها لمسؤولي السجناء؛ ليتولَّى كل منهم توزيعها، نحس بالتَّعب والإرهاق، نتحمَّل كل ذلك بصبر عجيب؛ لنكون جسراً بين المعتقلين.

نستمع لصوت الأذان من مخيم الفارعة وبلدتها، حفظنا أسماء العرسان من سهراتهم، وترحَّمنا على موتاهم، لأُدْرِك بعدها أننا نعيش في غربة مغلفة بالصمت العميق.

بعد شهر جاء يوم الزيارة، تأنَّقت قدر الإمكان، وتعطرت من معجون الأَسنان، وعلى غرار الحركة الدائبة في السجن فالأجواء مختلفة، صرخات الفرح لها أصداء لا حصر لها، والبشريات تجوب الخيام، وآخرون اتكأوا على مخداتهم، علَتْ وجوههم قتامة مؤلمة، فلم يحالفهم الحظ هذا الشهر.

توجهنا نحو شبابيك الزيارة، ومجموعة من المسنين والمسنات تلُفُّهم الفرحة والسكينة في انتظارنا، لأقابل أمي لأول مرة، بدا كل يوم مضى دهراً من الألم والشوق.

العناق أمنية نقوم بتمثيلها بحركات بهلوانيَّة، تحاول إلقاء نفسك في أحضانهم ليصدك الجدار، ونستعير الفرح أمامهم من ذكرياتنا، نشغلهم بسماع الأخبار بكثافة حتى لا ينتبهوا لحقيقة حالنا، وفي نهاية الزيارة القصيرة، وفرة من السلامات تتطاير من الجميع إلى الجميع.

عدنا محمَّلين برائحة البيت من مقتنيات وصور وحلويات، يوم عيد تسلل من فتحات ضيقة، عاد أصل الانفعال من داخلنا يستنجد بالدعاء بأن يعجِّل الله الفرج.

نهاية الأسبوع جاءنا معتقل جديد، اسمه "رأفت عبيات"، جسمه رياضيٍ، ووجه جميل، مشيته مشية بطل من فيلم سينمائي. وكنا على وشك تناول طعام الغداء، وقد خصصناه بوجبة "فاخرة" مع حُبيبة تفاح، كانت وقتها جوهرة نادرة. دخل وسلّم باختصار، ونظر إلى الصحن باستنكار واضح، وقال بصوت مليء بالدهشة:

- هل هذا طعام الخيام؟!

لقد توقع أن طعام خيام السجن سيختلف عن طعام الزنازين، لكنه سرعان ما أدرك أن الواقع هنا لا يعرف الفروق، وبعد لحظات من التردد، قرر أن يتعايش مع الوضع بروح فكاهية، فقام برسم "فخذ دجاجة" على قصاصة ورق، ووضعها بجانب صحنه، وقال مبتسماً:

- بسم الله عليها، وعلى كل ما نحلم به"...

في الصباح، طلب منا الخروج لـ"النينجا". عندما سمع رأفت هذه الكلمة، انتفض من مكانه بحماس، أدرك أنه على وشك المشاركة في بطولة عالمية. فتفاجأ عندما وصل إلى المكان، وسأل ببراءة:

- أين النينجا؟"

فأجابه أحدنا بمرارة:

- تلك القمامة...

فقال متحسراً:

- هذا غراب البين!...

صديقنا "رأفت" يحمل الحزام الأسود في الكاراتيه، وتوقع أن ذهابه للمشاركة في منافسة ودية، لكنه وجد نفسه أمام مهمة روتينية لإخراج "جرادل" القمامة إلى الحاويات المسماة "نينجا".

سخرية القدر واضحة هنا، رجل اعتاد على القوة والانضباط، أصبح الآن يحمل "جردل" قمامة بدلاً من تحقيق أحلامه. هذه السخرية لم تكن سوى قناع يخفي تحته ألماً عميقاً، ومعاناة لا توصف. ففي هذا المكان، حتى الأحلام تختزل في رسم دجاجة على ورقة، والقوة تصبح مجرد حمل قمامة.

جاء شهر رمضان ليكرِّمَنا بتفوّقنا في دروس الصبر، فأيقظنا أبو حاتم بعد منتصف الليل لنحضر طعام السحور، كان من الفول الذي يشبه التراب المبلول، وبيضة مسلوقة من الظَّهيرة أصبح محُّها أخضر من عين فتاة أجنبية، وملعقة من المربَّى، فنظرت إليه بصمت واكتئاب، زار خيالي مع نعاسي سحور أمي، وصوت الصُّحون في المطبخ، ونداءاتها بالاستيقاظ، بقيت هائماً في خيالي حتى سمعت النداء:

- (كُفُّوا أيديَكُم عن الطَّعام والشَّراب)

فتعرَّقت من طلب المنادي من سماعة البلدة، قلت في نفسي:

- يا شيخ، نحن أيدينا مكفوفة رغماً عنَّا، مكفوفة عن والنَّوم والأحلام، وعن الأحبَّة والأهل، مكفوفة عن المكان والزَّمان، عن الأمتار القريبة التي تنهَشُنا. فكيف لا تكون مكفوفة عن الطَّعام والشَّراب.

وضعت رأسي على طرف "البُرش" محاولاً أن أنال غفوة قصيرة قبل بزوغ الفجر. وفجأة، بدا لي شاب يظهر بين غيمة ضباب بعيدة، يتجاوز الأسلاك الشائكة والحراس بسهولة غريبة. يسير بتعب وإنهاك، وكلماته تتردد في الهواء مع صدى من عالم آخر:

- عذاب لا يزول... لقد هشَّموا عظامي، وأشعر بالبرد... أنا أموت.

نهضت فجأة، محملقاً نحو مصدر الصوت، محاولاً أن أتبين ملامحه. بدأ الضباب ينقشع ببطء، وكدت أرى ملامح وجهه، خاصة تلك الكنزة الصوفية المخططة التي يرتديها. لكن قبل أن تتضح الصورة تماماً، أيقظني "أبو حاتم" من غفوتي بصوت غليظ، وزفر من أعماقه في ضيق شديد:

- حَضِّرْ حالك، جاء قرار نقلك إلى سجن النَّقب.

بقيت لحظة حائراً، أتساءل: هل كان ذلك الشاب مجرد حلم؟

أم أنه "أمين" الذي طالما سمعنا عنه؟

ولماذا كان يردد تلك العبارة الغريبة: "أشعر بالبرد"؟

هل يحذِّرني من شيء ما؟

أم مجرد رسالة من الماضي يعود ليذكرنا بأن العذاب هنا لا يزول؟

الغموض هنا يلفُّ كل شيء، فالسجن نفسه أصبح عالماً من الأوهام والأسرار.

في النقب ستبدأ رحلة جديدة من العذاب، لأُضيف لحكايتي فصلاً جديداً، سيغلِّفُه لهيب المكان، وشقاء الزَّمان، ولتكون الكلمات بعد ذلك أكثر حرارة من الشعور بالبرد.

الكنعانيّـــة

(أسطورة الحوار والصمود)

الظهيرة حارقة، وامرأة عجوز تجاعيد وجهها من تضاريس الأرض تقف أمام جرافات الاحتلال، وهي تقتحم الوادي، تنقض على الأرض كما ينقض الذئب على جسد دافئ .

يداها المتشققتان من عِتق الأرض ترفعان حفنة تراب. عيناها اللتان شربتا من نبع العوجا تضيئان في ريح حارة. لا تريد سوى أن تبقى، أن تمسك بجذورها التي صارت أشبه بشعرة في مهب العاصفة.

الجرافات وحوش جائعة، لكن صوتها يتحطم على صمتها.

هي لا تلوذ بالصراخ، بل تقف كشجرة بلوط عتيقة، جذورها تشبثت في أعماق لا تبلغها المعاول. كل ضربة تنهال على الأرض تشعل في عروقها دماً قديماً، دماً يعرف أن الهزيمة ليست سقوطاً، بل هي أن تنسى من أنت.

جرفت الحقول، وكسرت الأشجار، وسوت التربة بالحديد، لكنّ شجرة زيتون واحدة بقيت. جذعها نصف مكسور، وأغصانها ممدودة تصلي للسماء. ركضت العجوز نحوها، احتضنت الجذع بذراعيها النحيلتين، التصقت به كما تلتصق الروح بالجسد، وقالت بصوت مكسور مليء بما لا يقال:

- هذه آخر الروح، لا تقتلوها.

اقتلعوا الزيتون كلّه. لم يتركوا جذعاً إلا واجتثّوه من صميم الأرض، يمحون ذاكرة كتبت بخط الجذور. لكنهم لم يروا الكنعانية وهي تحتضن ذلك الجذع الأخير، تلصق صدرها بخشبه المتشقق، تسمعه دقّات قلبها لئلا يموت.

جاء الضابط، ظنّ أن الصورة "كوميدية":

- امرأة عجوز تعانق خشبة...

قال ساخراً وهو يضبط حزام سلاحه:

- حتى الجذور صارت أحضاناً؟ الأرض لنا الآن، والشجر، وحتى دموعك...

رفعت الكنعانية رأسها من على الجذع. عيناها بئرين ممتلئتين بكل ما لم يقدر الغزاة على سرقته:

- بل دموعي ليست لك... إنها تفيض فوق تراب لا يعرف اسمك.

ثار الضابط:

– سنبني هنا جداراً..

أشار إلى الخرائط التي يحملها مساعده:

– سينهي كل حكاياتك.

رفضت أن تبتعد، رغم تهديدات الجنود، رغم صوت الجرافة الزاحفة. تعرف أن هذه الزيتونة ليست شجرة، بل ذاكرة. ليست جذراً فقط، بل عهداً.

ومن بين الغبار والصمت، خرجت الكنعانية بعزيمة أقوى من تحت أنقاض الألم، لم تكن مجرد امرأة عجوز. بل أصبحت سنديانة الزمن، حارسة الحكاية، أمّ الأرض. وقف الغاصب أمامها، يحاول أن يظهر جبروته، لكن كلماته بدت متكسرة، ونظراته مشتتة، يبحث عن ملجأ من غضب قادم لا مفر منه.

الكنعانية واقفة، تاريخ عتيق. حدقت فيه بعينين ملتهبتين بالقوة والعزيمة، وقالت:

- من أنت لتدّعي السيادة على أرضي؟

أنا هنا قبل أن تعرف أنت معنى الزمن، أنا الجذور في التراب، والصوت في الريح، والنور في العتمة أنا الكنعانية، أم الأرض، وحارسة أسرارها.

حاول الغاصب أن يرد، لكن كلماته خانته، مجرم يرتجف أمام قاض، فقال بتلعثم:

– هذه الأرض... أصبحت لي... القوة هي من تقرر...

المساء يهبط ببطء على الوادي، والريح تمرّ على وجوه البيوت الحجرية، تفتّش عن ذاكرة ضائعة. هناك على حافة الزمن، وقفت الكنعانية، شامخة مع سفح الجبل، عيناها تمسكان بالأفق، وراحتها على جذع زيتونة تعرفها كما تعرف أسماء أحفادها.

تقدم الغاصب، بملامح ملوثة بالغطرسة والجهل، يحمل في يده خريطة مهترئة وخلفه جنود لا يعرفون أسماء الأماكن التي يقفون عليها. أراد أن يُريها أنه سيّد الأرض. أن الزمن بات له. قال بصوت حاول أن يجعله واثقاً، لكنه خرج يتعثر بحجارة المكان:

– هذه الأرض أصبحت مستوطنة لنا. لقد كتبنا عليها أسماءنا، وغرسنا أعلامنا. نحن الآن أصحاب الحق الجديد.

ابتسمت الكنعانية ابتسامة ظلال المغيب؛ جميلة، لكنها تحذّر من مجيء الليل.

قالت:

- أنت تكتب أسماءكم بالحبر، ونحن كتبنا أسماءنا بالدم. أعلامكم من قماش، ونحن غرسنا وجوه أجدادنا في حجارة البيوت، ونقشنا الدعاء على عتبات المساجد، وغرسنا الزيتون لنعلّم الأرض الوفاء.

اقترب الغاصب رافعاً يده ويهدد...

لكن صوت الأرض خرج من تحت قدمي الكنعانية، هدير بعيد:

– قف. هذه الأرض لا تخون أهلها.

ومن خلفها، خرج رجل مُسنّ بلحية فضيّة، وعينين من جمرة، اسمه "الشيخ عبد الله"، يحمل بين يديه مفاتيح صدئة، قال:

– هذه مفاتيح بيوتنا. لم تصنع من معادن، بل من "مهور" الجدّات، وحكايات الأمهات. فقل لي:

هل تستطيع سرقة باب روحه في المفتاح؟

ضحك الغاصب ساخراً:

– نحن نبني الآن، نُنشئ، نحارب، نزرع...

قاطعه صوت شاب اسمه خالد، حفيد الشيخ:

– ما تبنيه لن يسكنه أحد. ما تزرعه لن يثمر. الأرض تُعطي فقط من يصدقها، ومن يُقبل ترابها حباً لا طمعاً.

ابتسمت الكنعانية بسخرية، ثم خطت خطوة للأمام، والأرض نفسها تهتز تحت قدميها، وقالت:

– القوة؟! قوتي ليست سلاحك البالي، ولا دباباتك المصنوعة من الفولاذ، قوتي هي جذوري في هذه الأرض، هي دماء أجدادي التي تسقيها كل يوم، أنت مجرد طارئ، والعابرون ينتهون بينما الأرض خالدة.

هل تعرف ما معنى أن تكون الأرض؟

أن تكون جزءاً منها؟

أن تحمل في قلبك نبضها، وفي روحك عطرها؟

شعر الغاصب أن شيئاً ما يخرج عن يده، هذه الأرض لا تحارب فقط بالحجارة، بل بالإيمان وبحكايات الصبر، بالأسماء التي لا تنسى.

قالت الكنعانية:

– هل جربت أن تحاور شجرة زيتون؟ أن تصمت أمام بحر شهد على المجازر؟

هل تعرف ماذا يقول البحر كل مساء؟

يقول:

- "أنا شاهِدُكم. كل موجة مني تحمل صرخة لم تُستردّ، ووصيّةً لم تُنسَ".

ثم التفتت للغاصب:

– اذهب إلى البحر واسأله عن جثث الأطفال الطافية، عن أسماء لم تُنقش على قبور لأنها لم تُدفن قط.

بدأ الجنود من خلفه يتراجعون. أحدهم همس:

– هذه ليست أرضاً فقط. هنا شيءٌ لا نفهمه. شيء لا يهزم.

أما هو، فقد شعر أن المكان يطرده، والتراب لا يقبل خطاه، وأن شجرة زيتون صغيرة تهمس في أذنه:

– لسنا لك. لسنا لكم. لن نكون.

تراجعت نظرات الغاصب، وتلقى صفعة لا يمكن ردها. حاول أن يتمسك بمظهره الزائف وقال:

– لكننا نبني، ونزرع، ونغير...

قاطعت الكنعانية كلماته بقوة:

– ما تبنيه سيسقط، وما تزرعه سيفسد، هذه الأرض لا تثمر إلا لمن أحبها، لمن حملها في روحه. أما أنت، فستكون غباراً في مهب الريح. إن كنت تريد دروساً في البقاء، تعلم من الزيتون، من جذوعه التي تحكي قصتي. تعلم من الصخور التي لا تتزحزح، ومن الأنهار التي لا تجف. أنت لا تفهم، ولن تفهم أبداً، لأنك لم تحمل الأرض في قلبك.

تقدمت الكنعانية نحو حجر قديم، عليه نقش كنعاني باهت. وضعت كفّها عليه، وقالت:

– هذا الحجر عمره ثلاثة آلاف سنة. نحن بنيناه، وحفرنا عليه دعاء للحفظ من الغزاة. كل من مرّ من هنا زال، وظل الحجر يروي قصة وجودنا. أنت لست أول الظلال. أنت صفحة من غبار، ستنتهي.

صمت الغاصب، وكلماته تبخرت في الهواء. التفتت الكنعانية إلى البحر، حيث الأمواج تحيي عنفوانها، وقالت:

- أخبروا من أرسلوكم أن الكنعانية لا تنحني. فكما انتهى من قبلكم، ستكونون أنتم مجرد ذكرى أخرى، تتلاشى مع الزمن. أنا الأرض التي لا تُقهر، والصوت الذي لا يُسكت.

في الليل، جلست الكنعانية مع أبنائها حول "كانون الحطب"، تروي الحكاية من جديد، الحكاية التي لا تنتهي: قالت لهم:

– كل أرض لها لغة، وهذه الأرض لغتها الصبر مع الإيمان والمقاومة وحكاية شهيد. هذه الحكاية هي سلاحكم، فلا تتركوها تُنسى.

ظلت تروي لهم قصص الأجداد الذين دافعوا عن الأرض بدمائهم. تقول لهم بصوت هادئ:

– أنتم جذوري، ومستقبلي. لا تنسوا أن هذه الأرض ليست مجرد تراب وحجارة، إنها روحنا، وهيبتنا، وكرامتنا. احملوها في قلوبكم كما حملها أجدادكم.

رفع ابنها الصغير "نعيم" يده، وسأل:

– أمي، متى سننتصر؟

قالت بابتسامة:

– عندما تعرفون أن الانتصار ليس لحظة في الزمن، بل هو أن تبقوا. أن تتجذروا. أن تغنّوا للحياة كل صباح، رغم القصف. أن تزرعوا زيتونة في فجر القهر.

يقول "عمرو" أحد الأبناء:

– لكنهم أقوياء، ولديهم كل شيء.

ترد الكنعانية بثقة:

- القوة الحقيقية ليست في السلاح، بل في الإيمان. نحن أقوياء لأننا نعرف من نحن، ونعرف لماذا نقاتل. هم يملكون السلاح، لكننا نملك الحق، والحق أقوى من كل شيء.

في اليوم التالي، عاد الغاصب. أراد أن يرى إن كانت الكنعانية ما زالت واقفة. فوجدها تنتظره. أمامها صفٌ طويل من الأطفال، يحملون حجارة، ومفاتيح، وصور أجدادهم.

رفع الغاصب نظره. شعر أن الأرض بأكملها تنظر إليه، لا تخافه، لا تكرهه حتى. بل ترفضه فقط. ثم سمع صوتاً أخيراً من بعيد، من الأعماق، من الصخور والجبال والبحر:

– أنا الكنعانية، أنا الزيتون، أنا البحر، أنا الحجر، أنا الأم التي لا تموت، أنا الأرض التي لا تُقهر، أنا الحكاية التي تُولد كل يوم، من جديد.

تقف الكنعانية على شاطئ البحر، تمد يدها لتلمس الأمواج التي تلامس قدميها. تقول للبحر:

– أنت شاهد عليّ، أنت تعرف أنني لن أنكسر مهما طال الليل، سيأتي الفجر. ومهما اشتد العاصفة، ستهدأ.

ثم تلتفت إلى الغاصب الذي ما زال واقفاً بعيداً، وتقول له:

- اذهب، وأخبرهم أن الكنعانية لن تموت، أنا الكنعانية التي تُلهم كل من يزورها، قصة الأرض التي لا تنحني، والأم التي لا تموت، والصوت الذي لا يُسكت.

ميلاد في سوق القطّانين

(إهداء إلى روح الشّهيدين ليث الخالدي، وعبد الرحمن قاسم)

(تحتوي على عبارات منقولة عن الشَّهيدين أخذت من مصادر مختلفة)

يلفُّ السكون كل شيء في ظلمة الليل، "عبود" يلوذ بالقبر الذي يحمل رفات صديقه الذي سبقه بخطوة لم يتوقعها. فقبره محارة تحيط بلؤلؤة ثمينة، يجثو عبود هناك صامتاً، جزء من الأرض يرقد تحتها من يحب بين يديه، هبت نسمة خفيفة حركت نبتة "الزنبق" التي تلمع تحت ضوء القمر، رسالة ووعود لم تُنسَ، يغرسها بحرص، ويغرس ذكريات لا تموت، وقلباً لا يريد أن ينسى.

تراب القبر دافئ تحت أصابعه رغم البرودة، فصدر صديقه الدافئ خدود زيتونة رومية عابقة برائحة المسك، تلمسها يداه بخشوع. كل حفنة تراب تحمل شيئاً من روح صديقه، ومن ضحكاتهما التي طواها الزمن.

"عبود" يلمس التراب، يلمس قلباً ينبض بالحياة، ويعلم أن ما تبقى هو الذكريات فقط.

الليل دامس في عزلتهما، وهناك خيطٌ من نور، من قمر حجبته السحب، من ذكريات تنساب دامعة على خديه. المكان يضيق بهما، ويحاول أن يختزل تلك المشاعر في مساحة صغيرة. يقرأ آيات من الذاكرة، آيات من حياة مضت، ثم يصرخ بعويل يهزُّ جنبات الليل، يحاول أن يصل إلى صديقه في عالم آخر، حفنة التراب تضغط على أصابعه كيد صديقه يوم كان يجرّه من بين أنياب الموت... لكنها هذه المرة عجزت عن إنقاذه". تقول له:

- "أنت لست وحدك".

في تلك اللحظة، زاد قلبه اتساعاً عن قبر صديقه، يحاول احتواء هذا الحزن، وهذا الحب وذكرياتهما. ثم همس بصوت خافت، يخاطب السماء:

- "الله أعلم بما في القلوب..."

كلماتٌ بسيطة، لكنها تحمل ما في قلبه من ألم وحنين وأمل ومقاومة.

تراه يسير في شوارع المخيم، يحمل ثأره بين كفيه، نهر جاف ينتظر فيضانه القريب؛ ليجرف ما تراكم من ظلم وتخاذل. التعب أخمدَ دموعه، فأسند رأسه إلى الصورة التي يحملها وكان ليث مبتسماً.

- هل يعلم أنها ستكون الصورة الأخيرة؟

في كل زقاق يمر به، يختلس إليها نظرات حزينة، والوجل يوشك أن يوقف دقات قلبه. يرى ظل "ليث" ينتقل من مكان إلى آخر، فروحه لا تزال تسير معه.

صور "ليث" المعلقة على الجدران، تقاوم قطرات المطر المتساقطة عليها، ولا تنثني لهزات الرياح العاتية، ابتسامته علِقت في ذاكرة المكان، تلك الابتسامة على شفتيه لمعت في أيام مضت، وأصبحت الآن ذكرى ترافق خطواته حتى يصل إلى السيارة.

لم يكبر "ليث" بسهولة بين أحضان عائلته، ليودّعوه بهذه السرعة، يقول والده بصوت منكسر:

- ومن يتأمل إطلالته، يصبح عاجزاً عن وداعه.

وتكمل أمه بحزن:

- كان مفعماً بالحيوية والنشاط، روحه تلامس السماء، تتسامى وتطير فوق تراب الوطن، تاركةً خلفها ذكرى لا تُنسى، وقلوباً تئنُّ من فراقه.

ليؤكد والده:

- روحه بلغت حد السماء...

هذه الكلمات تُرددها العائلة بأسى، تحاول أن تمسك بشيء من نوره الذي غاب عن أعينهم، لكنه بقي في قلوبهم، يضيء طريقهم حتى في أحلك الليالي.

ما زالت صورة 'ليث' تتدلى من مرآة سيارة 'عبود'، محبوسة في قلب فضيٍّ لساعة جيب قديمة. يتراقص "بندولها" دون توقف، تعد الثواني الأخيرة التي تفصله عن اللقاء الأبدي.

كل حركة للسيارة تجعلها تتمايل بخفة، وعقارب الساعة تشير إلى وقت لا ينتمي لهذا العالم. تهمس له بذكريات لا تنسى، بينما رائحة الفضة الباردة تذكّره بأن بعض القلوب تظل تنبض حتى بعد توقفها.

وذلك القميص الأحمر الذي يرتديه في الصورة شاهد على لحظة فراق مؤلمة، لحظة تجمّد فيها الزمن، والعالم توقف عن الدوران.

"عبود" ينظر إلى الصورة بين الحين والآخر، يتذكر صوت صديقه "ليث" يهمس في أذنه:

- كنت دائماً أتكئ على همتك وعنفوانك...

تلك الكلمات تشعره بقوة غريبة، فروح صديقه ما زالت تسير بجانبه، تدفعه إلى الأمام في درب النضال والأمل. في تلك اللحظة، يعود به الزمن إلى الوراء... ذاك اليوم المشحون بالصراخ والدخان، حين كان "ليث" جالساً على الأرض، ركبته مصابة "بالرصاص المطاطي" مستندة إلى فخذ صديقه. ومع ذلك ينظر إلى السماء بابتسامة هادئة، فالجرح لم يكن سوى رسالة عابرة في طريق طويل.

- لن أترككم...

يقولها بصوته الهادئ الذي اخترق ضجيج الميدان.

- "سأظل هنا، في كل همسة حرية، في كل صرخة حق".

اليوم، تتحول الصورة من مجرد ذكرى إلى وعد بأن اللقاء قادم لا محالة، وتلك الروح التي طارت إلى السماء ستظل حية في كل قلب يحمل حباً. حتى الرصاصة المطاطية التي أصابته تبدو الآن حلقة وصل بين الماضي والحاضر، بين الجسد والروح، بين الألم والأمل.

وُلِدا وتربيا بأحاسيس وطنية موروثة، جمعتهما مقاعد الدراسة، وفي ساحاتها تشاركا "سندويشات اللبنة" التي يحضرها "ليث"، فهي إفطارهما المفضل، شوارع المخيم تحكي قصص بطولاتهما، في ساحات المواجهات كانا معاً، كتفاً إلى كتف، يذيقان الجنود ألواناً من الحجارة والزّجاجات الحارقة.

اليوم تمسك يده المرتجفة بالصورة، يظلُّ مُحملقاً فيها، محاولاً كسر سكوته ليتكلم، كان يواجه أصعب حصة تعبير في حياته، فهنا صَخَب ثائر يختنق في داخله، يعجز التعبير عنه، فالمشاعر أقوى من الكلمات، يقرّب الصورة من شفتيه هامساً:

- أحس بالرهبة كلما أراك يا توأم روحي، هل تنادي عليَّ لنكمل احتفالنا؟

كان "ليث" قد أكمل الخامسة عشرة، حين تسربت أول مأساة يعايشها في شبابه، فازدادت بشرته سُمرة من لهيب الألم في صدره، حين ضغط قلبه على أضلاعه، يومها تحرَّكت أطرافه كمداً، باحثة عن عدالة غائبة من همجية إحراق الرَّضيع "علي دوابشة وعائلته" من المستوطنين، لتصرخ دموعه في زاوية المخيَّم قبل أن يبدأ خطيب يوم الجمعة كلامه، فانفجرت دموع ليث بصوت أعلى من كل المآذن:

- "ليش" حرقوه؟ طفل صغير... "ليش"؟

كان سؤالاً بسيطاً لوالده، يحمل كل تعقيدات القضية، وعيناه تريان للمرة الأولى أن الشر قد يكون عارياً كالنار، بلا مبررات.

لم يكن لليث قرين، منذ كان في بطن أمه كان يركل بأطرافه كلما سمع هتافات المظاهرات، ولم تكن تسميته عبثاً، لم يعرف الهدوء في المهد من صوت الرصاصات التي تربى على سماعها، ولا معنى للتراجع حفظه من أبيه، فعقد –منذ طفولته– صفقة مع الخوف كتبها في دفتره المدرسي:

- "أخاف أن أخاف... فالخوف أكبر عدو لنا."

وفي العاشرة من عمره أضاف لها سطراً جديداً:

- لا مكان لك في قلبي لتبعدني عن الموت، لأنَّك بذلك تمنعني من الحياة.

كبر وهو يحمل هذه القناعة، حتى يوم رأى أقرانه يسقطون أمامه. حينها تحولت براءة الطفل في عينيه إلى شظايا ثأر. تقدم الصفوف الأمامية بخطوات ثابتة، ويسمع صوت أبيه يهمس:

–"الرجال لا يموتون جبناء."

صوته يعلو فوق دوي الرصاص:

–"مش خايف! خلّي زفة الشهادة تبدأ، أنا وكل شباب المخيم جاهزون...

تحت قميصه المدرسي، قلبه ينبض بأسماء من سبقوه. لم يكن يخشى الموت، بل يخشى أن يعيش دون أن يترك أثراً. فهبَّ مثل أسد يتضوّر للانتقام، معلناً وفاة الطفل البريء في داخله، متقدماً الصفوف بشجاعة الرجال:

- "مش خايف"... تعالوا طخوني "خلّي الشّباب يزفوني"

الدخان الكثيف يثقل الجو، والسماء رمادية فوق قرية "عطارة" والسماء تميل إلى لون رماديٍّ كئيب. "ليث" يتقدم بخطوات ثابتة، يعبر جسراً يمتدُّ أمامه، لم يكن معبراً يفصل بين شارعين، بل بين حالتين وجوديتين:

من جهة، المحتلون خلف أسوارهم، ومن أخرى، الأرض التي يعبرها بقلب ثائر.

ولم يكن مجرّد معبر من حجارة باردة، بل رمزاً لفصل أعمق، يفصل بينه وبين الشهادة التي تحدث عنها مع أصدقائه. كلُّ خطوة على الجسر قرب قرية "عطارة" تقرّبه من مصير متوقع، تقرّبه من انتقام طال انتظاره. الحجارة التي يرميها هي ذاتها التي كان يلعب بها في أزقة المخيم، يعلم أن الحجر الذي يرميه، والزجاجة الحارقة التي يلقيها خطوة نحو انتقام من الظلم الذي عاشه شعبه.

- "هذا الجسر يا عبود ليس حجارة فقط... بل جسر الأجيال.. إنه آخر عتبة بين العار والكرامة، الجسر يا عبود معبر بين عالم الألم الذي نعيشه، وعالم الشهادة التي سنختارها.

ليث يتعثر أحياناً، ينهض من جديد، قوة خفية تدفعه إلى الأمام. ترتفع المتاريس أمامه، والإطارات المحترقة تلهب عزيمته، فيعيد تمثيل لحظات عاشها مع أمه وهي تعبر به الحواجز. لقد نشأ على إيقاع مقاومتها وهي تخيط أوصال الوطن معه، وكما كانت تهدهده في المهد.

بين يديه، جعبة مليئة بالحجارة والزجاجات الحارقة، كل زجاجة تذكره بالرضيع المحترق، وعبود يحمل رماحاً من قضبان فولاذية كرماح الأبطال القدامى. يدير وجهه نحو صديقه "عبود"، ليطلب عوناً مستعجلاً، همس أولاً:

- "يا عبود... مش رح نعيش بذل".

ثم انفجر صارخاً:

- "بدنا نحرقهم مثل ما حرقوا الرضيع"

لكنَّ خشخشة البنادق جاءت أسرع من كلماته. رصاصة تخترق الهواء، قطعت الزمن وأصابته في صدره، فيتعثر والأرض تنسحب من تحت قدميه لتحتضنه ملائكة عليين. تلك الرصاصة كانت المقصلة التي قطعت حياة ثائر لم يكمل بعد أحلامه.

سقط "ليث" ببطء على الأرض. همس بكلمات تبللت بالدموع، دماؤه – كلماته التي لم يستطع نطقها – سالت لتختلط بتراب الوطن، تكتب آخر فقرات رسالته. في تلك اللحظة التي توقف فيها الزمن، حاول أن يلملم شتات روحه المتناثرة، بينما أصابعه الملطخة بالدماء تعصر الإسوار الصغير:

–"أعطوها... لتالا... قولوا لها... إنها... آخر ما تمسكه... يد أخيها"...

كلماته تذوب في الهواء، تحمل ما تبقى من حنين وحب لأخته. يحاول أن يمسك بمعصمها، يريد أن يبقى معها حتى في لحظة الرحيل. لكن الطريق ضاق به على عجل، وسيمرُّ فيه وحده.

ارتفع النهار مشرقاً بدمائه، والسماء تودعه بضوء أخير. الأرض تترامى أمامه، تفتح أبواب منازل الشهداء الياقوتية، حيث الراحة الأبدية.

مر بعض الوقت، و"عبود" واقف هناك، عاجز عن فهم ما حدث. رأى جمهرة من الشباب يحيطون بجسد صديقه، يحاولون أن يحموه من مزيد من الألم. فسأل باكياً، وصوته يكاد أن ينكسر:

- لماذا قتلوه؟ هل يرعبهم الحجر إلى هذه الدرجة؟

الجواب كان صمتاً ثقيلاً. يحمل في طياته الحيرة والغضب، لقد ارتقى "ليث" لكنَّ روحه بقيت معلقة في الهواء الذي يتنفسه عبود، تهمس لمن يسمع:

- "الحرية قادمة، ولو بعد حين."

لم يستطيعا حرق الشموع للاحتفال بعيد ميلاده كما اتفقا، بقيت الشموع في لحدها، والهدية بقيت حبيسة الدولاب بين أكوام الصور القديمة، حاملة وجوهاً تبتسم في أيام لن تعود.

قلب "عبود" انفطر أنيناً على فراق صديقه، وكل شمعة لم تشعل، تقطر شمعاً أسود من الألم، وأصبح الثَّأر للحاق به هو الغاية والمقصد كلّ يوم، وتتراكم المشاعر الدَّخيلة في ثنايا روحه من اعتقال أصدقائه، بعد أن سرقت الرصاصة الأولى ليث، والثانية حوّلت بغدر صديقه الآخر "موسى" ليلازم كرسيّاً متحرّكاً.

أدار محرك السيارة، والكرسي بجانبه يشكو وحدة مريعة، فقد اشتاق لصديق "عُمره" كما يحب أن يناديه، تحركت السيارة بخطوات متثاقلة، وانزوى المخيم خلفه، رجل حزين يبكي على النائم الجديد في ترابه. والشوارع ما زالت

تحمل صدى خطواتهما معاً، أما الآن، فلم يبق سوى صدى الوحدة، وهمس رياح تحمل معها قصصاً لن تُروى أبداً:

- "الورقة بيضاء والقلم أحمر"

عبارة يتمتم بها، وهو مستلق في سريره بعد الظُّهر، وأمُّه تلاعب خصلات شعره المتشابكة:

- ماذا تريد أن تكتب فيها يا عبود؟
- أنتم من ستكتبون بالقلم الأحمر على الورقة البيضاء...

فتلصق خدَّها على صدره، وتنهدات جافة تتصاعد منهما، وكلّما همَّت بالنَّوم؛ توقظها كلمات قلبه بعزيمة السّائل عن حاله، وبصوت أجشّ يخاطبها:

- "لا أسمع سوى دقات طبول الثأر..."

التفت بعيداً عن أمّه ليضم الصورة إلى صدره. في تلك اللحظة بدا لها طفلاً يحتضن دمية أخيه وحبيبه ورفيقه، فالبراءة والبساطة تلفُّ حياته بتفاصيلها، نظرت إليه بعينين تعرفان الحزن جيداً، رأتا في هذا الفتى حكاية حبها:

- أنت بداية السعادة التي جعلت محطات حياتنا كلها فرح... من يومك الأول كنا نتعلم منك كيف نكون أفضل...

صدمة تكوَّمت في داخله، واضحة تماماً، كامنة في قلبه للحظة الانقضاض، ولم يكن على وعي تام بهدفه. وتحت هذه القشرة الرقيقة من الفرح، صدمة هائلة تتراكم على غصن رفيع. الأب الذي يراقب من بعيد، شعر بقلبه ينقبض:

- ابني يكره الظّلم منذ كان في السادسة، يتمسّك بالحق، ولا يحيد عنه، رفض مرّة حضور حصّة الرّياضيّات؛ لأنَّ المعلم استبدلها مكان حصّة الرّياضة مخاطباً من يعاتبه:
- إذا كان الظُّلم موجوداً، فإنَّ التَّمرد واجب... ومن لا يعترض فهذا شيء يخصه ولا يعنيني.

يترنح جسده على السرير بين صور الشهداء الذين صاروا رفاق وسادته. في يده اليمنى صورة "فارس عودة" وهو يقذف حجراً نحو دبابة للاحتلال، وفي اليسرى صورة "ليث" وهو مسجى أمام أهله، طفلٌ "مقموط بكوفليّته"، وعيونهم تعتصر آخر دموعها، يعيد النَّظر إلى صور الشهداء التي تغطي جدران غرفته، فهو ليس وحيداً كل ليلة، بل يخاطبهم ودويّ الثأر يصرخ مرة أخرى:

- إنهم يظنون أن الحجارة انتهت مع أطفالنا، لكن سيأتي جيل يحمل الصواريخ في يد، والقذيفة في الأخرى. "سوف تجد الشُّرفاء بالبنادق"، سيعود طفل آخر ليتصدى لمدرعاتكم التي اهترأت من ضعف قلوبكم الجبانة، "وبقدر الله ستهزمون".

عندما تنعدم أحلام "عبود"، يعود إلى القبر حيث لا زالت الزنبقة تنمو تحت ضوء القمر نفسه، يمرر أصابعه على العهد المحفور بالتراب، زيارات صديقه تستمر، تطالبه بالوعد والعهد الذي حفره بأصابعه، وغطته أوراق الزّنبق الكثّة، وتذكره بمقولته له:

- "إذا فرضت علينا عيشة الغابات؛ سنخرج بأسودها"

ويمتد شريط الوعد الذي ورثه من عيني ليث وهو مسجى ينظر نحو السماء، فتزداد حدقة عيون عبود اتساعاً، فيجيبه:

- "لقد اتخذت القرار المناسب"، إنَّ الله معي وأمامي، وما بعد ذلك خَلْفِي.

يجلس في غرفته، وجهه متجه نحو صور الشهداء على الحائط، تلك الصور بينها صورة ليث التي التقطت قبل أشهر فقط، رفع صوته فوق أصواتهم:

- ليس هذا وقت الكلام، لقد رأيتم ما حدث لليث... ولموسى أيضاً وغيرهم.

جداله مع عائلته عن فلسطين، فهي في عينيه ووجدانه، ولسان حاله يتحدث في حبّها، وتعيش البَلْبَلَة التي أتعبته، وتفقد السّلام الَّذي حرمه من صديقه، واصفاً الاحتلال بأنّه مثل المشارط، يستحوذ على الأرض والإنسان، ويقطّع الأوصال، وبين طمع الخانعين الذين لفظتهم أمعاء الوطن، وآخرون يبصرهم بضميره، وقد اعتلى حماسهم الغيوم والأسلاك والجدران والدبابات، وفي باطن الأرض يعضدون همتهم، وتعرَّت قلوبهم من كل الخوف؛ ليزداد قلبه صلابة وتصميماً.

توقفت الأم عن تقطيع الخضار، بينما وضع الأب الجريدة جانباً وأخفض صوت التلفاز. وأخته الصغيرة نظرت إليه ثم عادت إلى كتابها المدرسي، حيث صفحة عن جغرافيا فلسطين مفتوحة أمامها.

- لكن ما الفائدة؟"

قالت الأم بهدوء.

- "الفائدة؟" رد عبود

- "أن نبقى على العهد. ليث لم يمت كي ننسى".

أحس بثقل المسؤولية، وتذكر كلمات صديقه الأخيرة:

- "إذا فرضت علينا عيشة الغابات، سنخرج بأسودها".

نظر إلى يديه، فهي كل ما تبقى له:

- "سأفعل ما يجب فعله"

قالها بهدوء، ثم خرج من الغرفة.

لقد تغيرت معالم الوطن في عيني "عبود" من فرط كراهيته للمحتل، فينقلب رأساً على عقب، وما تعلَّمه في المدرسة، وسمعه من خطيب الجمعة، وما تلاه من مصحفه في زاوية المسجد الذي اعتاد الصَّلاة فيه ليكون من السَّبعة الّذين يظلهم الله في ظلّه، فاشتدَّ عُودُهُ في هذا الخليط، وينهمك في حياته، وإحساس غريب ينمو كلّما تعب، فتنمو عضلاته وعزيمته...

- "ولم يرَ بُدّاً ممّا ليس منه بدّ."

يقول والده:

- يعشق القدس وغزة وجنين، وفلسطين من بحرها إلى نهرها، ويخاطبها بإحساس خانق:

- "أنا ابنك البار"...

فقد وُلِدت عِزَّته بانفعالات ترقد في عمق روحه..... مشاعره تكمن في عرينها، وثمَّة بركاناً يتململ فيها؛ ليلقب نفسه بعد ذلك:

- أنا (أبو الكتائب) ...

يدعو أصدقاءه وعائلته لمغادرة مساكن اليأس، ويتيمنوا بقوة من صنعوا العزّة لوطنهم، ويكونوا أوفياء لأصحاب الضَّمائر الذين يُلقون خيرهم في فؤاده. يتدثَّرُ بعطف أمّه الذي بدأ يتحلل عنه مع الأيام، ويخطُّ الشَّيب شعر والده، فيستند عليه أكثر، قارئاً في عيونه عبارات الوداع، فيرجوه:

- "استحلفكم بالله أن تشتروا لي سلاحاً، أنا أموت كلَّ يوم ألف مرَّة... لقد ضربوا المرابطات في الأقصى..."

أمنيات اعتاد أن يرددها في سهرات العائلة، ثمَّ يخلد إلى الصَّمت للحظات، وهو ينظر في عيني أمّه، ويجهد نفسه محاولاً رسم ابتسامة على شفتيها، ويجفف دموعه أمامها؛ فالأيام قد ضايقتها كثيراً:

- لا تلوموني، "أنا أحب الأقصى إلى حدّ العشق"، وفوق كلّ حب تتخيلونه.

واستقرت عينا والده عليه بنظرة الحزين المكلوم، ويبحث في البقعة الدّاكنة التي تتسع في ماضيه، التي يدفن فيها كثيراً من عباراته:

- لا يذهب تفكيري إلى أبعد مما سيحصل، ولن أستطيع أن أفعل أي شيء.. لقد قلّ كلامه، وزاد غيابه، حتى نومه أصبح بلا موعد، وينطق كلّ مكان زاره بعبارات ما زال صداها فينا:
- "ما عدّت أطيق الحياة هنا، كلّ ما حولي ثقيل على روحي"، متعب أنا، والحياة في هذا الوطن الجريح أضحت لا تطاق، "لم يعد وطناً جريحاً فحسب، بل امتلأت جراحه بالصّديد."

ويطلُّ آذار عليه، وتبدأ الغمامة تلو الأخرى بالرَّحيل من السَّماء، فقد عاش شهوراً من الحياة والبحث، فأتعبته تلك الغمامة السّوداء الباقية فوق المخيَّم، ترفض الرَّحيل، فيتضخَّم قلبه بالدّماء الَّتي تزوره كلّ ثانية.

- لا تتأخر يا "عبود" –كانت تدلّله– فاليوم ذكرى ميلادك، وقد أعددّت لك مفاجأةً مساء اليوم.

تنظر في عينيه دون أن تملك كلمات للتعبير في وداعه حينما يخرج إلى عمله، سوى عبارتها في هذا اليوم:

- الله يرضى عليك يا حبيبي، ما تنسى... بعد المغرب.. مفاجأة حلوة "بتستنى" فيك.

يضحك في وجهها طالباً منها أن تدعو له، وأن تعينه بأجرة الطريق.... ويردف قائلاً:

- "بل أنا سأفاجئك...!"

يبدأ عمله المعتاد صباحاً، تستهويه حِدَّة السّكين، وخضوعها له أثناء عمله في "الملحمة"، وهي تفصل اللّحم عن العظم، وتمزّق ما تلامسه، ويجدع بها الأنوف والآذان، السّكين هذا اليوم تزداد ثِقلاً، تحمل في مقبضها الوطن وهمومه، ويجاهد مراراً في شحذها، نَصْلها يرفض الإذعان له، والتلفاز المعلّق فوق الثَّلاجة يصرخ بعويل الحرائر وهي تُضرب وتسحل في المسجد الأقصى، وفي تلك اللحظة قفزت السّكّين من يده؛ ليسمع لها رنيناً مدويّاً، بدت مثل موجة صدمة انتقلت بعنف مستمر إلى يديه، فيحملها أمام عينيه المحمرّة بكاءً، ويقول لها:

- "أعلم أنك صنعت لمهمة أعظم!"

شعور بالمرارة لم يستطع ابتلاعه هذه المرّة؛ غادر الطَّعم المرُّ للكبت المتصاعد من حلقه، ووضع نفسه طواعية لإيمانه وأحزانه، ودَّع عيون أمّه التي وعدها بالعودة، يقوده سكّينه إلى أوّل مركبة تصادفه:

- "خذني إلى الأقصى بسرعة..."

دخل الأقصى بطريقته، فجاس الأحياء والأسواق؛ ليُعاين فريسته، ويعدُّ العدَّة، ويرتدي قناعاً وهمياً من الطّفولة؛ ليبدو محايداً في أعين الغزاة، ومن زقاق إلى آخر يتنقَّل في القدس، وحينها رأى عُوداً دون أوتار على باب دكّان عتيق، فيتذكر أمنية صديقه "ليث":

- أريد أن أتعلَّم العزف؛ لأغني في زفّة الشّهداء " ودعتك يمّا وما أصعب رحيلك..."

شغف ليث بتعلُّم العزف يشتعل في داخله، والأوتار قد قُطعتْ لغياب العازف الذي كان يحلم أن يكونه. كلُّ مشهد يراه، وصوت يسمعه يزيد من اشتعال رغبته، فالحياة نفسها تُناديه ليعزف لحناً يخلّد ذكرى وطنه.

وفي وسط الزحام الذي يلتفُّ حولَه، ويؤمن وصوله إلى المسجد الّذي يهواه، يتقدم بخطوات واثقة، يسير نحو المسجد الذي طالما عشقه. يتوضأ من الماء الذي أحبَّ أن يرافقه إلى الجنّة، كلَّ قطرة تلامس جسده تَذْكِرة إلى عالم آخر، حيث تغسّله الملائكة بكل ما بقي من نقاء على جسده.

يدخل المسجد بوقار، كما فعل أجداده أول مرة، يعيد تمثيل لحظة تاريخية كانت بداية طريق طويل من الإيمان والتحرير. صلاته لقاء خاص بينه وبين خالقه، يناجيه بصوت خفيض، يطلب الشهادة بقلب صادق. يشكر ربَّه على قرب إجابة دعائه، ويرى في الأفق نوراً يلوح له، يعِدُه بحياة أبدية في جنات الخلد.

في مكان ما خلف العمود الرخامي، وقف رجل في العقد الخامس من عمره، يراقب المشهد بقلب مليء بالقشعريرة. يستمع إلى دعاء الشاب، إلى عنفوان كلماته، وهيئته التي تشعُّ إيماناً وقوة.

ابتسامة غامضة تلوح على شفتيه، يختبر مشاعر مقدسية طالما حملها في قلبه، الآن تتجدد أمام هذا الشاب الذي جعل من إيمانه وقوداً لروحه.

تلك اللحظة شرارة تُذكّي نار الإيمان في قلوب كل من شهدها، وتذكير بأن الوطن ليس مجرد أرض، بل روح تسري في كل من يؤمن به ويضحّي من أجله.

خرج من المسجد بخطوات واثقة، يحمل في صدره سرَّ النصر. ابتسامات هادئة تنساب من شفتيه، يوزعها على المارين بجانبه، هدايا من روحه الهادئة.

جسده تحت سيطرة ذكائه الحاد، يخطو نحو الهدف بخطة محكمة لا مكان فيها للخطأ. حجارة شوارع القدس، التي عادة ما تكون قاسية ببروزها على المارين، تخفي نتوءاتها تحت قدميه، تحترم سير هذا البطل الذي لا يعرف التعثُّر.

عيناه ترويان قصتين مختلفتين: واحدة تطوف في المكان بتركيز حاد، ترصد كلَّ تفصيل، عين صقر يحرس سماءه، والأخرى تدمع من فرط ما تحمل من مشاعر جياشة تجاه هذه الأرض التي تسير عليها قدماه. وهالة من الرَّدى تلفُّه، يحمل معه نذيراً لمن يعترض طريقه، لكنها أيضاً تذكير بأنه يمشي على حافة القدر.

وصل إلى "سوق القطّانين"، وعلى مدخله لافتة قديمة تروي قصة بناء استمرَّ سبعة أعوام، والقطن الذي كان يملأ السوق ذات يوم اختفى، تاركاً خلفه فراغاً يملؤه الآن صمت ثقيل.

المكان الذي كان يوماً رمزاً للحياة والتجارة، أصبح ملاذاً لعصابات إجرامية تتغلغل في زواياه المظلمة، تزرع الفساد وتنشر الكآبة التي تحوم حول القدس وظلها قاتم.

وقف البطل هناك، يحمل على كتفيه مهمة إلهية لاستعادة نور المكان. ينظر إلى السوق بعينين تحملان إصراراً لا يعرف التراجع، سيعيد للأحجار ذاكرتها، وللزوايا المظلمة نورها.

القدس تنظر إليه، تنتظر منه أن يعيد لها مجدها، وهو يعلم أن كلَّ خطوة يخطوها هي خطوةٌ نحو تحرير روح هذه المدينة العظيمة.

وعلى حين غرّة يباغتهم، فينطلق سكينه من خصره قبل يديه، يصرخ في وجوههم مكبّراً بصوتين من رجل يتضوَّر من ألم مضاعف يسكنه، وعزمه حال بينهم وبين الخلاص، فزاغت عيونهم من لمعان نصله، فصاروا مثل "حُمُرٍ مُستنفرة، فرَّت من قسورة". فقدوا كل ما تبقى من شجاعتهم أمامه، والأمل بالنجاة أصبح بعيداً.

طاف حولهم بسكينه سبع مرّات، وقذفهم بجمراته، كل طعنة تفقدهم شيئاً من معالم وجوههم، واستأصلت قطعاً من كبدهم، يقطّعهم إرباً إرباً، بيد لا تعرف الارتجاف، صوت تكسير عظامهم يجلو في الأجواء.

نداء انتقام يسمعه من في القدس. فتفرقوا "شذر مذر"، بين قتيل يسقط كجذع مقطوع، وجريح يزحف أسرع من أفعى خبيثة بعيداً عن ساحة المعركة.

يطاردهم بخطوات ثابتة، يعيد للأرض توازنها المسلوب. وكما أراد، "وكان وعدهُ مفعولاً"، فقد حوّل لحظة مولده إلى احتفال مغاير تماماً. كعكة الثأر قد نضجت، وشموع البأس اشتعلت في قلبه قبل أن تشتعل في المكان.

ألقى خيره في القدس، وقطع دابر شرِّهم، حتى باتت السلامة في جسده من بضع رصاصات أزالت توعُّكه، هدية أخيرة من القدر. فرحلت روحه بكبرياء، تاركة مكاناً دافئاً يحتضن ذكراها في بقعة شرّفها الله وقدّسها.

القدس تنظر إليه، وتهمس له:

- "لقد كنت البطل الذي انتظره."

ارتقى "عبود" كما أراد على عجل إلى "ليث" وكما أحبّ أن يلتقيا، ينظر إلى السّماء رافعاً يده، مرحِّباً بمن يستقبلونه، ووجه المعروق بحب القدس يودع مخيمه، ويتمّ آخر عبارة في وصيته لمحبيه:

- جسدي الآن يا أمي، يتصارع مع الظلام في طريقه للفردوس. لا تبكيه، ولا تحزني عليه، فقد وهبني اللهُ شيئاً أفضل منه. لكنَّ روحي... روحي لن تفارقكم. إنها هنا، بينكم، في كل زاوية من زوايا بيتنا الدافئ.

تحدثوا إليها متى شئتم، افتحوا مصحفي واقرأوا آياته، سأكون هناك، أسمع صوتكم، وأحسُّ بحنانكم.

روحي الآن يا أمي، في مكان بعيد عن الألم، في حضن طيور خضر تسرح في جنان الخلد. تأكل من ثمار لم تذوقوا مثلها، وتشرب من أنهار تجري بالعسل. إنها معلقة في قناديل نور تحت عرش الرحمن، تضيء مع النجوم التي ترونها في الليل.

لا تحزني، يا أمي، فأنا لم أرحل عنكم. أنا هنا، في كلِّ مرةٍ تلمسون فيها غطائي، أو تفتحون خزانتي. أنا هنا، في كل مرة تذكرونني فيها بابتسامة أو دمعة أو دعاء. أنا هنا، في كل نفس تتنفسونه، وفي كل خطوة تخطونها إلى القدس.

وداعاً يا أمي، لكن ليس إلى الأبد...

سأكون في انتظاركم، حيث لا ظلام ولا ألم، فقط نور وحبّ لا ينتهي. إلى أن نلتقي، احفظيني في قلبك، كما سأحفظكم في شفاعتي.

بقيت الطاولة وحدها، تنتظر ضيفاً لن يأتي. الشموع وقفت مكانها، لم تُشعل، تعلم أن ضيف الشرف لن يحضر هذه المرة. فقد أصبح ضيفاً في مكان أعظم وأجل.

أمُّه جلست القرفصاء، تستند على ذراع كرسيّه الفارغ، تحاول أن تمسك بشيء من وجوده.

عيناها تتأملان الكعكة التي طبعت عليها صورته، المناسبة اختلفت، وصورته التي ترمز إلى الفرح أصبحت ذكرى، وتغالب حاجز البكاء، تحاول أن تمسك دموعها بقوة لا تعرفها إلا أم فقدت فلذة كبدها.

همست بصوت يكاد أن ينكسر:

- لم يعد بمقدوري أن أعلم هل أنت بعيد عني؟ أم أنك ازددت قرباً من قلبي...؟"

تحمل الحنين والألم الذي لا يوصف. ثم أضافت تخاطب روحه التي ما زالت تحوم حولها:

- أعلم يا حبيبي أنك لن تعود، لأنك لم تذهب... أنت هنا، في كل شيء ألمسه، في كل ذكرى أعيشها، في كل نفس أتنفسه.

كلماتها تنساب أنهاراً من نور في ظلمة الليل، تذكرها بأن ابنها لم يرحل، بل تحوّل إلى نور يسطع في قلبها، وإلى ذكرى تبقى حيةً في كلِّ لحظة تعيشها.

في يوم السابع من آذار، التقى القدر بأقدار غريبة. سبعة أيام، وسبع سنوات فرقت بينهم، فالزمن ينسج خيوطاً معقدة بين الأرواح. وسبعين شفاعة جمعتهم أخيراً، السماء أرادت أن تصلح ما فُرِّق بقدرة إلهية. تلك الأرقام كانت تفصله عن لقاء "توأم روحه"، وأيضاً تقرّبه من مصير محتوم.

في المخيم، علّق أصدقاؤه صورته بجانب صورة رفيقه، يعودان إلى بعضهما من جديد في إطارٍ من الذكرى. سبع آيات من الفاتحة تُتلى، تفتح أبواب السماء السبعة لتستقبل روحين كانا دائماً واحداً.

الوقت قد حان للاحتفال بالميلاد، هذه المرة الاحتفال مختلف. بندول ساعته السرية ضبط اللحظة بدقة، يعلم أن الوقت قد حان ليلتقي به في سوق القطانين ليكمل ميلاده، وتقطيع الكعكة تمَّ كذلك إلى سبع قطع، كل قطعة تحمل ذكرى، وكل لقمة تحمل وعداً.

الرقم سبعة كان حاضراً في كل شيء، يهمس بأسرار لا يعلمها إلا من عاش اللحظة بتفاصيلها. الاحتفال ميلاد جديد، ميلاد في عالم آخر، حيث الأرواح تلتقي، والذكريات تبقى حية إلى الأبد.

قال الله تعالى:

(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.) (آل عمران.169)

المسير

أمسك بيدها الصغيرة، وأصابعه تضمُّ كفّها اليُسرى، وبالثّانية تضمُّ دميتها القطنية المبقعة بالتراب محاولة احتضانها، مُستند على كتف ابنه أحمد الطالب الجامعي الهادئ، يتقدمهما بخطوة أو خطوتين، قائد يأبى أن يترك موقعه، وكُلّما تعثرت خُطاها، وجدت نفسها مُستندة إلى يده القويّة، ينهضها من جديد لتسير بجواره:

- لن يستغرق الأمر كثيراً يا أبنائي، تابعوا المسير فقط. فظل الأقصى يتدفق في الأفق...

في يده مسبحة من "عجم الزيتون"، تتدلى حباتها متراصة، أعمار معلَّقة على خيط الأيام، كلُّ نواة منها وتر يُنشد حكاية، يقول لجنى:

- إحداها تذكرني بجذع الشجرة الذي احتضن طفولتي، وأخرى بصلاة الفجر في زمن كان العالم فيه أرحب، وثالثة تشبه دمعة أمّي التي لم تجف بعد على خدِّ الأرض.

يتبعونه مثل ظله –كما اعتادا أن يسيرا في زقاق المخيم– كانا يقفزان فوق عتبات البيوت، ويلاطفان الأطفال الجالسين في الزقاق، ويساعدان العجائز في حمل أغراضهن– وعند طرف المخيم، تحت القوس المعدني الضخم، حيث بدأ الصَّدأ ينخر جسده، وبهتت الصورة المُعلّقة عليه. توقّف فجأة. لوّحت يداه نحو الجبال البعيدة، حيث تلامس بيوت المستوطنين السّماء، سكاكين مغروسة في خاصرة الوطن.

سألهم بصوت أخشن من حصاة تسحق تحت مركبة عسكرية:

– أترون تلك القمم؟ كانت تُضيء مصابيحها لنا... والآن، صارت تُشعِلُ نارها فينا.

وأكمل متألماً:

- حتى زقزقة العصافير غابت، وتباعدت الأشجار والأعشاب عنها لتحيط بها من بعيد، تتظاهر حول السلك الشائك، خوفاً من ملامسة تلك الصخور المحطمة–أشلاء جبال مزقتها جرافاتهم–، وهرولت إلى الوادي باحثة عن استقرار مؤقت يجمعها". لكنها لم تجد سوى غبار ذكريات لمكان كان فلسطينياً...

قفزت جنى –خطوتين أو أكثر–، فالصَّغيرة تعشق ذلك، لأنَّها اعتادت القفز فوق عتبات البيوت، فجأة رأت نبع ماء يتسرَّبُ من بين الصّخور، وهي تبحث عن زهرة صغيرة، النبع مُحاط بهالة خضراءَ مسودّة حسبته عُشباً، وسألت ببراءة:

- هل تبكي تلك الصخور يا أحمد؟

فأجابها –وكان يتبعها–:

- لَعلّها آلمها شَقُّ جرافات الاحتلال طريقاً فيها، فتعفّنت جِراحُها، أو ربما تبكي شوقاً لأناس كانوا يشربون منها.

أسرعوا الخُطا فالطَّريق ترابي، وهناك أجزاء معبّدة ويجب عليهم تجنبها، تلتف حول مسارهم، أطول من أفعى رقطاء تتلوّى بين الأعشاب، توقف أحمد فجأة ليتساءل هذه المرة:

- لماذا يطول الطريق؟ أليست المسافة نحو المدينة نفسها التي كنا نصلها بنصف الوقت؟"

لم يعرف أن كل خطوة بعيداً عن الدرب المعتاد تنسج خيوطاً من الضياع. ففي زمن النكبات، حتى الطرقات تتآمر مع الغريب؛ تتشعب شرايينها المقطوعة، ويمتد سرابها ليبتلع أحلام السائرين. كلما ظنوا أن قبساً من نور يلوح في الأفق، إذا بالظلام يتراكم دخانه الأسود.

أمسك الأب بكتف ابنه، وعيناه أدق من بوصلة حديدية لم تنحرف قط:

- "نحن لا نسير كغيرنا يا بني. هنا، حتى الخطوات لها ذاكرة... وكل طريق يختاره المرء يصبح جزءاً من قدره".

ثم أضاف، وصوته هدير خافت من تحت الأرض:

- "سيحاولون قطع مسيرك، أو جرّك إلى طرقهم الممهدة... لكن تذكّر: من يتبع ظلال الآخرين، لن يصل أبداً إلى شمسه."

وفي كل طريق، كما في كل أرض تئن تحت وطأة الاحتلال، نجد من يبارك خطواتنا، ومن يلعن آثار أقدامنا، إنه ذلك الاختلاف الأزلي كالليل والنهار في صراعهما على وجه الأرض. لكل منا بوصلة مخفيّة بين ضلوعه، تشير إلى اتجاه لا يراه سواه. وكثير من السائرين فقدوا الاتجاه، وأساءوا استخدام بوصلتهم، وحولوها إلى سكين يقطعون بها طريقنا وطريقهم.

ربّما يجدون في حافلة الجمعة الذاهبة إلى المدينة مكاناً لجلوس عابر، أو يمنّ الله عليهم بـ"ابن حلال" يتذكر إنسانيته فجأة فيقلّهم معه. عندها سيرتاح الوالد المسنّ، وتنام "جنى" على كتف أبيها، فالشقاوة لم تكن سوى حلم مزعج.

لكنّ الأب يسأل نفسه في صمت، وهو ينظر في واد مهجور:

- لماذا تقلّص عدد الذاهبين عاماً بعد عام؟
- هل هم وعثاء الطريق؟ أم لأنّ السائرين أنفسهم صاروا أوراقاً صفراء تذروها الرياح قبل أن تصل؟

أو الشوارع –حسب رأي أحمد– مكتظة في مكان ما، أم حاجز يمنع القادمين والذاهبين.

أو كما قال أبي:

- إنَّ القلوب والمشاعر هي المكتظة دائماً، تتزاحم فيها هموم الماضي لتتعثر مع خطوات الحاضر، وتنظر دائماً إلى المستقبل، من كان قلبه مرتبطاً بالمدينة؛ سيجد ألف طريقة وطريق إلى الوصول.

ويتمتم الأب:

- من كان هدفه الوصول لن تعجزه الحيلة."

توقف من تعبه مستنداً إلى الضلع المكسور من القوس المعدني، نظر حوله هدوء المكان الشَّارع، فالصَّباح رغم زقزقة العصافير على أشجار بيوتهم لم يبدأ بعد عندهم. هناك أناس لا يعنيهم الصباح ولا نداءاته، فقد اكتفوا بالجلوس والانتظار.

اسمع يا ولدي:

- على هذه الطَّرقات ذئاب كثيرون سيحاولون سرقة أحلامنا، كما يسرقون زيتوننا وأرضنا وحتى حجارة بيوتنا القديمة، يسرقون بسمتنا. لكنهم لن يسرقوا ضحكتنا الأخيرة من بين أسناننا عندما نطردهم.

ثم توقف ورطب حنجرته قليلاً بالصمت، وأكمل:

- لكن احذر أن تسمح لهم بسرقة نبض قلبك. فما دام الدم يدور في عروقك، والغضب يُبقي عينيك مفتوحتين، فأنت المنتصر – ولو بظفر واحد مكسور–. انتصر لحياتك كما تنتصر لأرضك: بالوجود أولاً، ثم بالمقاومة دوماً.

يُعلّمه أنّ الثقة بالهدف شمس لا تطفئها السحب، واختيار الطريق مصباح لا ينضب زيته حتى في أحلك الليالي، أما جنى تتبعهم خطواتهم، تتعلّق بهما بكلتا يديها، واثقة بأبيها رسوخ الجبال، وفخورة بأخيها قبطان حياتها الذي يعرف الطريق عبر النجوم دائماً.

- الحياة يا أبنائي مثل النهر... ستمر... وقد لا يحدث فيها شيء سوى أنّها تمر... ولكن موجاتها ستبقى حولنا، وقد لا نمسك منها سوى حفنة ماء تتبخر من بين أصابعنا.

في أعماقهم يتمنون عمراً طويلاً مليئاً بالفرح، لكنهم رفضوا أن يكون ثمنه أن يصبحوا عجائز قبل أن يذوقوا طعم الحرية. هذه هي الحقيقة القاسية التي تعلّموها: أن الحياة قد تسرق منك كل شيء إلا إصرارك على الوصول.

وفي النهاية، سيكون الوصول حليف من ظلّ يقبض على جمر الأمل حتى وهو يحترق، لا من استسلم وترك رياح اليأس تحمله مع الأوراق الميتة.

لو يعلم أبي أن المخيم ليس مجرد مكان عشت فيه، بل هو ذاكرتي الأولى والأخيرة. أعرفه بسقوف البيوت المنحنية تحت ثقل خزانات المياه، أكتاف حمالين يتهادون بأعباء الزمن. أعرفه بطيبة تتدفق بين أزقته الضيقة وشاي النعناع الساخن في ليالي الشتاء، وبصراخ البائعين الذي يخترق جدران الذاكرة. نداء لا ينتهي.

أراه في ذبول شوارعه التي تتشابك مع خطوط كف عجوز، وأشمّ رائحة قلي الباذنجان التي تعلق في ثنايا الروح مع الطقوس الصباحية.

هنا حيث تصبح كل حجرة شاهدة على قصص لا تُروى، وكل زقاق سجلاً يحفظ همسات القلوب في زمن الشدائد.

إنه ليس مجرد "معسكرٌ للأبطال" كما يرددون، بل هو وطن صغير يحمل في ثناياه معاني الحياة والموت، كل فرح مُختزل ووجع متراكم، كل صرخة ألم وابتسامة أمل. هنا حيث تختلط رائحة التراب برائحة الخبز الطازج، وتصبح الأرض أمّاً تحتضن الأحلام قبل أن تحتضن الأجساد.

ظل الأب يحاول أن يصوغ لهم السَّعادة بلغة أجمل رغم قسوة المخيم، يعمل ويناضل، ويبحث لهم عن الأفضل؛ كان جبلاً جليدياً عائماً يروي عطشهم للحياة، يذوب قطرة قطرة مع إشراقة كلّ يوم جديد، مدركاً أن حبه لهم سيبقى النهر الوحيد الذي لا ينضب، سيحبهم فقط لذلك، وليس لشيء آخر.

هذه حقيقة لا تحتاج إلى تفسيرات حسب شعور جنى، فمشاعر المحبة النّابعة من داخلهم تمتلك معنى حقيقياً ستحترمه وتتذكره.

عاش في المخيم حياته كما يعيش السجين في زنزانته، كل ماضيه هنا، وقليل من أحلامه، وطيف من المستقبل قد لا يأتي.

"صار المخيم في جسد الوطن جرحاً. بقعة بنية باقية تنزف كلما حاول أحد نزع قشرتها الجافة، وإن أبقيتها لا يمكنك نسيانها، ولا تنفك تدعوك لحكها دون أن تستطيع قشطها."

هنا الحياة مختزلة، العمل كفاف اليوم، والنّوم هروب مؤقت، والزّواج اتفاقية بقاء، والموت راحة أخيرة. والجرائم ردود أفعال مكبوتة، وتبريراتها مختصرة، والعدل لافتة معلقة في المحكمة فقط.

حتى طعامهم صار اختزالاً للوجود: عدس يمد يده للأرز، وماء يتوسل للطحين ليصير خبزاً. من ذاق مرارة المخيم عرف أن الألم ليس كلمة في كتاب، بل طعم في الفم، ولون في العين، ورائحة تلتصق بالملابس.

هم أكثر الناس معرفة بالجوع، وأعمقهم فهماً للحرمان، وأصدقهم تعاطفاً حين تدق نواقيس المصائب.

من جرب طعم المخيم، تذوق طعم الألم، وأكثر البشر تعاطفاً مع الآخرين وقت المصائب من عاش فيه.

- أنا وأنت يا أحمد وهي، أصحاب قضيَّة اختصرها بعض أصحابها بكلمة، كمن يؤدي التّحية للقاتل ليطيل في عمره.

أشار بيده المتشققة إلى المخيم أمامهم:

- "انظروا هناك.. هذه البيوت المكدسة حزناً. نعم، المخيم حقيقي، لكن لا تخلطوا بين القبول والاستسلام. ليس كل ما يرتدي ثوب الواقع يصبح حكماً إلهياً. هذه الجدران التي تحبس أنفاسنا اليوم، ستكون غداً غباراً تحت أقدام أحفادنا الأحرار."

من خلف السور المائل الذي يحاول حماية الطريق من الانزلاق الطريق، وبجانبه حفرة مملوءة بالماء كانت مكان شجرة جفت منذ زمن، ظهر رجل منهك يحمل سنوات عمره على ظهره، والزمن فعل فعلته في انحنائه.

بادرهم بابتسامة لطيفة، جاء من الوطن الصغير مثلهم، لكن من زقاق أوسع قليلاً قرب السوق.

سار خلفهم في صمت حتى لا يزعجهم، فحديثهم ممتع، فقد ترك دكانه في طرف السوق القريب من المسجد، حيث اعتاد المصلون التبضع منه لعائلاتهم، حفظ أسماءهم كما حفظ ديونهم، وحتى ما يشترونه كل شهر.

دكانه مليء بطحين الوكالة وحليبها، وبعض علب السّردين، ولفائف المحارم الزرقاء الخشنة، وبعض الأقلام الصفراء والدفاتر.

قال البقال وهو يمسح نظارته:

- لقد استمعت إلى جزءٍ من حديثكم... وأدركتُ أن المخيم بالنسبة لكم، ليس مجرد مكان إقامة، بل عالمكم الذي يحمل كل تناقضات الحياة.

أضاف أحمد بتأمل:

- نعم، إنه يحتوي في طياته قصصاً لا تنتهي... منهم من تقبّل واقع اللجوء المرير بانسحاق، وظلم نفسه وغيره.

قال الأب وهو يضغط على كتف ابنه:

- ومنهم من ظل يحلم بالغد... يعترف بحقيقة نهاية هذا اللجوء القاسي، لكن"...

قطع البقال كلامه:

- لكن آخرون لم يحسنوا اختيار بداية الخروج من هذا الواقع المرير".

أكمل الأب بحزم:

- فالعاطفة، رغم وطنيتها، لا تكفي وحدها لتكون سيدة القرار في تحديد مصير الإنسان.

قال البقال وهو يشير إلى الطريق:

- أما أنت أيها الأب، فبحكمتك لا تهتم بالمسافة بقدر ما تراقب اتجاه المسير.

أجاب الأب بنظرة ثاقبة:

- نعم، لأن لحظة تردد واحدة، ووقوفاً خاطئاً في الطريق، قادرة على هدم بناءٍ أمضينا سنواتٍ في تشييده.

قال أحمد بصوت خافت:

- بناءٌ نرفعه بحب... ونزينه بزهور قلوبنا وفلذات أكبادنا.

أضاف البقال بحزن:

- ثم نستيقظ ذات يوم، لنجد أحلامنا كبيت من ورق... ذاب في أول عاصفة.

اختتم الأب بهمس:

- لم يبق سوى الظل... ظل حياةٍ ممكنة. حلمنا بهذا البناء، وابتسمنا له، ونمنا تحت ظله الوارف...

قال أحمد والدمعة في عينيه:

- لكننا فجأةً، وجدنا أنفسنا بلا بناء...

وختم الأب الحديث:

- ذات يوم، سيستيقظ الوطنيون، ليجدوا أحلامهم كبيت من ورق – ذاب في أول عاصفة–. لم يبق سوى الظل لحياة ممكنة. حلموا بهذا البناء، ابتسموا له، ناموا تحت ظلّه الوارف، لكنهم فجأةً، وجدوا أنفسهم بلا بناء، كل ما تبقى هو الفكرة التي يحتفلون بها كل عام.

وفي الخلفية ظل صوت البقال يتردد:

- قيمة وجود الإنسان لا تكمن في المظهر الجميل، ولا في اللسان المعسول، بل في قلبٍ طاهرٍ عامرٍ بالإيمان، وعقلٍ يخلو من شوائب التفكير ومتاهة الطرق المطبوعة.

قال البقال:

- زارني المختار يوماً، وبدأ يدق بيده على طاولة الدكان الخشبية قائلاً:

- برأيي المتواضع، أنتم رواد المساجد بارعون، تتفرجون على أحداث الوطن من على الرصيف يسميكم البعض 'تجار الأزمات'، قدمتم عملاً هامشياً لا يعدو كونه تنظيراً فارغاً.

فأجبته:

- أنتم تلك الطبقة العليا التي وضعت الأهداف، فتلك قصة أخرى، وضعتم لنا أهدافاً للتخزين سراب في الصحراء أفضل منها، صعبة المنال، مستحيلة التنفيذ. والنتيجة؟ حصاد مر من الخيبات، ووعود كالفقاقيع تتبخر عند أول احتكاك بالواقع.

أمسك بعلبة سردين من على الرف، وقال بنبرة حادة:

- صبرنا طويلاً، حتى ضاعت منا الطرق. ولكن..." – وهنا أومأ بإصبعه إلى صورة الأقصى المعلقة على الحائط – "الفرصة ما زالت تتلمس طريقها بين الأنقاض، لم تمت بعد.

هكذا أحاديثهم، مزيج من الألم والأمل، من الخيبة والحكمة، يعيشون في عالمٍ يبحثون فيه عن معنىً للحياة، بينما يمسكون بخيوط رفيعة من الأمل، قد تنقطع في أي لحظة.

قالت جنى، والدهشة تسيطر على قسمات وجهها الصغير:

- هل سيتبخر كل شيء كالماء؟

ويتساءل أحمد وهو يحدق بالأفق نحو الأقصى:

- هل يبقى الأمل بعد هذه كله؟

شدّ والدهم على ساعدهما وضمهما قائلاً:

- أنتما... أنتما الأمل الذي لا ينضب"

رغبة البقال في المسير معهم واضحة، فوعورة الطريق وطوله، تهون بالرفقة والحديث، فأشاروا إليه مرحبين:

- لكنَّ طريقنا من هنا، إن كانت طريقك" يشير الأب نحو طريق الأقصى.

جنى تلوح بيدها الصغيرة:

- هل هذه المدينة البعيدة بين التلال هدفنا؟"

يشد أحمد على كتفها:

- أم أنها مجرد أطلال مدينة عتيقة مدفونة نهشتها أنياب الاحتلال؟"

دعوني أقول لكم يا أبنائي:

- تلك المدينة لم تكن مجرد مكان... لقد كانت مطرقةً حارقةً أعادت تشكيلنا في قوالب جديدة. جرافات الاحتلال تمتحن الرجال، فمنهم من ارتقى صفائح الدبابات كالأسود، وحوّل عجلاتها إلى قبور لجلاديه. ومنهم من ركع خائفاً، فسحقته أحذيتها الحديدية.

ليكمل البقال الحديث:

- لم تكن معركةً بين جيشين... بل كانت محكاً للرجولة. بعضهم خرج منها كالفحم المتوهج تحت الرماد، والبعض الآخر – أولئك الذين باعوا شرف الوطن بثمن بخس – صاروا مجرد دمىً تتحرك بإرادة المحتل، يلوكون كلام المقاومة بينما هم في الحقيقة حراسٌ لأوهام العاجزين.

قال الأب، وهو يفرك أسنانه بالسواك:

- صاحب القضية يتألم لكنه لا ينكسر. قد يبطئ، أو يخسر جولات، لكنه سيصل. النصر ليس مجانياً.

وقفوا على أطراف المدينة تحت المطر الخفيف الذي نزل دامعاً من السماء على أكتافهم، بينما تسلل إليهم حنين الماضي. تذكروا رحلة الهجرة الأولى بتفاصيل نقوشها الواضحة على الحجر، تلك الساعات الباردة التي حملت في طياتها رائحة الخوف والتراب والدم.

همس البقال في صوته خشونة الأرض وملح الدموع، مناجياً زيتونة الأجداد التي ظلت جذورها تشدّ الأرض إلى صدرها رغم كل شيء. أما الأب فظل يقارع الريح بتساؤلاته المعلّقة:

- متى صار نبل الغاية ساتراً لعورات الوسيلة؟

المدينة شاهدة صامتة على كل هذا، على الألم الذي تشبّث بأضلعهم، وعلى الأمل الذي ظل يتنفس تحت الأنقاض، وعلى ذلك الصراع الأبدي بين إغراء البقاء ونداء الكرامة، صراعٌ لا ينتهي إلا بانتهاء الحياة نفسها.

للأب زاوية نظرٍ مختلفة، مستلهماً قاعدةً طالما رددها عليه معلمه الشيخ ناصر في المدرسة:

- لا تغير نفسك لترضيهم، ولا تبدل نبرتك لتعجبهم. لا تخالف مبدأك لتوافقهم. عش بما يرضي ربك، وقاوم عدوّك بما يحقق هدفك.

توقفوا قليلاً، وأغمضوا أعينهم المتعبة، يستحضرون الذكريات. قال الأب:

- أتذكرها جيداً، مكتوبة على السبورة بطبشور حجارة المدينة.

تمتم أحمد، متأملًا الوجوه المتعبة:

- من قال إن التعليم يُمحى؟ إنه بذرة تنمو مع الزمن إن رويت بالإخلاص.

أما الأب، فيرى التعليم قضية، والمدرسة صناعة إن ارتبطت بالأرض والإنسان. الشيخ ناصر، الذي كان معلماً صغيراً، صار الآن مَعْلَماً كبيراً.

وضرب البقال صدره بقبضة يده، قائلاً:

- لا فائدة من التعليم إن كان القلب أعمى، ولا فائدة من قيادة أفعالها سراب.

تابع الأب حديثه، بينما خطواتهما تتفرق وتبحث على الجدران عن بقايا الماضي، وعن كلمات العزة للشيخ ناصر. فما زالت كلماته محفورة، رغم ضجيج الطفولة وشجارها.

- الإنسان الحي بدينه وعقيدته يملك بوصلة أخلاقية ووطنية، مهما حاولت الظروف التلاعب به.

تذكر الأب حصة في المدرسة، والجميع يسرع إلى الصفوف بانضباط عسكري، ورؤوسهم مرفوعة، تلاميذ تحت قيادة رجل واحد.

المدرسة جمعت خليطاً من رجال اليوم: منهم من استشهد، ومنهم من سُجن، وآخرون ارتقوا مناصب زائفة، تعلموا القراءة والكتابة، ليس فقط اللغة العربية، بل لغة الصمود والمقاومة. تعلموا الحساب بالأرقام، وحساب المواقف. حفظوا الآيات، وصلوا بها نحو الكعبة، وتلَوْها عند الصخرة.

وتذكر كذلك حين طلب مسؤول من الشيخ ناصر الابتعاد عن السياسة في حصصه. لكن الشيخ ناصر لم يكن من نوعية المعلمين الذين يروّضون أو يخنعون. كان يرى السبورة مقاومة، والكتاب سلاحاً. قال للمسؤول:

- إما تخرج المدرسة الطلاب من هاوية الذل، أو تمضي بهم في عالم الأوهام.

لم يفهم المسؤول –كعادة أي مسؤول–، فكتب ملاحظة حرمتهم من معلمهم. لكن كلمات الشيخ ناصر بقيت جداريات مقاومة، تذكرهم بأن الثقة بالنفس ليست إعجاب الناس، بل الإرث الذي يحملونه، وعزيمة الثبات والتحرر. بدا الكلام صعباً على جنى، ويبدو أنهم نسوا أنها طفلة، مع أنهم ما زالوا في بداية المسير ليتدارك الأب الموقف ويصارحهم:

- أنّه كان صعباً عليه وقتها كذلك.

لكن الأمل سينمو بداخلهم، لتكبر بذرة قمح ذهبية، تغذيها الأيام لتتحول إلى قضية تستحق البحث عن نهاية تشرق بالحرية.

في مسيرتهم هذه، يحتاج دخول المدينة إلى أكثر من مجرد معرفة؛ يحتاج إلى أمل لا ينضب، ونضج يثمر حكمة. فالصغار، كما قال لها ذات يوم، هم المستقبل. وهو يرى فيها كلَّ شيء جميل فقده، لكنه يريد أن يعيشه من جديد من خلالهم. الأمل ليس له وحده، بل لكل الوطن. فالطفولة هي التربة التي تصنع فيها الحياة القادمة، وتزدهر. يحاول أن يعلمهم، كما تعلم من أستاذه، مهارات البقاء النظيف:

- "البقاء الذي لا يتنازل عن الكرامة، ولا يخون المبادئ. لأن الأمل الحقيقي لا يبنى على اليأس، بل على إيمان بأن الغد سيأتي بأجنحة جديدة، حتى لو كانت السماء الآن مليئة بالغيوم."

أدار البقال وجهه نحوهم، واقترب من الصغيرة منحنياً لتلامس ركبتاه الأرض متابعاً:

- الأستاذ ناصر كان يقف في طابور الصباح، مؤكداً لنا أنّ الناس تصبح ما تعمل، وما تتربى عليه.

وكان يقول:

- أعرف أنه عندما نبني حياتنا على النزاهة والأخلاق، وحب الوطن بِسُهوُلِهِ وصحرائه وثلوج جليله، وببروده ماء متوسطه، وملوحة بحره الحار، فلا يمكن لشجاعتنا أن تنتهي أو تتوقف، فهناك في المخيم جزء يقاوم، وجزء منهار، وجزء لا يبالي."
- كلهم يا صغيرتي كانوا في المخيم، هل تتخيلين ذلك؟

البقال يحاول الانحناء أكثر؛ ليقطف وردة بيضاء تزاحم حجراً بجانب الطريق؛ لتأخذ مكانها في الأرض؛ ليضعها في خصلات شعرها التي تشبه الشلال.

- إنها تليق بك جداً... هل تقبلينها تاجاً لمسيرنا الطويل؟"

شكرته بفرح غامر، فهي تحب الورد، وتحب الحياة. ولكنها تعلّمت أن الحياة بكرامة لا يتقنها الكثيرون. ذلك ما قاله أبوها. فمنهم من عاش ومات، وهو على سطح الأرض، وآخرون عاشوا في باطنها وهم أحياء.

نهضوا جميعاً يتقدمهم البقال رافعاً رأسه مغطياً جزءاً من عينيه من شمس الخريف المطلة من بين الغيوم السوداء محاولاً رؤية الآخرين على الطريق، فبعد المنعطف القادم الأرض مأسورة بجدار إسمنتي ضخم بناه الاحتلال، وعليه سلم خشبي يتمايل، وبعض الحبال المتدلية التي تكثر فيها العُقد.

وقال معلقاً على المشهد:

- لقد ابتلينا منذ زمن طويل بمعارك جانبية كثيرة.
- فعلاً إن قضيتنا نادرة، قال الأب

وأضاف:

- هل سيدرك هذا الجيل أن التطلع إلى الوراء والاستغراق في دور الضحية لن يخدم قضيتهم؟

الضحية لا تظل كذلك إلى الأبد، بل تنتفض لاسترداد حقها المسلوب. لقد انتفضنا مرات عديدة، بل وقفنا وحدنا في وجه الاحتلال، وأحياناً أخرى انتفضنا ضد من خانوا عهودهم وتخلوا عنا.

في المدرسة، كانوا يحاولون مع رفاقهم المضي قُدماً دون توقف، مركزين جهودهم على إعادة الاعتبار لقيمتهم الوجودية ولقضيتهم العادلة. كل يوم دراسي يختتم بمظاهرة، أو بحرق إطار، أو برفع علم، وكل عام يشهد انتفاضة جديدة.

ولكن مع مطلع التسعينيات، قادتهم قيادة فاشلة، تلاعبت بخطواتهم واستجدت العطف بدلاً من أن تبني القوة. لقد استنزفت الأرض قبل أن تستنزف القلوب والعقول، وأهدرت أيام التخاذل خيرة قادتهم وشبابهم.

ناضلوا بكل ما أوتوا من قوة لتنقل قضيتهم من بيت الأرملة التي تستجدي عطف إخوتها العرب، إلى قلوب الشباب المكافحين الذين يعملون بلا كلل.

يوصيهم أبٌ حكيم ألا يلتفتوا كثيراً إلى الوراء، فمن يتمسك بحقه لا يملك رفاهية الانتظار طويلاً. ويذكرهم بما قاله أستاذهم ذات يوم في حفل تخرجهم من الصف الثالث الإعدادي، حين وقف على تلك القطعة الأسمنتية في طرف الساحة، وبدأ حديثه بكلمات وقفوا أمامها في حيرة عميقة، تاركاً في نفوسهم أثراً لا يُمحى:

- يا طلابي، المحظوظ منكم من تمر دعوة الحق أمام بيته، فهي تسير بلا قيود، تبحث عن القلوب النقية. الاختيار من الله، وكم مرت أمام وجوه عظيمة فلم تلتفت إليهم، سواء كانوا منافقين أو كفاراً أو حتى مسلمين. لا تحاربوها؛ إما أن تركبوا معها، أو دعوها تسير، فهي مأمورة بأمر الله.

دعوة هدمت من أجلها البيوت، وقطعت في طريقها الأشجار، تسير بقدرة الله، ولن يقف في وجهها شيء. تقدمت خطوات وتراجعت أخرى، تبحث عن الثبات واليقين، عن أصالة مكانها وزمانها. دعوها، فهي وعد الله والحق القادم، تستقر في قلوب نقية، شفافة، لا خبيثة ولا مدسوسة.

الأيتام والفقراء والعامة من تبعوها، فهي دعوة الفقراء، اختارت أرض الحرمان والمعوزين. دعوها... فإنها مأمورة بأمر القادر القاهر الناصر المعين.

في جدباء الرمال، وحدباء الأرض، وسطوة الكفر، وخيانة القريب، في حرمان الهجرة والطرد والنكبة، في حصار الشعوب وتجاهلهم، في مطاردة الأحرار وقتل النساء وشبح الشباب... دعوها، فإنها مأمورة.

ليختصر الأب مقولته:

- مسيرة تطوف القلوب والعقول، تفتح آفاق الإخلاص والإقدام، تنادي: يا مسلم، يا عبد الله، ردد ورائي: (اللهم اختر لي).

اختر لي أن أكون مع مسير الحق، مسير الرباط والوفاء، أن أتوشح براية الإسلام، عاملاً له لا عالة عليه، أن أُكبّر مع نداء الحق، فلا صوت أعلى ولا أنقى ولا أبقى من دعوة مأمورة.

ما أروعها من كلمات تلامس القلب وتثير المشاعر نالت إعجاب أحمد، وأثارت أشجانه وابتهاجه، وسحرت جنى محاولةً حفظ ما استطاعت منها. والبقال يُقرُّ تلك الحادثة حيث كان الأستاذ ناصر خطيباً مؤثراً، وكلماته تحفر الصخر قبل القلوب.

تابعوا مسيرهم بعد تلك الوقفة الأدبية التي تركَتْ في النفس أثراً عميقاً، وأحمد يُفصِّل لجنى كلمات الأستاذ ناصر، التي تحمل في طياتها عالماً من المشاعر والأحداث أكبر من عمرها الزمني.

فقد قال لهم أبوهم أمس، وهم يسهرون عند جدتهم:

- إن زمانكم مكتظٌ بالأحداث، مليء بالقلق والترقب، مليء بأشخاص قد لا يشبهونكم رغم قرابتهم بكم.

أحمد وجنى، يعيشان حياة من التساؤلات التي لا تنتهي، وسط زحام الأفكار والمواقف المتقلبة التي تهز المبادئ من جذورها. في كل خطوة يخطونها، يكبر عقلهما قبل أن يكبر عمرهما، ليعود أحمد مرة أخرى إلى التساؤل:

- كيف لهما أن يفهما هذا العالم المعقد؟
- الطيور يا أبنائي ليست دائماً على أشكالها تقع

قالها الأب بصوته الهادئ الحكيم:

- فما بالنا إن كانت صقوراً؟ صحيح أن الحياة أوقعتنا على غير أشكالنا، وأجبرتنا على التعامل مع أشخاص لا يشبهوننا أبداً، لكن الفرق بيننا وبينهم، أنهم يتخبطون في متاهات العمى والاستغفال، بينما نحن نملك البصيرة. والأحمق من يصفق للأحمق، تلك قاعدةٌ تميزنا عنهم، فاحفظوها جيداً.

ليتذكر البقال حديثاً لوالده موجها خطابه لهما:

- أن مشاعرنا الجميلة، وهمومنا الدخيلة تنقر في داخلنا أقوى من نقار الخشب، يوقظنا بنقرات مؤلمة، لكنها تؤسس لشيء ما، لكنه يحفر عظامنا وقلوبنا.

وأطرق قائلاً، وعلامات الأسى ترتسم على ملامحه:

- لقد مات أبي كمداً من خسارة فلسطين وقتها، ولم أفهم ما قاله لي، فاكتشف اليوم أنني أعيشه بتفاصيله.

واصلوا مسيرهم عبر الطريق الوعر، يتبادلون أطراف الحديث وأحياناً الضحكات الخافتة، ففي السفر تصبح الكلمات زاداً يخفف عناء المسافات. الطريق وعر جغرافياً، ويشكل تحدياً، ولكنه ليس الوحيد، بل تلك العوائق البشرية: محبطون يحاولون ثنيهم عن المسير، متسلقون يبحثون عن أكتاف ينهضون عليها، وحاسدون يتربصون بهم عند كل منعطف. كل خطوة تتطلب حذراً في تلك المعركة المصيرية.

عند المنعطف الحاد – ذلك الانحناء المفاجئ الذي يختفي خلفه الأفق – اصطدمت أبصارهم بمشهد مألوف ومؤلم: مجموعة من الناس يتشاجرون بصوت مرتفع، وجوههم محتقنة، وأيديهم تلوح في الهواء أطول من أغصان يابسة تحركها الرياح. توقفت "جنى" الصغيرة لتسمع، عيناها الواسعتان تعكسان دهشتها من هذا العبث الإنساني في مكان يبدو أن الحياة فيه صعبة بما يكفي دون حاجة للصراخ.

- لا تلتفتي يا بُنيتي، ولا تتعجبي"

همس البقال بصوته الخشن، وهو يمسك بيدها الصغيرة ليبتعدوا عن المشهد. بعض الناس يفضلون الصراع على الحل، كما تفضل النار الهشيم على الماء، لأن المسير المقدس، وإسراء محمد –صلى الله عليه وسلم– ليس فيه خلافات بل اطمئنان وتصديق، وسيواصلون تقدمهم لأنهم أقوياء قادرون دائماً على الوصول. ليطمئنها الأب:

- وتأكدي أن من يحاول إسقاطنا هو من أثقله ارتفاعنا، فمثل هؤلاء كثيرون عند المنعطفات، كثيرون عندما تشتد الظروف وتظهر الأزمات.

قدرتهم على تجاوز المحن تبدو معجزة تتكرر كل يوم. في كل التفاتة إلى الوراء يتساءلون بدهشة:

- كيف قطعوا كل هذه المسافة؟ كيف مضوا قدماً رغم كل شيء؟

في تلك اللحظات التي احتبس فيها الزمن داخل جدران المخيم، حين بدا كل منعطف نهاية لا مفر منها، وحين اختنقت آفاقهم بين أسلاكه الشائكة وأحلام المحتل.

أما البقال، فقد اختار الصمت. لم يكن جهلاً بما يحدث، بل شبعاً من مرارة المشهد. لو علم أولئك أن لا أحد سيموت نيابة عنهم، ولا أحد سيحمل عنهم وزر خذلانهم، لربما كتبوا لأنفسهم مساراً مختلفاً.

قال أحمد مخاطباً ظلال الماضي:

- أين اختفى ضميرهم بين زحام المصالح؟"

أجاب الأب بينما يداه تعانقان الهواء، ويتحسس جرحاً قديماً:

- ما زلنا ننتظر صحوة الضمائر، رغم كل ما حملناه في قلوبنا من أحجار الوَجْد. لكن ثمة ما يعيننا على العبور... حلمٌ يتنفس تحت الرماد، أو ذكرى دافئة، أو حتى مجرد بصيص نورٍ يعبر الشارع البعيد

قال البقال وهو يقلب زجاجة ماء في يديه:

- ذات يوم في نادي المخيم مع الشيخ حسن راشد وعبد الرحمن وغيرهم، أدركنا متأخرين أن فصول قضيتنا رمالها متحركة، تتغير مع تقلبات العمر، أو بتغير العالم من حولنا، ووجوه أعداء جدد. لكن الاكتشاف الأقسى حين رأينا هواننا وتقصيرنا في الفصل الأخير من سفر حياتنا.

تحرير أولئك الحمقى من الأغلال التي يقدسونها مهمة مستحيلة، كانوا من الأوائل في نهاية السبعينات، يعودون من غربة دينهم، جادلوهم في ندوات النادي السياسي بين قادة الفكر والمادية، ناقشوهم في حلقات العلمانيين والاشتراكيين، وحتى على أبواب المساجد بعد خطبة الجمعة. لم يستطيعوا نزع فتات الأمل الواهي من بين أنيابهم الصغيرة، تلك المرحلة تحولت من أمل إلى سلطة موبوءة بهم تنضح مكرهة وطنية.

رفضوا الاستسلام وأسر الماضي، وقاوموا الحاضر بقلوب ممزقة بين الشك واليقين، وواجهوا المستقبل بلا خوف. لكنهم أنفقوا من رصيد صبرهم أكثر مما يملكون، ودفعوا الثمن من أعصابهم وقلوبهم حتى بدا لهم أنهم خسروا أنفسهم، قبل أن يخسروا القضية.

أحمد، الذي نضجت رؤيته، قال لأبيه:

- كلامك هذا يطرق أبواب الماضي بقوة، ويفتح نوافذ المستقبل بحكمة.

في طفولته، كان أحمد يقف مطولاً عند زجاج النافذة العتيقة، يرقب كيف يلامس الضباب الزجاج. تارة تهمس قطرات المطر على سطحه، وتارة تضربه عواصف غاضبة بحصى البرد تمطر حجارة. لكن أعز اللحظات عليه عندما يرفع كفيه الصغيرتين الدافئتين نحو الزجاج البارد، فيذوب الضباب تحت أنامله مخلِّفاً وراءه مساحات شفافة تكشف الحارة.

الغريب أن وضوح الرؤية يجلب معه البرد. كلما اتسعت الدائرة الشفافة في الزجاج، تسلل الهواء الجليدي إلى أصابعه المرتعشة. لكنه لم يكف عن المسح، لأن الحقيقة – كما فهم لاحقاً – لا تحتاج إلا لحركة يد صغيرة، ونظرة ثاقبة، وقلب لا يخاف من لسعة البرد.

هكذا كانت قضيته.. وهكذا أراده والده أن يكون كتلك الأصابع الصغيرة التي لا تكلُّ عن مسح الضباب، حتى عندما يعلم أن الوضوح سيجلب له البرد والمسؤولية. لأن الحقائق الكبرى غالباً ما تكون مختبئةً خلف طبقة رقيقة من الغموض، تكفيها لمسة مؤمنٍ ليظهرها.

وقف الأب فجأةً في منتصف الطريق، وأمسك بيد ابنه أحمد، بينما أصابعه ترسم في كفه خطوطاً تشبه تلك النجوم التي يحكي عنها:

- انظر إلى السماء يا بُني.. تماماً كما كان يفعل أحمد مصطفى –رحمه الله–، صديقي الذي سميتك باسمه. كان يقف كل ليلة في زقاقنا الضيق، حيث النجوم – مثل الآن – تتسلل خجلةً بين أسلاك الكهرباء التي تنقل أنيننا إلى العالم.

ضغط على كف ابنه ليزرع فيه تلك الذكريات:

- كان يقول لي: هذه النجوم ليست مجرد نقاط ضوء، بل عيون تراقبنا.. عيون من يستحقون الأمل. وكان يرفع راياته المصنوعة من قماش الأغطية البالية، فيجعلها ترفرف تحت النجوم.

نظر الأب إلى عيني ابنه اللتين تعكسان نور النجوم:

- هل تعلم لماذا سميتُك أحمد؟ لأنني أردتك أن تحمل تلك الشعلة... أن تكون يده وقلبه الذي لم تُمزقه الرايات المزيفة. كلما رأيتُك تمسح الضباب عن النافذة كما كنت تفعل صغيراً، أتذكر كيف كان يمسح اليأس عن قلوبنا.

كانوا يستيقظون على انتفاخ عيونهم من البكاء، لا يُدرى أهو بكاء الألم والقهر، أم دموع الغاز المسيل للدموع الذي يملأ الأجواء. وبيوت الجيران لا ترفض أن تتكئ عليها بيوت الآخرين الممتدة إلى الشارع، تحتضن بعضها في مواجهة العاصفة. أبوابها مفتوحة دائماً لكل هارب من دوريات الاحتلال، قائلة:

- هنا ملجأ، هنا أمان.

في تلك الأرض التي لا تعرف المصالح، كان من يحبهم يبحث عن همّهم قبل مصلحته.

أحمد كان رمزاً لتلك الروح، روح التضحية والإنسانية، التي ترفض أن تتكسر رغم كل المآسي. لقد كان نوراً في ظلام المخيم، وشاهداً على مأساة لم تكن لتُنسى، مأساة تحمل في طياتها قوة الصمود، ونداء الحق الذي لا يخفت.

قال البقال وهو يحدق في عيني أحمد الشاب، يرى فيهما ظل صديقهم الشهيد:

- لقد عرفنا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه... فمنهم من سُجّن جسده فتحررت روحه، ومنهم من استشهد فصار نجماً يهدي أمثالك، ومنهم من أقعده المرض فقامت به القضية.

ثم أومأ نحو الأب بإجلال:

- صدقوا مع أنفسهم كما صدق أبوك معك، فلم يجعل اليأس يتسلل إلى قلبك كما لم يتسلل إلى قلوبهم. أتعلم لماذا بقيت ذكراهم كالنجوم؟ لأنهم مثل أحمد الذي سمّيتَ باسمه، آثروا أن يحرقوا أعمارهم شموعاً تنير الدرب لمن بعدهم.

في ليل المخيم، وعند سكون الأضواء، كانوا يشقون عتمة الليل، منهم مُطارِدٍ لدوريات الاحتلال، ومنهم مناج ربه، وصارخ في ألمه معبراً عن مشاعره، أو فقير يحفر بكلماته ماضي بيارات الوطن السليب، بما فيه من كنوز أو حتى مصائب.

أحمد وهو يتطلع إلى عيني والده الحكيمة:

- هل كان إيمانكم وقتها أقوى من كل الحسابات العقلية؟"

الأب (يمسح بإصبعه على زجاج النافذة المتعرق):

- كما يذوب هذا الضباب تحت الأصابع الصادقة... كان الشيخ يذكرنا كل جمعة – ينظر إلى البقال الذي أومأ موافقاً– الموقف الصعب ليس في مخالفة التيار، بل في الثبات حين يريدونك عارياً من كل سلاح إلا إيمانك".

البقال (يقطع بصوت مبحوح):

- رأيتُ أناساً خلعوا ثوب المقاومة فما عادوا يجدون سوى الندم لباساً. تعلّم يا بني... الحق يحتاج صبر النخلة، جذورٌ ثابتة في الأرض، وسعفٌ يرفرف في السماء، وثمرٌ ينتظر الصابرين.

عند منعطف الطريق الترابي، حيث بدت في الأفق البعيد خيوط شمس الصباح تنسج خيوطها الذهبية فوق غزة البعيدة. أشاح بوجهه نحو البحر الذي يحيط بالمدينة، وقال بصوت يختلط فيه الحزن بالعزيمة:

- هناك.. في تلك البقعة العزيزة التي تقبّلها أمواج البحر دمعاً كل صباح، ويحاول العالم أن ينساها خلف جدران الحصار.. هناك حيث لا يصل إليها إلا نسيم البحر الحزين وحقد المحتل وأعوانه، يقاوم إخوة لنا منذ سبعين عاماً".

يصغي أحمد باهتمام، رأى في عيني أبيه انعكاس أبراج غزة المدمرة وهو يتابع:

- حاصروهم حتى أكلوا ورق الشجر، لكنهم ظلوا صامدين مع زيتون القدس الذي لا تكسره العواصف.. ظلوا جرساً يدوي في ضمير الأمة، وبوصلة تشير دوماً إلى اتجاه القدس.

البقال يصغي، قرع عصاه على الأرض التي اهتزت، وقال:

- غزة.. المختنقة التي تتنفس رغم أنوف المحتلين، المهمشة صارت قبلة الأحرار وصوتهم، غزة المحاصرة تلد الأبطال، رأيتُ منهم صنوفاً – أولئك الذين يحاولون خنقها – يحاولون إطفاء الشمس بنفخة...

أمسك أحمد بيد أبيه المتعبة وسأل:

- فكيف نقاوم ونحن قلة؟"

أجاب الأب بنظرة إلى الأفق نحو غزة:

- بالثبات يا بني.. كما تثبت شجرة اللوز فوق جبال الخليل. جدتك قالت لي يوماً وهي تواجه جنود الاحتلال: 'كل من حاول كسر إرادتنا رحل، وغزة باقية كصخرة في البحر'

أضاف البقال وهو يعدل عمامته:

- بل هي أكثر من صخرة.. هي شعلة في ليل طويل، تذكرنا أن الحق لا يموت.

في يوم ما تناقش الأب مع أخيه الذي يدعوا لقبول الواقع، قال الأب وهو يحدق في استسلامه:

- لا تحاكم قضيتي بعقلك فقط، فإيماني أكبر من حساباتك. قبل أن نرفع الرايات البيضاء، تذكر كم سنة صمدنا؟"

ضحك البقال بمرارة:

- المخيم نفسه معلمٌ يا صديقي، حتى الأميّ هنا يتعلم أن الهزيمة لا تأتي في معركة واحدة، بل في تراكم الخيانات الصغيرة.

أدرك أحمد عند منعطف المدينة حقيقةً مؤلمة، الشمس تشرق أخيراً، والنجوم التي ظنها هداةً لم تكن سوى ذيول لوحوش العالم. نظر إلى البقال الذي همس:

- نعيش تحت احتلالٍ ناعم يتسلل إلى عقولنا قبل أرضنا.

جنى تفرك عينيها المتعبتين وتسأل:

- أبعدت المدينة كثيراً؟"

فأجاب الأب وهو يرفعها على كتفيه:

- ليست المسافة هي المهمة يا صغيرتي، بل الاتجاه. هناك رجالٌ يتأرجحون على كراسيهم، يظنون أن التأرجح سيادة وطنية.

جلسوا قليلاً تحت ظل تلك الزيتونة الرّومية جانب الطريق؛ ليحدثهم أكثر، ويتناولون شيئاً من طعام الزوّادة. وفُتِح الكيسُ البلاستيكي، وفاحت منه رائحة الزعتر وخبز الطابون المبلل بالزيت، وبعض حبات البندورة مجعدة الوجه. ما أجمل أن يتربع الإنسان على العشب الرطب، أن يلامس جسده تراب وطنه. وجنى تحتج بابتسامة:

- بسم الله...ما ألذه من طعام قد مللناه.

أدركوا أنه كلما علا صوت القيادة؛ قَلَّ فعلها، وكلما كثرت الأغاني؛ فاقت الهزائم كل تصور، وبقدر ما يرتفع صوت الزعيم في الأرجاء مناشداً متوسلاً؛ يندفن الشعب في تراب الفقر والمرض والحرمان.

التحرير ليس مسيرة أفراد، بل بناءٌ جماعي.. لا مكان فيه إلا للحجر الصلب الذي يرفع الصرح، لا للصخرة المتكسرة التي تعترض الدرب. قضيتنا – التي أُغمضت عيون العالم عنها طويلاً – صارت كنزاً مدفوناً تحت أنقاض الخيانات، بينما يتنازع اللصوصُ مفاتيحَه.

اتكأ الأب على جذع الشجرة العتيق، يستمد القوة من صلابتها، ثم استعاد صوت والده يتردد في أذنيه صدى من سنوات مضت:

- إن لم يخجلوا من ذلهم، فلا تخف أنت من عزّتك، تذكر دائماً: الثبات ليس خياراً.. إنه في دمائنا، وفي جذورنا كشجر الزيتون. لن يضمن لك البقاء في الموقع الأمامي إلا قدمٌ لا تعرف التراجع، وإرثٌ لا يعترف بالهزيمة.

علّمهم الحاج عبد العزيز الذي كان رجلا للإصلاح أن كرامة الإنسان هي جوهر قيمته. فلا كرامة ولا قيمة لمن يُحرم من حقوقه ووطنه، ولا كرامة لمن يمد يده متوسلاً كل شيء. الكرامة تُبنى بالثبات، وبالتشبث بالحق، وبالإيمان بأن الحرية ليست هبة، بل حقٌ يُنتزع بالعزم والإصرار.

وقال الحاج خليل يوماً، –وهو من مقاتلي الثورة والذي يعرفانه– ويحمل فنجان قهوته مرتعشاً:

- عندما تكون وطنياً بحق، لن تضيع وقتك في محاولة إثبات ذلك أو كتابته في بيانات وجداريات وخطابات سياسية.

بدأت أفهم ارتباط الماضي بالحاضر، وكوني شاباً إلا أنني أصبحت أدرك معاني الكلمات، أصبحت أكبر من بداية مسيرنا بالطريق إلى الآن بسنوات.

- يقولون يا ولدي أنهم يقودوننا نحو الطريق كما يدعون، ونحن لم نشهد سقوط الأندلس ولا هم، ولكنهم ما زالوا يشهدون سقوط العراق وسوريا وأفغانستان أمام أعينهم، فهل سيتعظون؟
- هل تعني يا أبي أننا نعيش في زمان السيء والأسوأ؛ لنتعرف جيداً على النقي الشريف؟
- هي كذلك، فلا تسألوا عن السيء الذي سرّب العقارات مثلاً، بل اسألوا عن الأسوأ الذي سرب الوطن.

والله يا حج –قال البقال–:

- تبقى مشاعر الأنقياء المكبوتة التي لن تموت، إنها في سبات مؤقت على قيد الحياة، وستنفجر لاحقاً بطريقة باسلة. ومن لا يلبي نداء الله لدينه منا، فلن يلبي نداء وطن أو قضية.

- السنون المتكررة والمواقف الخائنة جعلت منّا كتلة واحدة، نلملم بقايا حواراتنا العقيمة لنصهرها في بوتقة الإيمان. نسير اليوم لا لنرضي أحداً إلا خالقاً نعود إليه بحصاد أعمارنا.

أومأ البقال بجدية وهو يضغط على عصاه:

- نخوض الآن سباقاً مع الزمن.. ليس سباقاً على أرض، بل على أرواحنا. كل لبنة تقوى نضعها سداً في وجه الفتنة، وكل شعاع أمل نزرعه في ظلام اليأس، هو خطوة نحو القدس.

التفت الأب نحو المخيم الذي بدأ يتلاشى خلفهم، وقال بصوته الذي يحمل حكمة السنين:

- هنا.. في هذه البقعة التي تطحن الرجال، لا يعود للصراعات الفكرية أو المكاسب الدنيوية معنى. الميزان الوحيد الذي يبقى: كم تحملت من شظف العيش مقابل رضا الرب، وكم بقي في صدرك من إرادة للوصول إلى تلك القبلة البعيدة.

صرخت جنى وهي تشير بإصبعها الصغير نحو الجبل:

- انظروا! الغيوم على الجبل تذوب كالسكر في الماء.

ابتسم الأب وهو يتابع نظراتها البريئة التي تكتشف العالم للمرة الأولى. سحابة الضباب الكثيفة التي أخفت المدينة بأكملها قبل قليل، تتراجع الآن أمام أشعة الشمس كما يتراجع الكذب أمام الحق.

- "الحياة كلها هكذا يا صغيرتي" قال الأب وهو يمسح على رأسها.

- كل شيء سيُكشف يوماً.. العمى الذي يتعامى، والخيانة التي تتخفى، والبطولة التي تتوارى، كلها ستظهر كما تظهر هذه المدينة الآن.

أشار البقال بإصبعه المتشقق نحو الرصيف البعيد حيث مجموعة من الرجال يجلسون كالتماثيل المهشمة:

–انظري جيداً يا جنى.. هؤلاء هم 'أمراء الضباب' الذين باعوا عزتهم مقابل كرسي زائل. جلسوا هناك ينتظرون أن يعود الضباب ليخفي خيباتهم، لكن الشمس لا ترحم.

ظهر لهم ظل من تحت الزيتونة العتيقة.. شيخ تجسد من ضباب الذاكرة. أشيب على كرسيه المتحرك، وقاره منحوتة صبر من زمن النضال. عيناه – اللتان تشبهان نجمتين في سماء غائمة – حملتا كل أسرار الأجيال. عندما همس، اختلط صوته بصوت الريح في الأغصان:

- تعالوا.. اقتربوا يا أبناء فلسطين...

يده المهزوزة تشير إلى الأرض المحروثة، وصوته يزرع فيهم القوة:

- صاحب الرسالة لا يموت.. إنه يتحول إلى شعلة في قلوب الأجيال. أما صاحب المصلحة فسرعان ما يذوب أسرع من الملح في ماء الزمن.

أحمد الذي شعر الحجر في يده يسرد له قصة، سأل:

- كيف نكون من صناع التاريخ لا ضحاياه؟

ابتسم الشيخ ابتسامة تذكّر الأب بكل شهداء الماضي:

- السياسة تترك آثارها أعلاماً وهمية معلقة على البنايات.. لكن المقاومة تنحت مصير الأمم بالصخر..

انطلقت جنى نحو حقل الأزهار:

- السماء.. إنها تغني لنا...

في ذلك المشهد الذي بدا لوحة مقدسة، تذكر البقال المثل الإنجليزي القديم، لكنه حوله إلى سلاح:

- "عندما يظنون أننا نيام.. نكون ننحت الصخر في الظلام...

التفت الشيخ نحو الأفق حيث القدس تنتظر، وعيناه تشعان منارات من إيمان:

- المدينة ليست حجراً ولا شارعاً.. إنها الاختبار الأخير، فإذا دخلتموها اليوم، فاعلموا أن الأقصى ينتظر من يصعد به درجات المجد.

ثم، في لحظة بدت صوت وحي من السماء، ارتفع صوته:

- اسمعوا يا أبناء العروبة والإسلام.. اسمعوا كلمة الحق التي تزلزل الظالمين:

قال تعالى: (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

الـمَمـرُّ

في الممر الضيّق الذي يحمل خطواتك الخفيفة المتردِّدة، تتشابه الأبعاد وتنثني. فالمسافة هنا ليست بحساب الأقدام، بل بحساب الذاكرة. كل خطوة تذكرك بأنَّ الزمن يجري في داخلك، لا حولك.

وإذا بِالممر — ذلك الكائن الصامت — يتحول إلى مرآة عميقة تعكس حيرتك:

- أأنت من يعبره؟ أم هو من يعبرك؟

قد تكتشف أنَّ الحوار الحقيقي ليس بينك وبين نفسك، بل بين الأشياء التي ظننتها صمّاء، الأحداث ولدت من سؤال لاذع:

- ماذا لو استيقظت الأشياء من حولنا فجأة، وتكلمت قائلة:
- خطوة تفصلك عن النهاية.. وألف خطوة تفصلك عن البداية.

الوقت معلَّق بين اليقظة والحلم، يستغرق مروري فيه بضع خطوات، خفيفة مترددة. يتراءى لي ثقيلاً، مكان ناء في حياتي، منعزل عن ضجيج العالم، يعجُّ بحكايات لا تحصى. في داخله، أشعر بأن سلحفاة تحمل بيتها على ظهرها أسرع مني، حتى لو كان بيتاً من الخشب والحجر، فبيتي من الذكريات والأحلام، يرافقني في حِلّي وترحالي، في يقظتي ونومي، وحتى في موتي.

عمري هو عدد المرات التي سلكته فيها، عشرون، ثلاثون، أم خمسون عاماً؟

لا أعلم. لكنني في كل رحلة أردد ترنيمة العبور ذاتها:

- الدرب قصير... لكن الرحلة طويلة...

أمرُّ بجانب المرآة على يميني، وصورتي المعلقة تقابلها. رفيقان في الطريق إلى غرفة نومي. صحيح أن الممر ضيق وقصير، لكن رحلتي تبدو طويلة، فهي سير من النقطة (أ) إلى النقطة (ب)، لكنني أهوم كثيراً في الرحلة. لا أتوه حقيقة، بل أمطُّها قدر الإمكان، أحاول الهروب من خط النهاية. في كل مرة، أحاول مدَّ الدرب أكثر، لأطيل الزمن حتى لا تنتهي الرحلة.

يشحنني ذلك بتوتر مقلق، فأشعل سيجارتي أحياناً، وأنفث قليلاً من الدخان الأزرق. أتأمله وهو يتلاشى في المكان، يتشكل دوائر ومربعات، ثم يرتفع إلى أعلى، متحولاً إلى أطياف مرعبة حول المصباح العابس. أو ربما يتهيأ لي ذلك.

أطفئ السيجارة على السجادة بحركة لا تتغير، بحركة أصبحت جزءاً من طقوسي، الختم الأخير على لحظة عابرة من التأمل والقلق.

- عجباً، لا تشتعل! ولا تخرج دخاناً، هل اعتادت الكيّ مثلي؟

هذا الممر، بضيقه وقصره، يحمل في طياته عالماً من الأسئلة والذكريات. هو ليس مجرد طريق بين غرفتين، بل رحلة داخلية، رحلة تختزل فيها حياتي كلها، خطوة بخطوة، مع كل نفس أطلقه، ومع كل دخان يتلاشى في الهواء. على أي حال، رأيت وجهي اليوم وقد تغير عن أمس. قبل كان مشدوداً بابتهاج يخفي وراءه حزناً بائساً، ظل يرافق عدَّاد السنين الذي لا يتوقف، تماماً كما لا تتوقف طريقة فتح باب غرفة نومي في نهاية الممر.

سأكون وحيداً، رغم الآلاف من حولي، رغم المئات من معارفي، والعشرات من أفراد عائلتي. أعيش داخل نفسي، داخل أحلامي، حيث الأوهام والآمال تُشكِّل لي عالماً يُسلي روحي. أعيش لحظات بهجة، وفرح أحياناً، فأنا لست شقياً مسكيناً، لكنها تبدُّلات الأيام... تلك الأيام التي تأتي، تارة ترفعني إلى أعالي الفرح، وتارة أخرى تلقي بي في أحضان الوحدة.

الحياة ليست سوى رحلة بين هذه اللحظات، رحلة أتعلم فيها أن أحمل وجهي المتغيّر، شاهد صادق على كل ما مرَّ وكل ما سيأتي.

في بداية الممر، تقف مرآة بإطار صلب، معروقة بلون الفضة العتيق، معلقة بخيط قنَّب يبدو من الزمن الممتد. الإطار المستطيل، المصنوع بحرص، قطعة من فن قديم، يقابله إطار بيضاوي من الخشب، مثبت بعناية على الجدار. لقد بهتت ألوانه البنية مع مرور السنين، وذابت زخارفه قليلاً تحت وطأة أعمال مسح الغبار المتكررة. هذا الإطار الخشبي يحبس صورتي في حضنه، يحتفظ بقطعة من روحي في هيئتها القديمة.

أنا هناك، في العشرينات من عمري، اسمي مجرداً من أي لقب، خالياً من أعباء الزمن وتقلباته. الصورة تبدو بوابة إلى ماض لن يعود، لكنه يظل حاضراً في ذاكرتي، شاهد صامت على أيام مليئة بالبراءة والأحلام التي لم تكتمل. كلما مررت بهذا الإطار، أشعره يهمس لي بأسرار قديمة، يحمل شيئاً أكثر من مجرد صورة. ربما هو رمز لذاتي التي تركتها هناك، أو لشخص كُنْتُه قبل أن تثقلني سنوات الحياة.

الإطار ليس مجرد خشب وزجاج، بل نافذة إلى عالم آخر يختزن جزءاً من روحي لا أستطيع استعادته، أعلم أنه موجود، هناك، في تلك الصورة التي تحتفظ بها ذاكرة الخشب والزمن.

عندما أدخل الممرَّ أكون في المركز أو الوسط، أتأمل المشهد قليلاً، ثمّ أسأل نفسي:

- لا تحتفظ المرآة بصورتي، كما يفعل إطار الصُّورة... لماذا؟

فتجيبني هواجسي:

- تصرُّ بإلحاح عليك لتذكرك بالزَّمن السَّريع الذي يمرُّ ولا يحفظ أحداً.
- لماذا لا تحنطني في داخلها بالأمل كما تفعل الصُّورة؟

فتجيبني مرَّة أخرى..

- لا أعلم... أنت تعلم... فالحياة... غير حياتك!

فأحدث نفسي:

- لو كانت تحتفظ بصورة أحد، لاحتفظت بصورة صانعها...

ندان يتقابلان، شاهدان صامتان على مرور الزمن منذ سنوات طويلة. لا أذكر يوماً أنني نظرت إلى الأرض أو إلى السقف خلال مروري هناك، فما أن يلامس كتفي طرف المرآة حتى تتأرجح يميناً ويساراً، تهمس بأسرار لا تقال. يحفر تمايلها هلالاً في جسد الحائط يزداد عمقاً يوماً بعد يوم. جرحٌ صامت في ذاكرة المكان.

كلما استدرت لأتأمل نفسي، تنعكس صورتي في المرآة، حاملة معها بقايا شعري المتساقط، أسناني التي بدأ التسوس يغزوها، وتلك التجاعيد التي ترافقها خطوط الزمن مرسومة على وجهي.

اليوم وجهي مثل حبة ليمون صفراء بدأت تتجعد، مسامها تحمل النمش الأسود، وصدري يبدو ضيقاً أكثر الممر نفسه. فأقول للمرآة الصديقة قديمة:

- يبدو أنه زاد عن الأسبوع الماضي قليلاً فقط... ناصية رأسي زاد تصحرها؛ فبصيلات الشعر تتراجع ميتة.

وأتساءل دائماً عن الهلال المحفور في الحائط:

- هل هو نهاية لشهر مضى، أم بداية لشهر جديد؟

أم رمز لشيء أكبر، شيء يرتبط بالسماء وبأسرارها؟

هل نهاية لمرحلة من حياتي، أم بداية مرحلة أخرى، أكثر اتصالاً بالكون وبما وراءه؟

الهلال بمُنحناه الناعم، يذكرني بأن النهاية تحمل في طياتها بذرة بداية، وكل شيء في هذا العالم يدور في حلقة لا تنتهي، مع دورة القمر نفسه.

أواسي نفسي، لا بدّ من الدَّوران مثل رأس الفِرجار في المكان نفسه لأنظر إلى الصُّورة، دوراني اليومي شكَّل على أرضيَّة السجادة دائرة ذوبان في وبرها، لكن، يجب أن أشحن عواطفي وبهجتي منها:

- هأنذا...

أمد يدي مباشرة إلى مِقبض الباب، أفتحه برويّة، سيكون دخولي للغرفة مع انطباع العشرينات أفضل لنومي وأحلامي...

- تصبحان على خير يا أنا، وأنا...

ثلاثتنا نسكن الممر: أنا، وأنا في المرآة، وآخر قابع بصمت في الصورة، وهو أيضاً أنا! ثلاثة أرواح في جسد واحد، أو ثلاثة وجوه لعملة من نوع فريد، كل يعكس جانباً من حياتي التي تتراقص بين الواقع والذاكرة.

بكل صدق، أخشى التحديق بالأشياء التي أحبها، لا أجرؤ على لمسها. أشباح من ماض لن يعود، أو أحلامٌ يخشى المرء أن تتبدد إذا اقترب منها.

العبور اليومي يشعرني بالكآبة غالباً. أشياء ثابتة لا تتغير، محاصرة في زمن متجمد. السجادة تفترش الأرض. حديقة لا يفارقها الخريف، ألوانها الباهتة تذكّرني بالحياة التي قد تجفّ أحياناً. المصباح الذي كان يوماً ينير الدرب امتلأ غباراً، لقد استسلم لليأس الذي يملأ المكان. الجدران يتقشر طلاؤها، جلد يتساقط من جسد منهك، تاركاً وراءه ندوباً من الزمن.

في الزاوية، يرابط عنكبوت بنيٌّ غامق، محتفظاً بنسيجه المهلهل، حارس لسر قديم. في نسيجه ثلاث مومياوات من الذباب، حنّطها استعداداً للشتاء، رموز لحياة توقفت عن الحركة يجب أن أراها.

باب الغرفة، بصرير مفاصله الذي يزعق من ألم السنين لا يختلف كثيراً عن مفاصلي، ولا يحفظ إلا حركتين: ذاهبٌ وآيب، للداخل والخارج، بوابةٌ بين عالمين.

وما زالت المرآة تتأرجح، وإن بانخفاض في سرعتها، تهمس بأن الزمن يتباطأ، وأن اللعبة التي ألعبها كل يوم تقترب من نهايتها. لكنها في تأرجحها، تبقى رمزاً لشيء أكبر: لاستمرارية الحياة، ولحقيقة أن كل شيء، حتى الثابت، يحمل في طياته حركةً خفية، هواء يلامس الأشياء دون أن نراه:

- تكرار مُملّ، كما قلت... أعيش في لعبة، صوت السّرير، قرقعته من استقبال جسدي لا تتغيّر، حتى رائحة رطوبة الممرّ نفسها لا تتبدّل...

أحادث نفسي بصوت مسموع:

- أنا أثق بهما إن سمعاني مع سكن اللَّيل الَّذي يفرضه علينا جميعاً...

اليوم أنا مُتعب أكثر، يجب أن يرتدي ثلاثتنا لِباس العتمة:

- يا ترى ماذا يفعلان طوال اللّيل والنَّهار؟
- هل بينهما أحاديث خاصة، أو ضحكات سريّة، أم ثمَّة لغة لا أعرفها...

يستغرق استلقائي على السَّرير وقتاً بعد ركض مُضنٍ على حواف الحياة وأحيانا هرولة، وفي أخرى أكون ماشياً، أدرك أن لا جدوى من قطع المسافات ما دامت الذّاكرة مُتعبة وممتلئة، أتقلَّب فيه حتى أتكفَّن بالبطانيّة، أترك للأيام أن تفعل فعلها كما تشاء في تغييري، أتركها؛ عساها تهدأ، فيشعر النَّوم بالأسف على حالي، فيتسلَّل إلى جسدي ليطفأ تفكيري، ينبش في ذاكرتي، يلقي بعضاً منها في سلّة ذاكرتي، ويمسح الآخر، سأنعم بقليل من الرَّاحة قبل أن يبدأ المنبه صراخه.

لا بدَّ أن تنطلق هواجسي في فضاء غرفتي... فالسقف، ورقة نكتب عليها بعيوننا ما نرغب. وما لا نرغب سيمحوه النَّهار فيبدأ الجدال بالخارج:

- المرآة: مرحباً يا صورة... يا أمَّ البدايات والدلال، يا من تحملين فيك شظايا الزمن المنسية.
- الصورة: أهلاً يا مرآة... أخيراً ذهب إلى النوم. ماذا فعلت اليوم؟
- المرآة: لا شيء يُذكر. بقي انعكاسك في داخلي، ظلك لا يفارقني. كل يوم تحاولين أن تكوني أنا، وأحاول أنا أن أحتفظ بأثر منك، لكنني أفشل. أنت الماضي الذي لا أستطيع الإمساك به.
- الصورة: ليتني أستطيع الكلام بصوت يسمعه... أو يستطيع هو أن يستمع لي. إنه يقف بيني وبينك، يا صديقتي المرآة، حاجز من نسيان مقصود.
- المرآة: لو ابتعد قليلاً عن أحدنا، لرأى نفسه السابقة بوضوح في حاضره. لكنه يبقى حائراً، يدور بيننا كعلامة تعجّب معلقة في الهواء!
- الصورة: لكنه يُطيل النظر إليَّ أكثر منك... ربما يحبني أكثر.
- المرآة: أو ربما لا يحبك! قد يكون فقط يداوي خدوش حياته التي يراها في انعكاسي، بينما يقترب منكِ ليهرب من وحدته.
- الصورة: نعم... قد يكون ذلك. لكن وجودي يبقى أثمن ما يملكه، حتى لو لم يدرك ذلك.
- المرآة: رحيله لا يشكّل فرقاً عندي. كثيرون مروا من أمامي... لا أحفظ أحداً منهم، ولن أحفظ. أنا مجرد مرآة، تعكس ما يراه، لا ما يشعر به.
- الصورة: أنت حاضره الذي يملّ منه، بينما أنا ماضيه الذي يتوق إليه.

- المرآة: كلما مرَّ عليه يوم سيء – وما أكثرها – يتمنى وجهك، ليبحث عن شيء ضاع منه.

فجأة، تدخّل الممر بصوته الهادئ العميق:

- الممر: ماذا تتحدثان؟

قالتا معاً بترحاب:

- أهلاً بك يا ممرّنا العزيز... ماذا لديك؟
- الممر: لقد بدت خطواته اليوم أثقل، بطيئة وهادئة، وأكثر قرباً مني. أشعر بوزنه يزداد مع كل خطوة. أنا قلق عليه... لقد أتلف السجادة التي تغطيني، يحاول أن يترك أثراً، أي أثر، حتى لو كان دماراً.
- المرآة: عندما ينظر إلى نفسه من خلالي، أرى بين شفتيه كلاماً كثيراً، لكنه يحبسه. هل يقول لك منه شيء؟
- الممر: لا... فهو لا ينظر إلى قدميه ليراني. يقترب كثيراً، لكنه لم يصل بعد...

قالت الصورة بأسف:

- لا جدوى من قطع المسافات بيننا ما دامت ذاكرته متشعبة... ولا تألف الغياب.
- المرآة: إن وجهي متعب اليوم... قد أطال النظر على غير عادته، فانطبع قليل من أثره عليَّ.
- الممر: تصبحون على خير... ربما يأتي غداً بحكاية جديدة، أو بجرح آخر يضاف إلى جسده.

وهكذا، يبقى الثلاثة: المرآة، والصورة، والممر، في حوار صامت مع الزمن، كلٌّ منهم يحمل سرّاً، وكل منهم ينتظر أن يُكتشف. فسكان الممر مثل جيران بينهم أحاديث لا تعدّ، وقصص خاصة، ولغة لا يعرفها سواهم، ولا يسندني في أيامي سوى هذا التَّفاهم، وتلك المحبة. لكن العنكبوت يبقى دائم الابتسام والترقب، ينسج خيوطه بخبرة صامتة، يعدّ كفناً جديداً لضيف قادم.

في زوايا الممر، تكمن الحشرات المحنطة، ملفوفة في أكفانها الحريرية، رموز صغيرة لمصير لا مفر منه. كل خيط يضيفه تذكير بأن الموت ينسج حدوده حولنا ببطء وصمت.

استيقظت كمن ينهض من قبر من الكوابيس، متلفعاً بغطاء من الكآبة الثقيلة. طنينٌ في أذني اليمنى يتردد صداه بنبوءة غامضة، وارتعاش عيني يُنبئ بأساطير شؤم تلوح في الأفق. جلست على حافة السرير، أحمل رأسي بين يديّ، محاولاً إعادة تدفق الدم إلى دماغي، ليروي ظمأ استيقاظي المفاجئ.

أخذت أفتش في أحلامي، أقلّب صفحات كتاب قديم، باحثاً عن إشارة أو علامة. فأنا لا أخطو الخطوات الكبرى قبل الصغرى، أعلم أن كل خطوة تقودني إلى مصير مجهول، إلى طريق لا أعرف نهايته، لكنني أمضي فيه، حاملاً معي ثقل اليقين بأن شيئاً ما ينتظرني في النهاية، شيء لا أستطيع رؤيته بعد، وأشعر بظله يلوح في الأفق.

- هناك شيء نسيته... سمعته، تخيلته، ما هو يا دماغي؟
- لن أقول لك؟!... خصمك قوي، وأنت أقوى...
- لا مشكلة، كالعادة، يحدث ذلك يومياً، أنسى أحلامي كما أنسى أيامي، النتيجة لا أهمية لها، فهي واضحة كلنا في نفس اللعبة، والأهم:
- كم جولة بقي للعبة؟
- عندما يناديك "الحَكَمُ"...! ستنتهي اللعبة، وتُعلن النتيجة...

انفعالات جميلة باغتتني فجأة، نسمة من أمل في عالم يفتقر إليه. هناك قيمة للحياة، لا بدَّ من شيء جميل يلوح في الأفق. مكوث الروح في مكان ليس لها ليس ضياعاً ولا تعباً، بل ربما يكون استراحة قبل انطلاقٍ جديد.

قررت أن أخرج إلى الممر؛ لأتوضأ، لأصلي الفجر، ولأبحث عن شيء ما قد يلمع في ظلام اليوم الجديد.

لا أسرف في استخدام اللطف والمحبة، فالقسوة قد أطبقت عليَّ مؤخراً، جاعلة من الصعب عليَّ أن أناقش أي اعتراض أو موافقة. لست مُسيَّراً ولا مُخيَّراً، بل تائه بينهما، وبين مظاهر الحياة التي لم تعد تعنيني.

الأشياء متشابهة متماثلة في نظري: النوم كالاستيقاظ، والمشي أخو التوقف، مشاعر ولا مشاعر... الحبُّ مجبول بالنكد، والغنى والفقر صديقان، والصحة والمرض يتناوبان. رفيقان في رحلة واحدة. كلُّها متداخلةٌ، خيوط في نسيج واحد لا يُفكَّك.

بعد ليلة من القلق، وخنق للأعصاب، دخلت المرحاض... أبحث عن شيء قد يغسل أكثر من جسدي، ربما يغسل شيئاً من همومي التي تراكم غبارها على روحي.

- حسناً، لكن، لا تُقفل الباب...
- ماذا تقول يا عقلي؟!
- عندما أتحدَّث، نفّذْ ما أطلبه منك... أنا عقلك المدّبر...
- حسناً، سأبقيه مفتوحاً، ولكن ...
- لا تقلق، استدر لليسار قليلاً، خلفك المِغسلة...
- ماذا يعني خلفي المغسلة...

- لا عليك، استدر حتى يكون ظهرك للباب المفتوح...
- حسناً.... ولكن يا...

انفلات مفاجئ للأعصاب، سدود الصبر قد انهارت تحت وطأة القهر والكتمان. فيضان من المشاعر تتجاوز دموع العين، ليتغلغل في أعماق القلب، سكين غائر في صدر لا يتحمل المزيد.

فسقطت متكوماً على ظهري في الممر خارج المرحاض، شبه عارٍ، طفل ضائع في عالم لا يرحم.

انقلبت الأرض من تحتي، وأصوات تنوح وتصرخ من أعلى، تبتعد في ظلمة حالكة، تختفي في عالم آخر.

وأنا أغوص بعيداً في تلك الظلمة، بعيداً جداً، إلا عن الممر...

عيوني فقط تراه، تشدني نقطة عبور خطيرة، تبدو مختلفة كلياً هذه المرة. سكت دماغي الثقيل، متخلياً عني، تاركاً إياي وحيداً في مواجهة الفراغ.

بقيت تساؤلات مبعثرة معلقة في فضاء الممر، تتجول بلا هدف، أشباح تبحث عن إجابة لن تجدها.

تساؤلات عن الحياة، عن المعنى، عن كل ما فقدناه وما قد نفقده. تساؤلات تلوح في الهواء، تهمس:

- هل من أحد يسمع؟ هل من أحد يهتم؟

لكن الممر يبقى صامتاً، شاهداً على كل شيء، حاملاً في جدرانه صدى آلام لا تحصى، وآمال لم تكتمل.

لقد أكملت المرآة حفر الهلال في جسد الممر... الآن، صورتي تنعكس فيها، لكن متى حدث ذلك؟

كيف اجتمعت صورتاي فيها، بعد سنوات من الفراق؟

وفجأة، سقطت المرآة، تحطمت... كان تأرجحها اليومي يحفر قبري ببطء، يوماً بعد يوم، بينما أنا غافل عن ذلك.

الهلال الذي حفرته المرآة على الحائط لتضعه على قبري لم يكن سوى علامة على نهايتي القادمة، وأنا لم أكن أعلم.

بقيت الصورة معلقة على الجدار، العنكبوت بدأ يحنطها الآن، تحولت إلى ذكرى من الماضي.

- أنا لم أمت بعد!

أردت أن أصرخ، لكن صوتي اختنق في حلقي.

- "أم... رحمني الله..."

همستُ في داخلي، أستجدي رحمة من عالم آخر.

الممر... كم يشبه شيئاً طالما سمعت عنه، وله سقف كذلك. ما هو؟

كيف لم أنتبه طوال هذه السنوات؟

هل هو رحلة حياتي القصيرة، التي لم أدرك معناها إلا الآن؟

السجادة الموحلة البالية... كم حفرت عليها أقدامي سنوات من حياتي. ليتني مهّدتها ونظفتها قبل ذلك، فقد أصبح وجهي ملوثاً منها، وتعكس فوضى حياتي التي لم أنظفها أبداً.

رائحة الرطوبة... كم هي قريبة وقوية، تهمس لي بأن النهاية اقتربت.

لقد هيأ لي القدر ألا ألقي على عقلي النائم مزيداً من الأسئلة. فقط رأيت حقيقة الأشياء، وأنا متورط معها بمشاعري. سأجيب عليها، لكن يجب أن أبتعد قليلاً ...

تدور عيناي في عتمتها، ترتجف رموشها قليلاً.

الأصوات النائحة تقترب من جديد، تصرخ بأسرار الموت.

اخترقت خيوط ضعيفة من نور المصباح حلكة الظلام، بدأت تبدده قليلاً...

لكن النور لم يعد ينتمي إلى هذا العالم.

أشعر بأنني على حافة شيء كبير، شيء لا أعرف كيف أصفه. هل هو الموت؟

أم بداية جديدة في عالم آخر؟

ما أعرفه أنني لم أعد ذلك الشخص الذي كان يسير في هذا الممر يومياً. شيء ما تغير... شيء ما انتهى.

عادت الحياة، وفي وقت أقصر مما أتوقع، عاد الممر بهيئته المعتادة، والمرآة تعكس الصورة من جديد، كأن شيئاً لم يكن. هرب العنكبوت، تاركاً خلفه نسيجه المهلهل وبقي اللحد فارغاً، وبقي الهلال ناقصاً، لم يكمل تأرجح المرآة حفر أطرافه.

أشرت بيدي نحو غرفتي، راغباً في الخروج من هذا الممر، لكن جسدي بارد ويرتعد، ما زال يحمل ذكرى ما حدث.

وفجأة، سمعت صوتاً جهورياً يقتحم الحلقة المضروبة من حولي، قائلاً:

- استيقظ... استيقظ"...

ويكرر النداء في صدري في مساحة صغيرة مليئة بالخيبات، بعد أن كانت في الماضي مكتظة بالحب. لقد تركني أغير حقائقي دون إدراك، لم يسمح لي بممارسة حقي في الحذف أو الاختيار، لكنه سمح لي باختيار نهاية مناسبة لضميري. لم أستطع أن أكذب عليه، فما حدث أبشع ما يمكن أن يحدث لشخص على الإطلاق.

عدت إلى الحياة، استيقظت من حلم طويل. الموت كان وهماً، لكنه ترك فيّ درساً:

الحياة هبة لا تُقدّر بثمن، وكل لحظة فيها فرصة للتغيير، للبدء من جديد.

لا تدع الخيبات تغلق قلبك، ولا تدع الظلام يخفي نور الأمل. فالحياة، رغم كل شيء، تستحق أن تُعاش.

المـوءودة

في زاوية مظلمة من الشارع، ترتعد "ندى" تحت رياح الشتاء القاسية، لكن برود الخارج لا يقارن بجليد قلبها المكسور .دمعة سوداء—ليست من ماء، بل من ذنب لا يغسل—تسيل على وجنتها، تحفر سطوراً أخيرة في قصة حياة لم تكن تريدها. الليل يلفّ المدينة بغطاء ثقيل من الصمت، ويحبس أنفاسه. وتسيل أحزان من أعماق روح منهكة تنزلق على الأسفلت.

تهتز سيارة الشرطة وهي تسير ببطء في الشارع الموحش، تابوت يحمل جثّة براءتها المدمرة. مصابيح الطريق المتقطعة تلعنها بنظرات عابرة، تعاتبها مع كل وميض، توقفت السيارة أمام بوابة السجن، وانفتحت البوابة المعدنية بصوت جاف يقطع صمت الليل، ومن خلفه صوت يقرع غيظاً:

- هل أحضرتم القاتلة؟!

كان الصوت مدوّياً يهزّ أعماقها، ويمزّق ما تبقى من أمل تتشبث به، غريقة تمسك بقطعة خشب متآكلة. في تلك اللحظة، انكشف الاسم الجديد الذي سمعته لأول مرة، طلقة من قاض تخترق صدرها:

- "قاتلة!"..

كلمة واحدة حملت في طياتها ثقل عالم كامل من الاتهامات، أغمضت عينيها بُرْهَة من الزَّمن؛ لتستوعب هولها، تحاول شرحها لنفسها، لكنَّ السَّجانة اختصرت ذلك؛ لترحب بها بطريقتها المعتادة، تمسك بها من كتفها بخشونة وازْدراء، وبصوتها المستنْكِر صاحت فيها:

- انزِلِي يا قاتلة!

سارت الفتاة والسلاسل تلتف حول قدميها، خلخال من نار يكوي مسيرها، كل خطوة تذكرها بسنوات عمرها التي انقضت بأنفاس الحب الضائعة. حتى وقفت أمام زنزانة في نهاية الممر، انغلق الباب خلفها باهتزاز عنيف هزَّ كيانها، والأرض قد ابتلعت آخر بصيص من نور في حياتها.

التصقت بالجدار البارد قرب النافذة المغلقة بالأسلاك الشائكة، بقايا قماش ممزَّق ترفرف في الهواء، شاهد صامت على حريّة ضاعت هناك لمن سبقوها. تلك القطعة الممزَّقة تتمرد مثل روح معلَّقة بين السماء والأرض، تُودّع أحلامهم، وتُحيي ذكرى حرّيات دفنت هنا.

يزحف ليل جديد نحوها لم تعرفه من قبل، ليل بلا أضواء ولا ومضات أمل، ولا حتى همسات رسائل تأتيها كلَّ مساء لتُخفّف من وحدتها، شعرت بأنَّ العالم الذي كانت فيه قد أدار ظهره لها. لم يبق سوى صوت قطرات الماء

المتساقطة من "حنفيّة متكلّسة"، تتناثر مع دموعها التي لا تنتهي، وصوت في أعماقها يعاتبها. أما الندم... فقد صار نبضاً آخر في صدرها، ينزف جرحاً أعمق من أن يندمل، وأقسى من أن يُنسى.

- أنا ندى، عمري عشرون عاماً، وأدرس في الفصل الأخير من الجامعة. والدي بعد تقاعده، يحرس أبواب بيوت الآخرين ليمسك بيتنا من السقوط، وأمي تحتفظ ببقايا صبرها، لترعى بيتنا الذي بدأ يتآكل تحت وطأة الأيام.

ثمَّ انقطع خيط الكلام .لم تعد تجد حروفاً تجيب بها المحقق الذي يقذفها بحجارة متتالية من أسئلته. حتى صراخه الذي اخترق جدار الغرفة لم يعد يصلها.

ففي أعماقها صراخ آخر، صراخ لا صوت له، ألم يصارع حيرة، وخوف يذوب في ندم. تشعر بروحها تقف على حافةِ هاويةٍ سحيقة، بينما العالم من حولها يبدو بارداً، بلا رحمة.

تعود إلى الزنزانة من جديد، يتملَّكها رعب لا يقاوم، خائفة ضعيفة صاكّة أسنانها حتى كادت تتكسّر، تتكوّر حول جسدها المتعب لتعيش الألم وحدها.

تمسح دموعها خلف شاشة هاتفها حينما كانت تخفي الوحدة وراء ضحكات مزيفة تجمع 'إعجابات' فارغة. والآن، كلّ تلك الكلمات والنجومية التي علّقتها على صفحتها الافتراضية، تحوّلت إلى شظايا زجاج تمزق حلقها كلّما حاولت الصراخ.

ندى الجميلة –آخر العنقود كما يقولون– تقول عن نفسها:

- عشت صبية أركض وراء وهم الحرية، أعيش الشباب بكل طيشه، محاصرة بتفاهات، ألبس أحلام غيري بثوب عارٍ من بالأمنيات. وأبتلع وعودهم المغشوشة، ليقتطعوا مني قطعة بعد أخرى.

صعدت مع سلم أكاذيبهم كلَّ يوم، حتى اخترقت سماء خيالي، وصرت نجمة مشهورة في عالم افتراضي لا وجود له، وركبت أفخم السيارات في أحلام لم تكن سوى أوهام.

في الواقع.. كنت مجرد دمية ترقص على خيوط "السوشيال ميديا"، أبني قصوراً من رمل بينما الموج يلفظ جثث الضحايا خلفي، حتى إذا صحوت.. وجدت نفسي جالسة على أطلال ذاتي، أمضغ رماد أمس.. وأستجدي الصدق من قبلات بعتها بثمن بخس.

ندى... دفعت الثمن الأغلى. عاشت في عالم رقمي بلا أسوار، كل شيء فيها مُعرّىً للعابرين. لم يحتج أحد أن يكسر أقفالاً أو يطرق أبواباً، دخلوا حياتها كما يدخل اللصوص إلى بيت مفتوح.

طعامها، شرابها، ملابسها، حتى أحاديث العائلة المسائية – كل شيء أصبح مادة للعرض والتباهي. مع كل منشور وصورة تبيع قطعة من روحها، ومع كل إعجاب تفقد شيئاً من براءتها. ظنّت أنها تزداد جمالاً وانفتاحاً، بينما في الحقيقة تسقط في متاهات مظلمة، تبتعد أكثر فأكثر عن أي حبل نجاة.

تراكمت فوق كتفَيها أخطاء صغيرة تساقطت كحبات المطر، لم تلاحظها أمُّها بين انشغالات الحياة. وخطايا خفية لم يرَها أبوها خلف نظّارته المتعبة. حتى أصبحت هذه الهفوات بحراً من الذنوب، لم تعدْ قادرة على حمله. فسقطت تحت وطأته، وهي تعلم أن كلَّ هذا ثمن لاستسلامها لوحوش العالمِ الافتراضي، ذلك العالم الذي يبتسم بأسنان بيضاء بينما يخفي أنياباً دامية.

العالم الافتراضي قد يبدو برّاقاً، لكنَّ قاعه مظلم، وثمن الضياع فيه قد يكون روحك وكرامتك. يسرق منك قدسية حيائك وخصوصيتك، لا تستسلمي لمن يريدون إغواءك بعيداً عن قيمك وفطرتك.

أطلَّت عليها شمس يوم جديد، ولا تزال تشعر بالبرد الذي اخترق أعماقها. برد لا تذيبه الشمس، لأنه نابع من داخلها، من ندم عميق على ما ضاع منها دون عودة. وتحادثها رفيقتها في الزنزانة:

- من يكشف ستره مرّة، يصبح الكشف عليه عادة سهلة، لن ينسى أبداً بردِ تلك اللحظة التي سلَبَتْه كرامتَه.
- يا رفيقتي، ما كان بلا حق يبقى جرحاً نازفاً في الذاكرة، يذكّرنا بأنَّ بعض اللحظات لا تغتفر، لأنَّ الشمس لم تشرق عليها أبداً، وبقيت تحت جنح ظلام مخادع.

عادت إلى غرفة التحقيق للمرة الثانية، والسجانة تقبض على ذراعها، تحاول أن تضبط ارتجافها وتمنعها من السقوط، وهذه المرة وجدت نفسها أمام محقق مختلف، أكثر هدوءاً وعيناه تحملان عمقاً يخترق ذاكرتها:

- من هو يا ندى؟

رفعت رأسها ببطء واستحياء، تحاول أن تخفي خجلها من نفسها. عيناها المتعبتان تبحثان عن إجابة في الفراغ، وتشير بإصبع مرتعش إلى رأسها، هناك يرقد العقل الذي خانها، عندما أغلق أبواب المنطق والحياء، واستسلم لقلب أعماه بريق الأوهام غاب عن محاكمة حياتها في أشد لحظات عوزها للحكمة.

قد ظنت نفسها قمراً يسبح في مداره، توهجها يخطف الأنظار... لكنها لم تعلم أن الخسوف كان يتربص بها، وأن نورها سينطفئ فجأة، تاركاً وراءه ظلاماً لم تكن تتخيله.، وأنَّ نورها سيطفَأ بغدر لم تتوقَّعه.

تعرفت على (جميل) في أحد المؤتمرات التي رفع فيها شعارات تحرير المرأة، صوته ساحر، وكلماته بلسم يلملم جراح المقهورين.

يتحدث عن "التقاليد البالية" بلسان ملتهب، يدعو إلى التحرر بخطاب يذوب فيه العقل تحت وطأة العاطفة. أحبت كلماته معجبة بذلك النبي الجديد من سلالة "مسيلمة الكذاب"، وبدأت تغرق في بحر وعوده الواسع، بينما يدها تفقد قبضتها شيئاً فشيئاً على حبل النجاة الذي صنعته لها تربية أبيها الحنون وأمها الحكيمة.

يوماً بعد يوم، نمت العلاقة بينهما من مجرد زمالة عابرة إلى صداقة حميمة، ثم إلى حب مشبوه يلفه الضباب. تستمع بوعوده الزوجية، فتبني عليها أحلاماً رملية على شاطئ البحر، غير مدركة أن المد سيعود ليجرف كل شيء.

وفي صباح عادي، بينما كانت تنتظر حافلة الجامعة، فاجأها بدعوة مفاجئة لشرب "النسكافيه" في مقهى قريب. تلك اللحظة التي بدت بريئة، كانت في الحقيقة البوابة التي ستدخل منها إلى جحيمها.

لم تعد الرسائل الليلية الطويلة على مواقع التواصل تكفيهما. حتى الصور التي تبادلاها صارت وقوداً لنار الشهوة. حتى تطبيقات المراسلة ضاقت بهما، فلم تعد الكلمات الرقمية تكفي لعلاقة مبنية على الأكاذيب.

تظن أنها تقيم قصراً من الحب، لكنها في الحقيقة تحفر قبرها بيدها. كل كلمة حب قالها مجرد مسمار في نعش براءتها. كل لقاء جمعهما خطوة أخرى نحو الهاوية. ولم تعلم أن ذلك "النسكافيه" الصباحي سيكون أول خطوة في طريق العار الذي سينتهي بها بين أحضان الموتى الأحياء أولئك الذين باعوا أرواحهم مقابل متعة عابرة.

همس في أذنها بكلمات معسولة، كل جملة منها خيط في شباكه:

- سأعلمك أسرار الموسيقى... نرقص معاً تحت النجوم... سنتجول بين الغابات، نستمع لزقزقة العصافير، وننام على فراش من الزهور.

كان معه الشيطان ينسج خيوطه بمهارة. بينما يده تكتب بسرعة على ورقة ممزقة من دفترها، في حركة مريبة لا تخلو من استعجال. أقنعها بأن ما بينهما "مجرد زواج عرف سريع"، وهمس ببرودة:

- سأتزوجك قريباً... وهذه الورقة ستكون شاهداً على وعدنا...

وهكذا سقطت في الفخ. أصبحت زهرة يداس عليها كلما مر أحد. حاولت أن تقاوم، لكن قلبها الغرير أغلق باب العقل بقوة. تشبث بها كما يتشبث الجائع بلحم طري، بينما هي تغرق في بحر من الوعود الزائفة والأحلام الخادعة.

ثم فجأة انقلب المشهد والسماء بدأ غضبها. تجمعت سحب سوداء ثقيلة، وانهمر المطر بقطرات باردة على جسديهما. يجلسان في الوحل الذي صنعاه بأيديهما، بينما الطبيعة نفسها تبكي على ما فقدته من براءة.

انهارت الحدود بين البراءة والرذيلة، لتجد نفسها وحيدة مع الندم، تائهة بين ذكريات ذلك اليوم الذي سلب منها أكثر من مجرد عذرية، سلب كرامتها، هويتها، وكل ما كانت تؤمن به.

تمر الأيام ثقيلة، بينما قلبها يحمل ساعة انتظار لا تتوقف عن الدق. عيناها المنتفختان اللتان كانتا يوماً نافذة لروح بريئة، أصبحتا الآن كفتيلين محترقين في ظلام دامس.

والخوف... ذلك الوحش القابع في صدرها، ينمو كل يوم، يلتهم ما تبقى من شجاعتها.

وفي حوارها الصامت مع نفسها، تتهاوى الكلمات من سجين مريض:

- لا... لا أستطيع البوح بالحقيقة. من سيصدقني؟ ومن سيقف في وجه تلك الآلة الجبارة من الأكاذيب والوصمة؟

الأيام تدور إلى نهايتها، لتجد نفسها بقيَّة من حظ ملقاة على هامش الانتظار، وحيدة تعيش الغثيان على أطراف نافذة المرحاض، تتقيأ خيباتها فالدنيا حولها تضيق كلَّما تمدد ذلك الكائن الصغير في أحشائها، ضاق جسدها لأنه ينمو بلا استئذان، معلناً قدوم حياة جديدة، منادياً مظاهر الأُمومة أن تتحضَّر وتستعد.

تخاطب نفسها متحسرة:

- هل هرب "جميل" بحجة السفر؟ أَم تعهداته كانت حبراً مسحته قطرات المطر ليلتها...
أم كنت نزوة عابرة ومضت؟!

تفتش في حقيبتها بيد ترتجف، تبحث عن تلك القصاصة الورقية، آخر أثر باق من أوهامها. لكن الورقة لم تعد سوى خرقة بالية، شجرة ميتة قطعت من جذورها وأُلقي بها في العراء.

تتهاوى كل الذكريات الجميلة واحدة تلو الأخرى. تُمسح الرسائل من هاتفها، وتنطفئ الوعود في النهاية. لقد أخذ منها كل شيء، ثم طواها ومزّقها من دفتر مذكراته.

الخوف الآن هو رفيقها الوحيد. الأمل الذي كان يلمع في عينيها صار بعيداً مع أحلامها الغابرة. حتى طعامها صار مر المذاق، وماؤها علق في حلقها أقوى من سُم زعاف. وفي الليل، لا ترافقها سوى الكوابيس التي تعيدها إلى تلك اللحظة المشؤومة.

كانت تنتظر اتصاله بقلب يخفق، تلتقط الهاتف عند أول رنة، متلهفة لتسمع:

- "متى اللقاء؟"

لكن ما تسمعه الآن هو صوت آلي بارد: "لا يمكن الوصول إلى الرقم"...

وحيدة خائفة، حولها كلُّ الأهل والأصدقاء، متعبة مريضة رغم كلّ الدّواء. أفكار حزينة، وأمنيات للموت والانتحار رافقت لياليها.

تحسُّ صدمة في بطنها تعقبها أخرى؛ تتراخى أفكارها قبل قوتها قائلة في نفسها:

- لن تقتلني على كل حال!

جاثمة على البلاط البارد، جسدها يرتعش، فانطلقت أول صرخة للطفل قطعت سكون الليل، شعرت أن الكون كلَّه يتوقف ليرى ما ستفعل. صوته البريء يناديها، يستنجد بشغف الأمومة التي غرستها الفطرة في قلبها، وبالإنسانية التي تخاطب ضميرها.

في تلك الثواني القاتلة، دارت حرب في صدرها، من ناحية، دمها يدعوها أن تحتضن هذا الكائن الضعيف الذي لا ذنب له، ومن ناحية أخرى، نظرات المجتمع القاسية تلوح في مخيلتها فسياطهم جاهزة لجلدها.

بقلب ممزَّق ونظرة جزعة، رأته يبكي، يهدم ترنيمة الطفولة التي تحلم بها. قصص الحنان التي كان يسمعها في رحمها، تتبخّر أمام عينيها، بينما زاد بكاؤه، وينادي:

- أشعر بالبرد يا أمي...

كل قصة حب قرأتها، وأغنية حنان سمعتها، وكل أحلام الأمومة التي راودتها، صارت الآن سخرية قاسية. ذلك المخلوق الصغير الذي يجب أن يكون أغلى ما لديها، أصبح تذكاراً حياً لخطيئتها، وشاهداً على سقوطها.

وفي النهاية... عندما أطبقت يدها على ذلك الجسد الصغير الذي لا حول له ولا قوة، كان الكون كله يحبس أنفاسه. قائلاً:

-"لحظة واحدة فقط ستفصل بين أن تكوني أماً... أو أن تكوني قاتلة".

تجاهلت استعطافاته للحياة، وأخرست صوت الأمومة بداخلها. تهيم في زوايا غرفتها المظلمة، تبحث عن شيء يرشدها، بينما أنينه يزداد في حضنها، وأصابعه الصغيرة تتشبث بردائها، تحاول أن تمسك بأمل ضائع.

في عتمة الليل، بينما الصباح لم يتنفس بعد، ونداءات الفجر إلى الصلاة توقظ الضمائر قبل الأجساد، كانت تصارع شيطان الخوف والعار.

كلمات المؤذن: "الله أكبر" تعلو فوق جلَبةِ لهاثها، لكنها لم تكف لإنقاذها من قرارها القاسي.

تحتضن وليدها، والخوف يطاردها وظل العار لا يفارقها.

دفن العار وتغطية الفضيحة يشغلان تفكيرها المأسور، قادتها قدماها إلى حقل قريب، حيث السنابل الخضراء الطرية، التي تشبه ضفيرتها المعقوصة في شعرها الذهبي. جثت على ركبتيها، لتقيم طقس الوداع الأخير.

نظرت في وجهه الصغير الذي يشبه قطعة خبز طريّة، تأمّلت نظراته الغائرة، وشفتيه المرتجفتين الزرقاوين.

فسمعت صوت القبر الذي حفرته في الأرض قبل قلبها يقول:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

عادت واحتضنت طفلها بقوة، تعاني من رعشة حُمّى، فالفصول الأربعة تناوبت عليها في لحظة واحدة. لم يكن هناك شيء منظّم في تفكيرها، فقط خوف وندم، وألم لا يوصف.

أخفت جسده الصغير في حضنها، ليدفأ قليلاً، لتعيد له من روحها حياة أخرى، ولم تكن تعلم أنَّ برودته ستظل تلاحقها طوال حياتها، فالدفء تسرب من بين برودة أضلاعها يجر نبضه الذي حاولت التمسك به، لتكون ذكرى قاسية عن جريمة لن تغفرها لنفسها أبداً.

لقد دفنتْ معه جزءاً من روحها، في حقل من السنابل الخضراء، التي لم تعد ترى فيها إلا شاهداً على خطيئة لن تغتفر.

عاد بها المحقق هذه المرة إلى زنزانتها بعد منتصفِ الليل، كل خطوة يخطوها تثقل كاهله أكثر من سابقتها.

كان سجله ممتلئاً بعرق متصبّب، فالكلمات التي سمعها تحرق جلده قبل أن تسجّل. خيّمت على ملامحه سحابة من الشفقة والأسى، يحمل في صدره ثقل قصة لم يكن مستعداً لسماعها. عيناه مثل حصاتين في جدول ماء صاف. كلما نظر إلى الفتاة، شعر بأنَّ شيئاً ما في داخله يذوب، برودته التي اعتاد عليها تتحوّل إلى ماء تحت وطأة ما سمع.

رغم جلافة رجال القانون واعتيادهم على سماع أبشع القصص، إلا أنَّ هذه المرّة مختلفة. فالحدث أكبر منه، أكبر من كل ما مرَّ عليه في سنوات عمله.

وقف للحظة أمام باب الزنزانة، يحاول أن يستجمع قواه. يشعر بشيء ما في داخله قد انكسر، شيء لم يكن يعرف أنَّه موجود حتى تلك اللحظة. ربما كانت الإنسانية التي أخفاها طويلًا تحت قناع الصلابة والقسوة.

أغلق الباب ببطء، يخشى أن يصدر صوتاً يزعج صمت الليل. لكنَّ الصمت الذي خيّم على المكان لم يكن سوى وهم، ففي داخله عاصفة من المشاعر تهدد أن تطيح بكل ما اعتاد عليه.

لقد رأى في عينيها طفلاً موءوداً، ورأى في قصتها جرحاً لن يندمل، ليس لها وحدها، بل له أيضاً.

تعود إلى الزَّنزانة لترى روحها تسبقها إليها، الجسد متثاقل بقدميْن خذلتاها. تجرُّ نفسها كمحراث فوق تراب موحل، فلم تعد لديها فكرة عن الزَّمان والمكان، غاب العالم عنها، وتحطَّمت كل الصِّلات، وتسبح في الفراغ واللانهاية؛ لتقع على أرض سجنها الطِّينيِّ هامدة، وروحها ما زالت تلمع في سقف الزّنزانة مثل قنديل باهت.

تفتح عينيها من جديد، فترى والدها يقف عند طرف سريرها في المستشفى، زاد انحناء ظهره، يحمل هموم الدُّنيا فوقه، وأمُّها تتكِئ على كرسي في ناحية الغرفة، وتبدو تجاعيدها قطع زجاج مهشَّم، تحكي قصَّة عُمْرٍ طال فجأة.

- سامحوني، كانت لحظة ضعف تملَّكتني...

يجيبها والدها بِحَنَقٍ ظاهر:

- لقد أكل النَّاس وشربُوا مني!... قالوا فينا أبشع ما يقال...

يحبس دمعة كادت تنزل، يتظاهر بالقوة والجلد، أما أمُّها، فلا تتحدَّث سوى بدموعها ونحيبها...

لقد أدركت ندى للتوِّ أن لا سعادة لها على وجه الأرض، بعد أن لفظها باطنها، وأرسلها إلى المستشفى، لتكون أشد حزناً وسقماً في كل العالم.

وقف الأب أمام ابنته، شجرة عتيقة تحمل أغصان الحكمة، يمسح على شعرها بيده المرتعشة، صوته كان حازماً يقطع الهواء. نظر إليها بعينين تحملان لوعة الأب، وخيبة الحليم، ثم بدأ يخاطب ما تبقّى من روحها:

– يا بنيتي، أتراك تظنين أنَّ الحب يباع في السوق مجاناً، والحياة ستمنحك الورد دون أشواك؟، وهؤلاء الذين أغروك بابتسامات زائفة، هل سيمدون لك أذرع العطف دون مقابل؟ ليسوا سوى ذئاب تلبس جلود الحملان، يزرعون الوعد مع الطحالب لتعيش في برك آسنة، لا تعرف التكاثر إلا على حساب جثث من سبقوك إلى الغرق.

ثم ينحني أمامها متصدعاً، وعيناه تفيضان بالدموع:

- يا بنيتي، جعلت من نفسك بركة مظلمة، محصورة بين أسوار سوداء عالية، حجبت عنك شعاع الشمس كي لا يجفّف أوراقك التي أخذت بالتعفّن.

يرفع رأسه عنها بعيداً، ويهم بالمغادرة:

- ليتني رأيتك قبل أن تحفري بيديك قبر براءتك. كل لقاء مع هذا الماكر كان حفرة تتعمق، كل كذبة قبلها قلبك الطيب منه، كانت حجراً في جدار سجنك.

كل كلمة ينطقها مطرقة تدقُّ على قلبه قبل قلبها، يعلم أنَّ العتاب القاسي هو آخر ما يمكن أن يقدّمه لها لعلّها تستيقظ من غفلتها. صوته يهز جدران الغرفة، وفي الوقت نفسه يحمل في طيّاته دموعاً لم تسقط بعد.
لقد أراد أن تدرك حجم الخطيئة التي ارتكبتها، وأن تعلم أنَّ الحياة ليست برّاقة كما تخيّلت، وأنَّ الحب الحقيقي لا يشترى بكرامة ولا يُستلَبُ بجهل.
أطرقت ندى برأسها، ودموعها الثقيلة تسقط على يدي أبيها. صوتها خرج مكسوراً من قاعِ بئرٍ مظلم:
- أبي... أعرف الآن أنني كنت ساذجة، ظننت أن كل نور هو شمس، فاحترقت بنار أخبث من الجحيم.
انحنت على يديه المتعبين، شفتاها ترتعشان:
- غرقت في بحر أوهامي، وتركت يدك التي كانت تمسك بي منذ الخطوة الأولى. سامحني... لقد دفعت ثمن غفلتي بعمر لن يعود، وقلب لن يشفى.
ثم رفعت عينيها الدامعتين، نظرةٌ فيها كلُّ ندوب الماضي:
- لكنّني أتعلم الآن أن الحب الحقيقي كان هنا... بين جدران بيتنا، في صبر أمي، وفي عينيك اللتين تحملانني حتى وأنا أسقط. سامحني لأنني لم أرَ ذلك إلا بعد أن خسرتُ كلَّ شيء.
وألقتْ بنفسها بين ذراعيه، طفلة ضائعة عادت أخيراً إلى مأواها
- لن أطلب منك أن تنسى، فقط دعني أكون ذلك الجزءِ المكسور الذي تحاول إصلاحه... ربما يوماً ما، نستطيع معاً أن نزرع وردة فوق قبري أنا الأخرى... تلك التي دُفنتْ مع طفلي.
استجمعت الأم شجاعتها، ووقفت أمام ابنتها، عيناها تفيضان بدموع العار المختنقة، تهمس بكلمات تُخرِج روحها معها. تتمتم بصوت مكسور، صدى بعيد يأتي من أعماق قلب مجروح:
- لقد اخترت يا بنيّتي حياة مأهولة بالشياطين، مجبولة بالمعاصي، وصارت مكاناً يحلو لعيشك.
كنت أحرسك بكل ما تبقى من قوتي، وتختبئين بعباءتي عندما تسمعين صوت الرعد، حتى ضعُفتْ حواسي من السهر والخوف عليك. وعندما جاء دورُك لتحفظي نفسك، هويت إلى الحضيض.
عاد صوتها يرتفع شيئاً فشيئاً، يحمل ألماً كتمته طوال سنوات. ثم أضافت بنبرة مليئة بالأسى:
- أصبحت حياتك ممرّات ضيقة كملابسك الفاضحة، حتى الأشواك القصيرة هاجمتك، زيَّنت وجهك بألوان كاذبة، حتى لم أعد أنا أعرفك.
انحنت الأم تلتقط أشلاء كبريائها المبعثر، ثم واصلت بعتاب يذيب الصخر:
- عندما غبت عن حقيقتك، سمَّيت ذلك جمالاً!

كلمات الأم سيف يقطع الهواء، وفي الوقت نفسه تحمل في طيّاتها حباً عميقاً، وألماً لا يوصف. أرادت أن توقظ ابنتها من غفلتها، أن تريها حجم العار الذي جلبته على نفسها وأسرتها، وتذكرها بأنَّ الجمال الحقيقيّ ليس في الألوان الكاذبة، بل في النقاءِ الذي فقدته. فالأم تعاتب، وعتابها يحمل في طيّاته نداء لابنتها كي تعود إلى نفسها، قبل أن تفقد ما تبقّى من كرامتها.

سقطت ندى على ركبتيها أمام أمها، جبهتها تلتصق بالأرض كما لو كانت تحاول الاختباء في تراب الطفولة الضائع. دموعها الساخنة تبلل قدمي أمها، وهي تختنق بثقل الذنب:

- يا أماه... اعفيني من 'بُنيتي'، فلم أعد أستحق هذه الكلمة الحنونة. لقد نزعت عني رداء الحياء ذلك الرداء الذي حاكته يداك بخيوط من نور وفضيلة وارتديت بدله قماشاً رخيصاً ظننته أنوثة، فإذا هو خدعة قذرة.

ورفعت رأسها المنهار، عيناها تعكسان سنوات الضياع:

- تعلمت بالدم أن الأنوثة ليست ألواناً تزول بالماء... ولا جسداً يعرض في الأسواق. الأنوثة – يا أماه – هي ذلك الندى الذي يلمع على زهرة محتشمة، لا يجرؤ أحد على قطفها إلا ببركة الزواج وبيد تحمل خاتم وفاء.

وضغطت على صدرها كما لو كانت تحاول إخراج القلب الأبيض الذي فقدته:

- ظننت أن التحرر أن أخلع حجاب الحياء، فإذا بي أخلع كرامتي قطعة قطعة، ظننت أني أقتني 'الحياة' ببيع عفّتي، فإذا أنا أبيع روحي للشيطان بأبخس الأثمان.

ثم انحنت على يدي أمها المتجعدتين، تقبّلهما بقسوة لتعاقب نفسها:

- سامحيني... لأنني جعلت يديك – التي لم تمسها إلا الطهارة – تلمسان عاري وخزيتي. سامحيني لأنني نسيت أن جمال المرأة ليس فيما تظهره، بل فيما تحرسه في صدرها كالكنز الثمين

وهمست أخيراً بصوت أشبه بأنين المحتضر:

- علميني من جديد يا أماه... كيف تكون الأنوثة؟ كيف أعيد إلى قلبي ذلك الحجاب الأبيض الذي نسجتِهِ لي قبل أن أخلعه بيدي؟ ربما... ربما لو غسلتِ جراحي بدموعك، أستعيد شيئاً من نقاء تلك الطفلة التي ماتت في طريق العودة.

تشعر ندى نفسها خربة مهجورة، بائسة باردة، عاشت مئات الأعوام، وهجرها محبوها بعد أن امتلأت بالشُّقوق، بدت أشبه بأولئك المجرمين في ذاكرة أفلامها، الَّذين مارسُوا كلَّ أنواع الفسق والفُجور والإجرام، فلا وجود في العالم أبشعَ من تلك الصّورة.

في صباح بارد في زنزانة السجن، أشعة الشمس الذهبية تتسلل عبر القضبان الحديدية للنافذة الصغيرة، تتراقص على الأرضية الإسمنتية. ندى تجلس في الزاوية محدقة في الفراغ، يداها ترتجفان حول ركبتيها. أمينة تحمل مصحفاً صغيراً، تتوقف لحظة عند رؤية حال صديقتها. تقترب ببطء وتجثو أمام ندى.

أمينة: (بنبرة حانية) – "نعم.. أحببت كما يحب كل إنسان.. لكني فتحت نوافذ روحي للرياح العاتية.

تمسك أمينة بيد ندى المرتعشة

ندى: (بصوت أجش) – "كنت أظن نفسي أسيرة خلف أسوار بيت أبي...

أمينة: (بينما ترفع يدها لتجفف دموع ندى) – تلك الأسوار كانت حديقة تحميكِ.. لكنهم أقنعوكِ أن الحرية وراءها. كنت أعتقد نفسي أسيرة، عالمي كان مسوَّراً، لكنَّه واسع، هناك من أقنعتني في الجامعة أنَّ ما بعد السُّور عالم آخر، كنت أعيش البراءة والنَّقاء، حتى تسلَّقت يوماً ذاك السور، أصبحت مدمنة مخدرات وكحوليات، لم أشعر بأي تردُّد حينها، مفعمة بالفرح، عشت الشَّوق المحموم مع كل من نفث دُخانه في وجهي.

ندى: – لماذا تخبريني بقصَّتك؟

- أقول لك هذا يا ندى، لأن ما حدث ما كان ينبغي أن يحدث، وكل غواية نعيشها، قابلة للمواجهة، ولكننا لا نستمع إلى الصَّوت الخفيّ في داخلنا، لأنَّنا اعتبرنا أنفسنا منذ الولادة ضحايا مجتمع متخلّف، ولكنَّنا في الحقيقة كنَّا قديسات فيه.

تقود أمينة ندى بلطف إلى حنفية الزنزانة للوضوء، فتقطر دموع ندى مع الماء، وتصطفان لصلاة القيام في زاوية الزنزانة، أمينة تؤم الصلاة بصوت خافت، وفي السجود تسمع أنفاس ندى المضطربة:

- اغفر لي يا رب.. اغفر لي..

أمينة: – تقرأ من المصحف – قال تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ"

بعد الصلاة، تجلسان متقابلتان على الأرض وأمينة تمسك يدي ندى بين يديها وتسمعان صوت مؤذن الفجر البعيد ينادي للصلاة وتشير أمينة إلى النافذة:

- انظري.. ربك يناديكِ من السماء.

ندى: – تغمض عينيها – رب.. ها أنا ذا.. تائبة منكسرة. وقد ناديتني قبل دفن طفلي ولم أجبك... والآن أستجيب لك، فاقبلني مغفرة من عندك...

تمسك أمينة بيد ندى وتضعها على صدرها

أمينة: – هل تشعرين بهذه الطمأنينة؟ إنها بداية طريق العودة.

ندى تبدأ بالتسبيح بصوت خافت: "سبحان الله وبحمده.. سبحان الله العظيم...

تمرُّ الأيام، وتتناوب عليها الزّيارات في سجنها من بعض أقاربها وصديقاتها، في كلِّ مرَّةٍ تشعر كم كانتْ حمقاء، تسمع كلمات العتاب المزيَّنة بالمؤازرة الكاذبة، كمن تسمع عجلات باب جرّار صدئة، تنزلق في قلبها صارخة محاولة فتح شيء في ذاكرتها أغلقته منذ زمن.

كل ليلة، وفي كل شهر، عندما تطل من نافذة السجن إلى السماء، يتحرك في ذاكرتها رماد تلك اللحظات التي أحرقت فيها حياتها، وبقايا ذكريات وكلمات وأفعال، لا يمكنها أن تدافع عن نفسها منها، تستيقظ ووجهها مصبوغ بسواد ذاك الرَّماد، تعاود غسله مستعينة بالله، مهتمة بعبادتها، وتنقية روحها وجسدها، تقاوم وتستنفذ كل طاقتها، تريد إنهاء حياتها المضطربة؛ لتعود إلى الحياة الصافية النقية، فقد كانت هناك نوافذ مغلقة، وبدأت تتفتَّح في تفكيرها... وتقول لرفيقتها أمينة:

- بدأت الحياة تُلوّحُ لي بيدها من خلف الأسلاك، أراها من خلف أهداب عيوني المُوارِبة على كل ضوء، كل دقيقة هنا قرْن من العذاب، رغم أن الاحتفال يقترب.

حلت بشريات عيد الأضحى، تكبيراته محمولة عبر الهواء، تمتزج مع صوت البكاء والنَّحيب في أرجاء السجن، لا طعْم للفرح ولا اللقاء، تفاصيل كثيرة ما زالت تشوّشِ كل فرحة قادمة، تثور المشاعر في كل لحظة انفراد.

- يحتج داخلي، وتتصارع أفكاري، أين ندى الأُولى؟
- أين "جميل" بقبحه ودناءة أفعاله؟

في اليوم التالي، تحضر لها رفيقتها قطعة حلوى ملفوفة بورقة صحيفة يومية، تضعها على طرف السرير، وندى ممددة تراقب السقف، بقع الرطوبة هناك تشبه الغيوم السوداء، التي طبعت حياتها فيما مضى.

تنتفض من فراشها فجأة، صرخة كبيرة تحاول انتزاع حنجرتها رغماً عنها، استفاقَتْ من كابوس، وتريد الصراخ أكثر...

- إنه جميل! ... نعم، إنه هو...

صورته ملطخة مجعدة مطوية في طرفها، وعبارة باللون الأحمر تقول:

- إلقاء القبض على مجرم هارب من العدالة...!

لتكن قصة ندى مرآة ترينا وجه الحقيقة القاسية. أيها الشاب، قبل أن تمد يدك للحرام، توقف واسأل ضميرك كما علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم: أترضى هذا لأمك؟ أتقبله لأختك؟ أتريد لابنتك أن تكون ضحية شهوة عابرة؟

ويا أيتها الفتاة، قبل أن تتنازلي عن دينك وحيائك، تخيلي أمك مكان تلك المرأة المخدوعة، وفكّري في أبيك وهو يذرف دموع العار. إن كل نظرة محرمة، وكل لمسة حرام، وكل علاقة غير شرعية، هي خطوة نحو هاوية لن تخرج منها إلا بالألم والندم.

فكما لا ترضى الفتاة أن تُهان أمها، لا ينبغي أن تهون كرامة غيرها من النساء. وكم من نظرة أورثت حسرة، وكم من كلمة قادت إلى فضيحة، وكم من خطوة كانت بداية النهاية.

فاتقوا الله في أنفسكم، واحفظوا الأعراض، فإن الله كان عليكم رقيباً.

واعلموا أن العفة ستر في الدنيا، ونجاة في الآخرة، وأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته.

اليـد المـرتـجفـة

لم تعد الطفلة ذات السنوات التسع تحتمل ثقل الدنيا على كتفيها الصغيرين. اليتم سكين يجرح قلبها كلما تذكرت دفء أمها، والفقر ظله أسود يلاحقها حتى في أحلامها، والعمل الشاق يحرمها من براءة الطفولة، بينما مرض والدها يذكّرها كل يوم بأنها قد تخسره أيضاً...

تمعن النظر في نافذتها، تظن الكون كله متواطئ ليكسرها. لكنها تقف هناك كل ليلة، تبحث بين قطرات المطر عن ذرة أمل تتمسك بها.

القطرات تتساقط من السماء، تنساب بخفة على زجاج نافذتها، تتراقص على سطحه الضبابي، ترسم لوحة من الذكريات. تمدُّ أصابعها نحو الزجاج، تتبع خطوط الماء المتشابكة، وترى في كل قطرة صورة أمها. تلوّح لها بابتسامة هادئة، تختفي ثم تعود، تلعب معها لعبة الأمسيات البعيدة.

تحاول الإمساك بها، أن تعيدها إليها، فتتبخر بين أناملها. تصرخ باسمها بصوت مبحوح، ممزوج بالدموع، فيأتي صدى همساتها من بعيد:

- الحياة ستسير، يا صغيرتي، حتى لو ثقلت عليك الخطوات. الشقاء قد يسرق منك سنوات، لكنه لن يبقى إلى الأبد. سيأتي يوم ويقفز من نافذة قلبك، ليتركك تعيشين بسلام.

في ليالي الشتاء القاسية، والتي لا تختلف عن ليالي الصيف الخانقة، يخيم الصمت وتتجمد الأنفاس، تلجأ إلى غطائها البالي، ما زالت رائحة أمها عالقة فيه، نداء خافت يطرق ذاكرتها من الماضي. كل خيط فيه يحكي قصة:

- هنا ضمّتني حين ارتعدت من صوت الرعد، وهناك مسحت دموعي حين سقطت من الدرج، وهنا لفّتني بهدوء حين اشتعلت الحمّى في جسدي. أغمض عينيّ، وأحسّ بأناملها الدافئة تمر على شعري، نسيم خفيف من عطفها، تهمس:
- "نامي يا قمر، أنا هنا".

أحياناً تتسلل إلى المطبخ الفارغ، تفتح الخزانة العتيقة، وتبحث عن الكأس الذي كانت تشرب فيه شاي المساء. تضعه على قلبها، وتتخيلها جالسة على الكرسي الخشبي المهترئ، تغني أغنية المهد التي تهدئ روعها. كان صوتها يشبه خرير الماء في الوادي، ناعماً ولا يمل.

الآن صار الوادي جافاً، وصارت الأغنية مجرد صدى وتقول:

- حتى رائحة الخبز المحترق تذكرني بها. كانت تحرق الخبز دائماً لأنها تلهو بقراءة القصص لي، أو تُعلّمني رسم الفراشات على النافذة. كنت أضحك عليها، وهي تقول:
- "الخبز الأسود ألذّ.. لأنّه من صنع أمك...

اليوم، حتى رائحة الخبز الطازج لا تسعدها.. لأنّ يديها ليست هناك لتقدمه لها. في زاوية الغرفة، ما زال الدبّ القطني يجلس وحيداً بانتظارها. كانت تخبئ فيه الحلوى لتجدها عند النوم. الآن لم يعد فيه سوى ثقوب قديمة من فئران هجرت بيتها.

تضمّه إليها وتحاول أن تستنشق عطرها بين قماشه الباهت، لكن ما تتذكره هو صوتها الأخير قبل أن تغيب إلى الأبد:

- "كوني شجاعةً يا بطّلتي"..

تحدث أمها باستمرار وهي تتلوّى من الجوع تحت وطأة البرد:

- يا ليتني أتحرّر من سجن الفقر هذا الذي يجعل حتى الهواء ثقيلاً، فالرصيف الذي أعمل عليه صار ضيقاً، كل حجر فيه يرفض وجودي هناك. صار أكثر رقة من قلوب البشر، إشارة المرور مسرح للمذلّات، بائعون يصرخون، أطفالٌ مثلي يبيعون مناديل ورقية، أصابعهم متورّمة، ووجوههم محترقة، ونساء شاحبات يغسلن زجاج السيارات بينما يصرخ بهنّ السائقون.

أما السوق يا أمي فويلٌ من الجحيم...

- أجساد نحيلة تتدافع، أنفاس ساخنة تتعارك على رغيف خبز ملقى في الوحل. أنظر إلى حذائي الممزّق — الذي كان لك قبل أن تمرضي — فأرى أصبعي الصغير يطلّ مستغيثاً. جسدي صار خريطةً للأوجاع وركبتايَ تنزفان من السقوط المتكرر، ويديَّ تحملان ندوباً من زجاج مهشّم بحثاً عن طعام في طرف القمامة، حتى عيناي لم تعدا تبكيان... جفّتا كبئر مهجور.

وفي الزحام يا أمي، الحياة لا ترحم الصغار...

- مرّةً دهستني عجلات دراجة مسرعة فسقطت، فضحك المارّة من "رَقْصة الفقيرة". ومرّة أخرى سرقوا منّي الخبز الذي وجدته بعد ساعات من الانتظار أمام مخبز، فلم أنطق... فقط ابتلعت صراخي. حتى الكلاب في الشارع تُنْبح لأنّ رائحتي صارت مثلها.

أتعرفين يا أمي ما معنى أن أكون طفلة يتيمة ولا أحد يحميني بعد؟

- أن تري يا أمي أطفالاً آخرين يحملون حقائب المدرسة بينما أنا أحمل قنينة ماء إلى والدي المريض... أن أسمع ضحكات من النوافذ المضيئة وأنا أختبئ تحت الجسر من الريح... أن أحلم بالذهاب إلى الطبيب بينما أسعل دماً في صمت.

كانت أمها، بيديها المجروحتين من خياطة الأثواب ليلاً، وحياكة الصوف نهاراً، تكسب لقمة العيش التي بالكاد تسدُّ رمقهم. وكانت صفاء تبيعها:

- أجرُّ أقدامي الصغيرةِ في الأزقة، أحمل بين ذراعيَّ ثمرةَ كدِّها، أبيعها لأشتري خبزاً يسكت ألم بطني، أو دواء يخفف أنين أبي، فقد أقعده المرض، وصار جسده سجيناً، وروحه مثقلة بالعجز.

أحلامها، تلك الكائنات الهاربة، تلوّح لها من بعيد، تبقى بعيدة المنال، نجوم في سماء لا تملك سلَّماً لتلمسها. حلمها بالعلم، ذلك الشغف الذي يشبه تعلقها بالحياة، تحوَّل إلى أمنية بعيدة بعد رحيل أمها.

- صرتُ كنجمة "بنات النَّعش" في السماء، أحمل على وجهي الصغير سبعة أيام من التعب، كل يوم أثقل من الذي قبله.

الجغرافيا ذلك المحيط الواسع، صار في نظرها سجناً بائساً يحيط ببيتها المتواضع. الأيام تلك النحاتة القاسية، تحفر في ملابسها البالية فجوات من الفقر، يصعب رتقها أو إغلاقها.

وفي طريقها الطويل إلى الحياة، تغوص قدماها في الطين، فتشعر ببرودته تلامس أصابعها، تحاول الإمساك بقدميها، لتبقيها هنا، في هذا العالم الذي سرق منها طفولتها، وتركها تلعب بألعاب وهمية صنعتها من بقايا أحلامها.

كل صباح تسير وحيدة حتى طرف الحيّ، ثم تخطو إلى الشارع المنبسط الذي يقود إلى المدينة. حفرٌ عميقة تخنق جانبيه، جراح الأرض التي تعاني مثلها. خطواتها تترك أثراً على الأرض، لكنها تعلم أن الرياح ستأتي لتمحوها، كما محت كل شيء جميل في حياتها. تمشي مسافة كيلومترين حتى تصل إلى طرف السوق، حيث تملأ الهتافات الهواء:

- ريحاوي يا موز، خليلي يا عنب!
- على السكين يا بطيخ...

تسمع أصوات البائعين تتداخل مع دقات قلبها، وتواصل سيرها، حاملةً أحلامها التي ما زالت حية، رغم كل شيء. وتقول في نفسها:

- يا لها من أهازيج تجمع بين مزاج الفكاهة والقهر والجوع، لعلَّ أحدهم ينادي عليَّ لأتذوق شيئاً منها.

ما إن وصلت إلى السوق، بدأت تبحث عن مكان جديد، ربما يكون أكثر رحمةً من الأماكن التي سبق وأن وقفت فيها. وتتساءل في نفسها:

- أين يمكنني أن أقف اليوم؟ عند باب المسجد؟ أم في زاوية من زوايا السوق؟"

لكن سرعان ما تخيب آمالها، فهي تعلم أن المكان الذي تريده قد يكون محظوراً عليها. تتذكر كيف سرق منها ولدٌ يبيع المحارم مكانها قبل أسبوع، والشرطي عند الإشارة الضوئية قد يطردها أو يحبسها.

فتقرر أن المحطة هي الخيار الأفضل، رغم أنها ليست سوى مكان آخر يغص بالغرباء، الذين لا يرونها إلا ظلاً عابراً.

تظن ببراءة طفولتها، أن كل من يركب سيارة قد يشتري منها "علكة" ليقتل ملل الطريق، فيقتل معه جوعها. فتقضي يومها كله من شروق الشمس حتى حلول الظلام، تقطع الطريق على المارة، فاصلة لطيفة في جملة مكتظة بالكلمات.

تحاول أن تسرق نظراتهم بلمعة عينيها العسليتين، وشعرها الأسود الذي يتدلى على جبينها. تختار كلماتها بعناية، وتعرض بضاعتها بصوت ناعم، تقدم لهم قطعة من طفولتها المدفونة تحت ثقل الحياة.

بعضهم يتوقف، يتأمل، ثم يشتري، شفقتهم هي التي تقودهم. لكن آخرين يمرون بلا اكتراث، فهي مجرد الجزء المعتاد من المشهد اليومي الذي لا يستحق حتى نظرة عطف.

بعد يوم طويل من التعب، تلجأ إلى ركن مظلم في المحطة، تختبئ فيه من خيبتها وحظها العاثر.

- اليوم لم أحقق ما يكفي لشراء الخبز، ولم أستطع أن أسد جوعي، أو جوع أبي الذي ينتظرني في البيت.

تراقب الشمس وهي تختفي خلف الأفق، وهي تهرب منها أيضاً. جوعها يشتد، وأمعاؤها تصرخ بصوت عالٍ، توبخها على فشلها. فتقول لها في همس:

- اليوم لم ينجح الأمر، المارة لم يريدوا شراء العلكة. سنجوع يوماً آخر، لكننا سنبقى هنا، نحاول من جديد.

هذه المرّة لن تستسلم، فكَّرت في تجربة شيء جديد، فرغم تورُّم قدميها، وقد فرغت منهما قوتهما، قرَّرت الحصول على الطعام بأي طريقة، لتطعم والدها بعض اللقيمات؛ توجهت نحو فرن مقابل، فرائحة الخبز تنادي جوعها وتشده.

اقتربت من رفوف الخبز التي تركت لتبرد على الرصيف؛ فنمت براعم خوف مفاجئة في أطرافها، حاولت مدَّ يدها لأخذ رغيف واحد، وبسبب ارتعاد يدها لم تقوَ على ذلك، والتفَّت أصابعها حول نفسها رافضة الاستمرار، فقالت في نفسها:

- لقد تربيت على أن السرقة حرام، لكنني جائعة، حسناً... سأدفع ثمنه غداً.

تكرر المحاولة مرة أخرى، ترفع يدها ببطء أكثر، وفجأة تصلَّبت يدها عن الحركة، وكاد دفْق الدم أن يتوقف عن أصابعها، فقد أصبحت مصفرَّة، رفعت رأسها هُنَيْهَة، تسبقُها عيونها بالاستعلام، فأطلَّ من بين الرفوف رجل ضخم محملقاً فيها، رجل ثلج بدأ بالانصهار أمامها، مُعفَّرٌ بالطَّحين من رأسه حتَّى قدميه، عينُه تلمع مثل البرق، والأُخرى مغطاة بالطَّحين، شعرَت بخوف يحيط بها من كلِّ جانب، وتبدَّد صمت جوعها، واجتاحتها نوبة بكاء صارخ، تملَّكها الرُّعب، وفي محاولة للإفلات من قبضته؛ سحبت يدها من بين أصابعه؛ لترى ذراعها مخطَّطاً بِحُمْرَة، يختلط مع خوفها وألمها، ولكنَّه أعاد الإمساك بكتفها..

- انتظري قليلا يا صغيرتي.... توقَّفي عن الصُّراخ والبكاء.

تكوَّمت على الأرض بجواره، وصراخها الهستيري يُلملِمُ المارَّةَ حَولها:

- أين أنت يا أمي... أمي...

حاول طمأنتها، وإسكات صراخها، قدَّم لها رغيفاً من الخبز، وجفف عرقها المختلط بدموعها بطرف مريوله، ثمَّ همس بصوت رقيق:

- لقد أمسكت يدك لِئلا تحترق!

بدأ السكون يعود إلى قلبها، ابتلعت دموعها، وترفع رأسها مثل وردة تتفتَّح بَتَلاتها، مدت يدها ببطء لأخذ الرَّغيف لكن أصابعها توقفت فجأة. تذكَّرت منديل أمها المطرَّز بأزهار الياسمين، ذلك الذي تلف به الخبز في ليالي الشتاء القارس، حين كانت أمها تهمس:

- الخبز يحفظ بالحب، يا صغيرتي...

لفَّت الرغيف بالمنديل بحرص، كما لو كانت تخبئ فيه أكثر من مجرَّد خبز... تخبئ ذكرى لن تعود. وفي تلك اللحظة قاطعها:

- من أنت، وما اسمك يا صغيرتي الجميلة؟
- صفاء، صفاء يا سيدي، أنا جائعة جداً، وأبي كذلك.

تحملق في وجوه الواقفين حولها، وتقرأ فيها الشفقة، وآخرون تعتليهم نظرة الازدراء والاستغراب، أما الخباز، فقد نفض الطَّحين عن ملابسه، وأحضر كرسيّين من القش، جلس مقابلها بعد أن أجلسها، وأحضر فطيرة لحم كان خبزها، وقدمها لها لأكلها متى شاءت، قائلاً:

- حدثيني عن أبيك، عن أسرتك؟

بدأت تروي حكايتها البسيطة مثل عمرها، تنبش في ماضيها الموجع، وغمغمت كلماتها بالدُّموع حين قالت:

- وماتت أمّي بعد ذلك، تركتنا أنا وأبي وحيدين في البيت، ثم تَرَكْتُ المدرسة لأعمل...
هذا كلُّ شيء يا عم...

كانت المفاجأة مدهشة له، هو يعرف والدها، فقد عمل عنده مدَّة من الزَّمن، وتذكَّر فرحته عندما ولدت، وفرحه معه؛ مما أيقظ تعاطفه معها.

أمسك بيدها، وبالأخرى فطائر متنوِّعة، توجها إلى البيت، فأوقف سيارته في باحته، بدأ يتأمل نوافذه المغلقة على الحياة، والسكون يسود المكان، وجدرانه المشقَّقة تروي جراح ساكنيه، دخلا البيت، وهو يربِّت على كتفها قائلاً:

- لن أؤذيك، سأرعاك.

تقدم الخباز نحو أبيها، كان في غرفته متربعاً في قلب سريره، كومة من الأحزان أخف منه، وبالأَنين ينادي، السّتار البنيُّ مُسدل على نافذة وحيدة، بجانبها غُرِسَ وتدٌ في أحد الشقوق معلق عليه كيس من خيش، فيه بقايا طعام تعافها النفوس، تأمل البيت، فجدرانه عارية لا تنتظر ضيفاً، ولم يجد في زواياه إلا نسيج العناكب، والفئران هجرته منذ مدة؛ بدا كئيباً مظلماً لا حياة فيه.

بعد جلوس الخباز على حافة السرير، التقط أنفاسه بعمق، يحاول استعادة شجاعة ضائعة. نظر إلى والد صفاء بعينين تائقتين بين الندم وبعض المكابرة، بينما أصابعه تتشابك وتنفك، يحاول عجين كمات لم تعجن بعد.
الخباز بصوته الأجش، ولكنه يحمل طبقات من الذنب:

- أتعرفني حقاً يا حسن؟ بعد كل هذه السنوات"...

والدها يحني رأسه، غصن مكسور من علاقة قديمة كانا فيها مثل الأخوة، لكن صوته يحمل الكبرياء:

- كيف لا أعرفك؟ ... كنت أرى وجهك في كوابيسي كل ليلة. أسمع صوتك يهمس للزبائن: 'هذا لص!' بينما يديّ تغرقان في العجين مثل أيامنا الأولى...

صفاء تضغط على يدي أبيها لتمنعه من الانفجار:

- أبي... أرجوك لا تغضب، ستتعب أكثر.

ينظر إلى ابنته ثم ينفجر فجأة، يضرب صدره بقبضة مترددة:

- أنا... أنا من يجب أن يغضب، لقد سرقت رزقك؟!، وهل أنا من حولت طفلة بريئة إلى متسولة؟!

وينظر إليه وتشتعل عيونه ألماً وغضباً:

- أتذكر يوم علمتك سرّ الخميرة الباردة؟ كنت تبتسم كمن وجد كنزاً... أما أنا فكنت أخبئ السم في العسل؟!

بدأ والدها يسعل دماً في منديل، ثم يرفع عينيه بتحد مفاجئ:

- كنت تخاف أن أتفوق عليك... لكنك نسيت أننا أصدقاء قبل أن نكون خصمين.

الخباز ينهار داخلياً، صوته يهتز في عاصفة كلام والدها:

- نعم... وخان الصديق أخاه! –يمسك بيد والدها فجأة– والآن ها أنا ذا... أرى ما فعلته بك... وبها –يشير إلى صفاء– لو عاد الزمن... لكنّ الدم الذي تسعلونه لا يعود إلى الصدر.

تتدخل صفاء من جديد ببراءة لتقطع التوتر بينهما:

- عمي أكرم... هل ستصنع لنا خبزاً بالزعتر كما كنت تفعل قديماً؟

ينفجر الخباز ببكاء غليظ، ينحني أمام السرير مستجدياً العفو:

- سأصلح أكثر من ذلك... سأعيد لك أباك كما كان، سأُدخلك المدرسة يا صغيرتي ثم الجامعة، سأجعل بيتي بيتك الثاني... لكن هل تستطيعون أن تسامحوا شيخاً غبياً ظنّ أن الكرامة تسرق مثل رغيف خبز؟

يمسك والدها بكتف الخباز، عيناه تلمعان بتوق قديم:

- الكرامة لا تسرق... لكنها تهشم حين ننسى أننا خلقنا من نفس الطين..

كان والدها يتحدث عنه، ينظر إلى صورة أخرى في بركة ماء صافية. تلك الصورة تتمايل، تحاول أن تثبت على هيئة واحدة، لكنها لم تستطع.

جاء الخباز وزوجته في صباح اليوم التالي، لم تكن صفاء تتخيل ذلك إلا في أحلامها. فقد حملت زوجة الخباز بين يديها سلة خيزران مليئة بالخبز الدافئ، رائحته تفوح من ذكريات جميلة عادت فجأة. بينما الخباز "أكرم" يحمل صندوقاً كبيراً.

- عمتي... هذا... هذا كثير جداً..

تحتضنها زوجة الخباز قبل أن تكمل، دموعها تسقط على كتفي الطفلة:

- بل هو قليل يا حبيبتي... قليل جداً مقابل ما فعلناه.

دخل الخباز وزوجته البيت، فاستقبلتهما بابتسامة عريضة، والفرحة ولدت من جديد على وجنتيها، فبدت محمرة ضاحكة.

- تفضل يا عم أكرم... أهلا بكما.

أما والد صفاء، فقد بقي جالساً في زاوية الغرفة، عيناه لا تفارقان الخباز. ابتسامته خفيفة، موجودة لكنها غير مكتملة. يشك في أن هذه اللحظة قد تذوب في الماء، لكنه رأى شيئاً جديداً في عيني صديقه القديم: خوفاً حقيقياً من أن يُرفَض.

الخباز يضع الصندوق أمام الأب، يفتحه بيدين ترتجفان كأوراق الخريف:

- هذه أدوات المخبز الخاصة بك يا حسن... احتفظت بها كل هذه السنين. كنت أقول لنفسي إنني أصلح لها... لكن الحقيقة أنني كنت أخاف أن تلمسها يدي فتُحرقني.

تتقدم زوجة الخباز بخطوة، صوتها حازمٌ وحنون:

- لقد عاقب نفسه كل يوم يا أخ حسن. كان يصرخ في نومه: 'اغفروا لي!'... وأنا... –تتردد– أنا كنتُ شريكة في ذنبه حين سكتُّ.

يمرر الأب أصابعه على مقبض سكّين الخبز القديم في الصندوق، ثم يرفع عينيه نحو الخباز:

- لماذا الآن يا أكرم؟ بعد كل هذا العمر الضائع؟

ينزل الخباز على ركبتيه فجأة، جسده انكسر أخيراً:

- لأن هذه الطفلة –يشير إلى صفاء– جاءت إلى مخبزي يوماً... نظرت إليّ وكنت في عيونها البريئة وحشاً، ثم سألتني:

- لماذا تبكي يا عم، وأنت تأكل خبزاً دافئاً؟

في تلك اللحظة عرفت أن الله أرسلها لتكسر جدار قلبي

تبسم الخباز، ثم ضمّ صفاء إلى صدره. بينما همست زوجته بصوت خافت:

- كم تمنيت أن يكون لي طفلة أرعاها.

فضم الخباز زوجته إلى صدره، فشعرت بدفء دموعه تسقط على شعرها. همست في أذنه بصوت يكاد يختنق:

- ربما كان حرماننا من الأطفال عقاباً على ما فعلناه... لكن اليوم، كأن الله منحنا فرصة ثانية..

أحكم الخباز حضنه حولها، بينما نظر إلى صفاء وهي تلعب بالأكياس الجديدة في السلة، تحاول معرفة محتوياتها. في تلك اللحظة، شعر أن قلبه المليء بالندوب بدأ يلتئم أخيراً.

ثم قال لها بجفاوة:

– انظري ماذا أحضرت لك.

وضع أمامها كومة من الأكياس، فبدأت تفتحها بفضول، وتثير ضجة من الضحك، وتتراقص حولها ممسكة بيد زوجته، فأحلامها بدأت تتحول إلى حقيقة. جلسا بجانبها، وبدآ يعدّدان ما أحضراه:

- هنا فستان أحمر مع قبعة صفراء، وتلك دمية صوفية، وهذا حذاء للبيت، وآخر للمشي، وأشياء كثيرة.

ثم سأل الخباز:

- أين ذهب والدك؟

نظرت بدهشة نحو غرفته، وهي تحمل الهدايا، فعاد الحزن إلى عيونها، وقالت بصوت مشفق:

- لم تحضرا شيئاً لأبي؟!

نظرت إليها زوجته وقالت:

- لقد حضرنا لنكون معاً عائلة واحدة.

دخل الجميع غرفة والدها، بينما انشغلت زوجة الخباز بترتيب الغرفة. ثم خرجت مع صفاء، وبدأتا بإعداد طعام الغداء، بينما بقي الصديقان القديمان يتحدثان في شؤون العمل والحياة.

وفي لحظة صمت، قال الخباز وهو يقبض راحتي يديه ثم يبسطهما، يحاول أن يمسك بشيء غير ملموس:

- أعلم يا صديقي أنني ظلمتك، وظلمت نفسي. وأرجو أن تسمح لي بالتكفير عن خطئي بحقكم جميعاً.

فأجاب والدها بهدوء:

- لا بأس، ولكن عليك أن تعلم أن صفاء هي كل حياتي.

والدها يعلم أن داخل الخباز روحاً مهووسة، تسكنه وتدفعه دائماً نحو التملك. لم يكن قادراً على التحكم فيها، ولا على شفائها. كل ما كان بوسعه هو الصمت والمراقبة، على أمل أن تتبدد شكوكه، وأن تهدأ ظنونه.

وضع يده تحت يد الخباز، ليس لأنه وثق به تماماً، بل لأنه أراد أن يحميها من مخاطر بيع العلكة في الشوارع. ذلك اليوم شكّل بداية جديدة، ليس فقط لهما، بل للخباز أيضاً، الذي بدأ يبحث عن التوبة في عيون طفلة لم تكن تعرف إلا الصبر والأمل.

- سأعيدها إلى المدرسة، وسأتكفَّل بما تحتاجه... ولك العلاج والطعام.

أمسك الأب لسانه عن الكلام بُرهة من الزَّمن، وأزاح يده من تحت يد الخبَّاز، وتأمل غرفته، وتحسَّس جسده السَّاكن، وبكلمات بطيئة قال:

- يمكنني القبول بذلك، لنجرّب كيف سنكون معاً من جديد.

ويبادرها بالبشرى:

- ستذهبين إلى المدرسة، وستتوقفين عن بيع العلكة.

وقال الخبّاز:

- وأنت يا زوجتي عليك الاهتمام بها، والبيت سنحضر خادمة له في أقرب وقت.

والدها يأمل أن تتغيَّر حياتها، وأن تعيش مثل أي طفلة، فالمرض والعجز والأحزان سمحت للخبَّاز بالدُّخول من فوق عتبة اليأس في حياتنا.

يراقب أبوها كل ذلك بلا تأثُّر عاطفي، ويرقب تبدل الأيام، وقد كان بمقدوره الانتظار يوماً دون رؤيتها، وأصبحت أسبوعاً ثم صارت شهراً، والشَّوق يتمدَّد أكثر، وبدأت تتشكَّل في عقله أفكار ضخمة ومزعجة، وعزَّ في نفسه تبدل الحال، ويقول:

- من يدري، لعلَّها سعيدة جداً في حياتها، وما حاجتها لتضع طموحها بجانب همومي وضعفي.

في بيت الخباز، وجدت الفتاة الصغيرة أكثر من سقف يحميها من الفقر؛ وجدت عائلة جديدة تفتح ذراعيها بقلوب دافئة. الخباز وزوجته التي عانت مرارة العقم، نظرا إليها هدية من السماء، فأغدقا عليها من الحنان ما جعل جراح طفولتها تلتئم شيئاً فشيئاً.

لم تكن رعايتهما مجرد إعالة، بل كانت احتضاناً لطموحها وطفولتها وشبابها؛ فساعداها في دراستها، وشجعا مواهبها، وشاركاها لحظات انتصارها الصغيرة كأي أب وأم فخورين.

لم تكن صفاء لتترك كلّ شيء وراءها، فقد كان سعيها لتجاوز طفولتها يطغى على تفكيرها، وتهرب من شيء ظلَّ يلاحقها حتى بعد انتقالها المتقطع للعيش في بيت الخبَّاز، فقالت لأبيها:

- ليس الهرب من الفقر أسعد الحلول، وسأعود إليك أفضل حالاً مما كنت في طفولتي.

ظل أبوها يراقب من بعيد بقلب يمتزج فيه الشوق بالحيرة، فقد لاحظ كيف نضجت ابنته بين الحين والآخر في زياراتها الخاطفة. كان يراها تزهر، ترويها عاطفة زوجة الخباز التي عوضتها عن غياب الأم، ويحميها دفء الخباز الذي لم يبخل عليها بالنصح أو الدعم.

ومع كل نجاح تحققه صفاء، من تفوقها المدرسي إلى مشاركتها في المسابقات الأدبية، والنشاطات المجتمعية، كان الأب يبتسم في صمت، ممتناً للقدر الذي منحها فرصة لم يستطع هو تقديمها، لكن غصة الغربة تعود إليه كلما رآها تندمج أكثر في حياتها الجديدة.

لكن صفاء، على الرغم من كل ما أعطاها إياه بيت الخباز، لم تنسَ قط ذلك الوعد الذي قطعته على نفسها يوم تركت منزل أبيها. ظلت تحمل في قلبها جذوة تلك الطفلة التي تعهدت أن تعود إليه يوماً، لا باليد الفارغة، بل بقوة قادرة على تغيير مصيرهما معاً.

والآن وقد وقفت على أبواب الجامعة، تعلم أن الرحلة الطويلة التي بدأت بالهروب من الفقر ستصل إلى محطتها الأخيرة في العودة.

تضاعفت التَّجاعيد في وجه أبيها عاماً بعد عام، وفي صباح يوم صيفي لمحها من شباك الغرفة، فقد أصبحت شابَّة يافعة، ترتدي زيَّ التَّخرج، تجري نحوه مسرعة.

فقال لها:

- أنت تشبهين سيدة أعرفها من الماضي القريب، فخطواتك تدق أبواب سنوات مضت؛ لتوقظ فيّ ذكريات غطتها الأيام.

لقد كانت تشبه أمها، وهذا ما قرأته في عيونه الدّامعة شوقاً لها، أو فرحاً بها، وانكبت في حضنه باكية، ثمَّ تنفَّست بعمق قائلة:

- اليوم يا أبي، نعم، اليوم حفل تخرجي في الجامعة، وجئت لاصطحابك للحضور، ومعي عمي الخبّاز وزوجته، وسألقي كلمة الخريجين.

فاض الدَّمع في عيون الجميع، وانطلقا في السيارة، وقد دُفنت كل الحفر في الشَّارع، وجفَّ الطِّين على آثار خطوات طفلة مرَّت من هنا.

تمسك بيد والدها، وأصابعها بدأت تتقلَّص حول نفسها، فكوَّمتها في قبضتها، وتستمد شجاعتها من عيون أبيها، وقف الجميع عند باب قاعة الجامعة، وأشعة الشمس الأخيرة تلمع على لوحة كتب عليها أصدقاؤها في الجامعة: "كل الحفر في طريقك كانت مجرد قالب لصب أساساتك"

مدت صفاء يدها لتمسك يد والدها المهتزة، لكنها هذه المرة لم تكن من الخوف، بل من فرط الفرح. وقفت على المنصة، وأخرجت من حقيبتها رغيف خبز يابساً ملفوفاً بمنديل قديم مطرز. رفعته عالياً بيد، وورقة التخرج باليد الأخرى، ثم بدأت كلمتها بصوت هادئ:

- هذا الرغيف كان أول شيء حاولت سرقته في حياتي. احتفظت به سنوات تذكاراً على جوعي، وها أنا اليوم أكشفه لكم شهادة على أن الجوع لا يقتل الأحلام. لقد علمتني أمي أن أجمل أنواع الخبز هو ذلك الذي نعجنه من ألمنا، ونخبزه بصبرنا، ونحفظه بالحب...

أبي... كنت الساق التي سندتني حين تعثرت، وعمي أكرم اليد التي مدت لي رغيف الخبز أولاً، ثم علمتني كيف أصنع رغيفي بكرامتي، وأمي الغائبة كانت الظل الذي دفعني لأبحث عن النور.

اليوم، بينما أرى دموعكم تروي أرضاً جفت من سنوات، أذكركم بقول أبي لي:

- الحياة مثل العجين يا صغيرتي... كلما عجناه بأيد متشققة، كان خبزنا أكثر دفئاً.

فشكراً لكل يد ساعدتني ولكل جرح علمني، فاليوم لم أنتصر على الفقر، بل انتزعت من جوعي قوة، ومن فقري إنسانية، ومن دموعي بذوراً لشجرة ظل سنزرعها لكل طفل جاع مثلي.

ثم أمسكت بمطرقة صغيرة وكسرت الرغيف اليابس فوق منصة التخرج، فتحول إلى فتات تهافت عليه حمام الجامعة الأبيض.

قائلة بصوت صارخ:

- لن يكون في مدينتا جوع بعد اليوم.

الزِّيارة

هكذا تهمس الجدران حين تمر بها، وتغمغم الأرض تحت أقدامنا كلما سار طفل حاملاً اسم أبيه إلى السجن. يقول:

- أنا لست راوية... أنا مجرد صمت رأت أكثر مما يحتمل، قد أكون النافذة التي شهدت دموع الأمهات تتساقط على عتبات البيوت أو الصراخ الذي بقي وحيداً عند الباب حين اقتادوهم بعيداً، أو قد أكون الزمن نفسه الذي يتوقف كل ليلة عند نفس اللحظة، حين يطرق الباب بذلك الأسلوبِ العنيف الذي لا يخطئه قلب فلسطيني.

  بل ربما أكون الضوء الخافت في زنزانة أبي الذي يحاول أن يقرأ رسوماتي بقبضته المكبلة، أو الظلَّ الذي تركه الجدار. واحتضنت جدتي الهواء مكانه.

لكنني في النهاية مجرد صدى لطفلة تنتظر من يسمعها.

في هذه البلاد، لا أحتاج إلى من يكتب قصتي، فكل حصاة داسها الجنود تحمل ألف رواية، وكل طفل منا يعرف أن الحروف تولد في سجون الاحتلال قبل أن تولد في الكتب.

أنظروا إلي وأنا أمشي أحمل العالم على ظهري... وأسأل:

- لماذا أبي ليس بين ذراعي؟

والسؤال نفسه يولد من رحم الجدار العازل، من خلف الزنازين، من تحت أنقاض البيوت.

الليل هنا ليس ليلاً عادياً... كائن أسود يخرج من جيوب الجنود، يزحف على بطنه، يدخل بيوتنا من ثقوب الخوف.

لكن أكثر قسوة عشتها أن بعض الظلال التي تتناوب معهم نعرفها جيداً، نراها جميعاً تلبس وجوهاً بشرية في النهار، ثم تخلعها عند منتصف الليل لتصبح أسناناً في فكِّ الوحش.

في فلسطين، حتى الحروف تسجن، والكلمات تُقيَّد بالأغلال. ولدت وفي عيني ألف سؤال عن أبي خلف القضبان، وعن وطن محاصر بالأسلاك والأسوار والبوابات. فلسطينية تحمل في صدرها قصص اعتقال والدها، كل عائلة لها شهيد أو أسير أو منزل مهدم. وأنا ما زلت أتوه في تساؤلاتي.

اعتقلوا ذكرياتي قبل أبي، وحاكموا أحلامي قبل صاحبتها، ولدت وفي قلبي السؤال الأقوى:

- لماذا تسبق القيود إلى يدي قبل أحضان أبي؟

أسير بهذا السؤال في شوارع الوطن الملغمة بالخوف، أمرُّ على جدران المدرسة التي تحمل أسماء الشهداء، وأنظر بقلبي إلى سجن بعيد حيث يمسك أبي يديه خلف ظهره، ويحلم بلحظة واحدة يمسك فيها بي.

هذه ليست مجرد زيارة، بل هي واقع يعيشه آلاف الأطفال الذين يزورون آباءهم خلف القضبان، يحملون لهم حناناً لا يسجن، وذكريات لا تقبل التقييد.

تلك الزيارة قد تكون آخر حرية باقية لنا، كما لو أنها صرخة في وجه عالم صمت عن الظلم. لأن في فلسطين، حتى الدموع ممنوعة من السقوط بحرية... فكيف بالضحكة؟

أتى الجنود في جوف الليل، يطرقون الباب بحديد أحذيتهم الثقيلة، يطرقون أبواباً ستفتح على الجحيم نفسه. الكل يصرخ، والأم تحاول أن تغطي أعيننا عن الخوف...

- لكن من يغطي عيون التاريخ؟

من يمحو ذاكرة الجدران التي رأت كل شيء؟

بدأ الجنود بتكسير الأثاث، وقبلهم الشركاء الخفيون كسروا القلوب، كلاهما يسرق شيئاً... أحدهم يسرق الأجساد، والآخر يسرق الأمل.

وفي الصباح، حين أشرقت الشمس، عاد الجميع إلى أمكنتهم: الجنود إلى ثكناتهم، والشركاء إلى وجوههم الأخرى... أما بيتنا، فبقي مهشم، ونحن نيام على وسادات مبللة بالدموع، نحلم بكوابيس لا تعرف سوى لوناً واحداً، لون الدم.

ركبن الحافلة، والشمس ما زالت نائمة تحت أغطية الليل، ولا يقطع هدوءه سوى صوت الكلاب الضالة في الشارع، ودوريات للاحتلال ترابط أمام منزل في زقاق بعيد على الجانب الآخر تراقبه ببرود، الكلاب تنبح والدوريات تراقب شركاءها في اللعبة اليومية، في استغلال الليل لبث الخوف، ومن هم أسياد شارع الزيارة...

حلا، ذلك الاسم الذي تحمله هدية من والدها، نغمة علقت في الهواء منذ ولادتها، فظل يتردّد في كل زاوية من زوايا البيت.

طفلة في التاسعة، تحمل بين جفنيها بُحيرتين من دموع لم تجف. مُنتفختان حمراوان بعد عاصفة البكاء. تتدلى ضفائرها على كتفيها، كل جديلة تحكي قصة لم تكتب بعد، كل خصلة مقطوعة تسرد رحلة شوق طويلة إلى رجل غاب فجأة، تاركاً وراءه اسماً وذكرى، وطفلة تبحث عن أبويّته بين طيّات الفراغ.

وحدها "حلا" تعرف كم مرّة همست باسمه في الظلام، وأصابعها الصغيرة تتبع ملامح وجهه في صورته على الجدار، تطلب منه العودة ليمسح دموعها التي لم يعد أحد غيره يجيد مسحها.

تسري ليلاً تزاحم الغيوم وزخات المطر، تطير بجناحي الحب شوقاً لرؤيته، وتختبئ من البرد في حضن والدتها، لتعود إلى البيت ليلاً كما حدثتها.

جلست الجدة فخرية ترتب حقيبة الزيارة على كرسيها، بين يديها حقيبة ليست عادية، تفتحها بعناية لأنها ثمينة تحمل أماني العائلة كلها إلى السجن.

أصابعها المتشققة نسجت تاريخاً من الصبر، فقد حملت حقائب شبيه منذ النكبة والنكسة وكل الانتفاضات، تتحسس المحتويات واحدة بعد الأخرى، فكل غرض له حكاية، لتتأكد من وجوده، ثم تهمس بصوتها الخافت المليء بالحكمة والتجربة:

- لم نترك شيئاً طلبه والله أعلم. هنا الشبشب، –تطوي البيجاما بكل حنان– وهذه الملابس الداخلية، وتلك زجاجة الزيت، –تتوقف عند كيس الزعتر– تهز رأسها:
لم ننسَ شيئاً... لكننا ننسى دائماً كيف نعيش من دونكم...

ثم التفتت إلى زوجة ابنها بجانبها، تحمل جرحين ثقيلين في عينيها: غياب زوجها، وجرح نازف من أمومة أصبحت فيها وحيدة، قالت الزوجة بصوت متقطع، والكلمات تتساقط من فمها مع كل نفس ثقيل:

- إن شاء الله يسمحون لنا بالزيارة هذه المرة. كل زيارة تنغصها قوانينهم، وتصير جلسة تحقيق. يفتشون حتى أنفاسنا... ويصادرون حتى أحلامنا البسيطة. هذا ممنوع، وذاك مسموح، يلعبون بأعصابنا. ولا ندري حتى إذا 'الكنتينة' وصلت أم لا؟

أطبقت الحجة فخرية على يد كنتها بحزم يخفي وراءه ألماً عميقاً:

- لا تهتمي يا بنتي، نحن لسنا ضيوفاً على أبواب سجنهم، ولن نكون الأخيرين. نحن أهل هذه الأرض حتى وهي مسجونة، يظنون أنهم يملكون مفاتيح الأبواب لقهرنا، لكنهم لا يعلمون أن صبرنا أقوى من كل الأقفال ومن قضبان سجونهم. سندخل، نعم سندخل... وسنخرج منه بكرامتنا، حتى لو اضطررنا لترك أنفاسنا هناك.

فقالت كنتها:

- أخاف عليك، وعلى صغيرتي عظامك لم تعد تحتمل الانتظار في الطوابير. وصغيرتي قد تنسى كيف تُنطق كلمة 'بابا' قبل أن تراه.

فردت "فخرية" بابتسامة هادئة بعد أن انحنت نحو حفيدتها الجالسة، تسند تاريخاً كاملاً على كتفيها الصغيرتين. ابتسمت تلك الابتسامة التي تختزن حكايات خمسين عاماً من المقاومة:

- يا بُنيتي، الخوف ظلٌّ لا ينمو إلا تحت أقدام الواقفين. نحن لسنا ممن يقف...

ووضعت يدها على صدرها حيث القلب الذي شهد كل شيء:

- انظري... ما زال ينبض. وما زلنا نذهب ونعود. قد يسرقون الأيام من أعمارنا، لكنّهم لن يسرقوا هذه اللحظة، لحظة الوقوف أمامهم ونحن رؤوسنا مرفوعة كشجرة الزيتون العتيقة في ساحات الأقصى.

ثم أشارت إلى الحقيبة:

- في هذه الأكياس الملابس والطعام... وقلوبنا تحمل ما لا يرونه: بذور الغد التي ستنبت حرية حتى لو تحت أنقاض السجون. فالحياة لا تعاش بالخوف، بل بالإصرار.

حلا تغوص في صمتها الخاص، وضعت العالم خلف جدار زجاجي سميك. لا تسمع إلا دقات قلبها التي تتسارع كلما اقتربت الحافلة من السجن. في رأسها الصغير، تدور الأسئلة مثل فراشات حبيسة:

- أيّ الكلمات ستكون جديرة بأن تكون أول ما أهديه لأبي؟

هل أروي له كيف تعلمت أخيراً حل مسائل القسمة المستعصية؟

أم أخبره أن شجرة اللوز في الحديقة أثمرت هذا العام رغم كسرها من الجنود؟

ماذا ستقول له؟ كيف ستختار الكلمات الأولى؟ هل تبدأ بحكايات المدرسة، أم بما حدث في البيت؟ أم ستخبره عن مشاجراتها الصغيرة مع أخيها عمر؟

أصابعها تلعب بهدية صنعتها له من عيدان البوظة الفارغة – سرير صغير كي ينام مرتاحاً في زنزانته– كما قالت لأمها. لكن ما لا تستطيع قوله هو كيف تحولت لياليها إلى ساعات انتظار طويلة، وكيف صار "بابا" مجرد صورة على الجدار، واسم أصبح تعويذتها تهمس به قبل النوم ضد الخوف.

حتى المصروف الذي تقلّص بعد سجنه لم يعد يكفي لشراء حلوى المدرسة يبدو تافهاً مقارنة بالسؤال الذي يطحن قلبها:

- كيف تشرح لرجل محبوس في زنزانة مظلمة أن العالم كله أصبح سجناً منذ غيابه؟

فجأة يقطع صمت أفكارها صوت محرك الحافلة الضخم، الذي يملأ الأجواء. آيات من سورة يوسف تتردد في الخلفية، لتمسح على قلوب الزائرين ببشريات الفرج والأمل.

هذه الرحلة هي الأولى لها لرؤية أبيها بعد ستة أشهر كاملة من الغياب. لقد علمت من حديث جدتها وأمها أن أبيها كان في التحقيق، وأن تنقلاته بين السجون جعلت زيارته أمراً صعباً. لكنها اليوم تحمل في قلبها الصغير كل الأشواق والهموم، وتنتظر اللحظة التي ستلتقي فيها بمن كان دائماً مصدر أمانها وفرحها.

ولكن الآن:

- صدر تصريح الزّيارة...

لا تعرف ما هو التّصريح، ولكنّها تعرف أنّها ستراه، وستخبره بمدى اشتياقها، وستبثُّ له همومها، فكرت في كلّ شيء ورتبته في عقلها، ثمّ كتبته في ورقة انتزعتها من دفترها ليلاً، كانت مجعّدة قليلاً، وبهتت بعض حروفها، فدموعها تركت بصمتها عليها.

سارت الحافلة بهدوء متقطع من حاجز لآخر، وعيونها تراقب الشارع مصارعة النُّعاس الذي نزل ثقيلاً على جفنيها، ورأسها يتمايل مع حركة الحافلة. واختفت عيونها البُنيّة في بطء شديد. ليستقر في حضن جدّتها.

بخطوات صغيرة مترددة دخلت ساحة السّجن، حيث بدأ البرد يتلاشى تحت إشراقة الشمس، وحرارة اللقاء تُشعِلُ في الجسد أشواقاً لا تنطفئ.

ما تراه من بعيد أثار دهشتها؛ المعتقلون يجلسون في حديقة واسعة، فيها زهور وحوض نعناع، ولم تشاهد الخيام، هناك أشجار عالية حولهم تشبه حديقة جيرانهم، ولا توجد أسلاك شائكة ولا قضبان، بعضهم يضحك أمام التّلفاز، يلبسون ملابس جميلة، وتسأل نفسها:

- يوم عيد؟!

وأمامهم (طعام ولحم وعصائر) وحتى (كولا)، وآخرون يأكلون الحلويات واللّحوم المحمّرة مثل التي في المطعم الذي رأته في التلفاز، وآخرون من بعيد يلعبون الكرة الطائرة في ملعب يشبه ملعب مدرستها، وفي طرف السّاحة مسبح واسع كالذي زارته مع والدها في آخر صيف.

قالت في نفسها:

- هل جدّتي وأمي تكذبان، السّجناء سعداء، هذا ليس سجناً بل متنزّهاً، لا يوجد جنود، ولا يعذبهم أحد، ويأكلون طعاماً أفضل من طعامنا.

فجأة أطلّ والدها من بين الجموع، نعم، إنه يظهر كما في الصورة المعلّقة على جدار غرفة المعيشة، يلبس البزّة التي ما زالت عالقة في ذاكرتها. أسرعت إلى احتضانه، وهي تصرخ فاتحة ذراعيها:

- "بابا.. بابا"

يلتفت إليها، ويجري نحوها مسرعاً، ويمسكها من تحت ذراعيها محتضناً جسدها الصغير، كما كان يفعل عند عودتها من المدرسة، لينهال عليها بقبلاته وكلماته الجميلة، التي ما زالت في ذاكرتها، فهي الجميلة الرّقيقة، ابنته البكر، النّشيطة الذّكية والمتفوقة في مدرستها دائماً.

أحاطت به بشدّة متعلّقة بكتفيه، فرائحة عطره كما كانت تشمُّها في غرفة نومه تملأ المكان، جلسوا على طاولة خشبية تظلّلها شجرة صفصاف ضخمة، كالّتي جلسوا تحتها عندما أخذهم في رحلة العام الماضي، وفي الجهة الأخرى جلست أمها وجدّتها، والجميع يتبادلون أطراف الحديث والحكايات، يأكلون الحلويات، كالتي صنعتها أمها يوم عيد مولدها، ويشربون القهوة، وهي تستمع بسعادة إلى ضحك الجميع، فقد اجتمعت العائلة كما كانت كل ليلة.

- والآن جاء دورك يا حلا –قال أبوها– أخبريني عن المدرسة، وما ترتيبك في الصف. أخبريني كل شيء...

لقد جاءت مستعدة، وأعدَّت قائمة كتبتها بعبارات صغيرة كي لا تنسى شيئاً من عالمها الصغير، وستخبر والدها بكل شيء، فهنالك الكثير من الأخبار، فهي –كالعادة– الأولى في صفها، ولها صديقات كثر، ومعلماتها يحببنها جداً، وتشارك في الإذاعة المدرسية، وتم اختيارها لفرقة الكشافة، ودفاترها مليئة بعبارات التشجيع، وملصقات النجوم لتفوقها، فهي تحب الرّياضيات والأرقام.

ولكنّها ملّت (سندويشات) الزّعتر واللّبنة، وحقيبتها فيها ثلاثة ثقوب، وزيُّ المدرسة باهت اللون، وقد تآكل مقدّم حذائها، فصار الماء يتسرب إليه أحياناً فيبلل قدميها.

لكنها لا تكترث، فقد اقترب العيد وستشتري بدلاً منه. ولن تشترك في الكشّافة لأنَّ مهلة التّسجيل قد انتهت قبل أن تدفع أمها ثمن الزّي.

أخوها عمر يأخذ بعض أغراضها المدرسيّة، وتسامحه لأنه صغير، وتساعد أمها في مسح الغبار، وأحياناً تقوم بترتيب الصّحون، وتحضير الطعام، وتحب الذهاب إلى السّوق لشراء بعض الأغراض.

كان عندها عصفور صغير، لونه أخضر موشَّح بالبياض، طار أمس من القفص، فعندما سمعت عن الزّيارة وعن السجن، تركت له الباب مفتوحاً، لأنها تذكّرت والدها، فأشفقت عليه، وهي نادمة الآن، فوالدها لا يعيش بين القضبان.

هزت أمها كتفها برفق، لكن الحركة كانت صاعقة على جسدها الصغير:

- أفيقي يا حلا، أفيقي صغيرتي... سنعود إلى البيت... الزيارة ممنوعة اليوم.

كلمات الأم سقطت ثقيلة على قلب الطفلة، التي كانت تحلم بلحظة ترى فيها أبيها.

نظرت حلا حولها بعيون غائمة، تبحث عن شيء ما في الفراغ، عن تفسير لهذا الحلم الذي تبدد فجأة:

- لكن... لماذا؟ –همست بصوت خافت تخشى أن تسمع الإجابة–
- الأسرى مضربون عن الطعام، ولا يسمح لنا برؤيتهم يا حلا.

في طريق العودة، أطبقت حلا على يد جدتها، تمسك بآخر فرع زيتون قبل السقوط. نظرت إلى السجن من بعيد، ذلك الوحش الخرساني الذي يبتلع الأحلام في صمت. في عينيها لم يعد هناك دموع... فقط شظايا من براءة مكسورة. ضمّت هدية أبيها –ورقة صغيرة كتب عليها: "سأعود"– إلى صدرها، تحمل بذرة ستنبت ذات يوم، حتى لو تحت أنقاض السجن.

لأنهم لا يعلمون أن الأحلام لا تسجن... إنها فقط تنتظر..

خمسُ درجـات وزقاق

في تلك الأيام الذهبية، قبل أن تخطف فلسطين من بين أحضان أهلها، يافا تزخر بالحياة، عروس تتهادى على شاطئ البحر الأبيض، تتنفس عبق البرتقال، وتتمايل مع أنغام الموج.

وفي زحمة تلك المدينة النابضة، إبراهيم الفتى النحيل ذو العينين الواسعتين، يركض بين الأزقة الضيقة، أخف من طائر حر يعرف كل حجر وزقاق.

في الصباح الباكر، يهرع إلى ميناء يافا حيث السفن القادمة من بيروت والإسكندرية، يحمل حقائب المسافرين بيديه القويتين، بينما تختلط أنفاسه مع رائحة الملح واليود. وفي الظهيرة، ينتقل إلى محطة القطار العثمانية القديمة، حيث يصيح:

- "تذاكر... تذاكر...

بصوته الشبابي النقي، بينما تدور عجلات القطارات حاملة التجار من حيفا إلى القدس، ومن نابلس إلى غزة.

موهبته الحقيقية بين حقول البرتقال وبساتين الزيتون مختلفة، الفلاحون ينتظرونه يومياً، حكيم صغير يحسب لهم مواسم القمح بسرعة البرق، ويوزع لهم أرباح الزيتون بحكمة شيوخ القرى، بينما تتدفق الأرقام لصناديق البرتقال على لسانه بيسر وسهولة. يداه تعرف وزن التربة قبل وزن العملة، وقلبه يعشق فلسطين قبل أن يعرف أن الحب له اسم.

وفي أحد تلك الأيام، بينما يحصي صفوف الأشجار الكثيفة في بساتين القرية، يحمل دفتر حسابات ممزوجاً برائحة التراب، سمع صوت غصن ينكسر.

التفت فإذا بها واقفة تحت شجرة برتقال عتيقة، تمد يدها ببراءة لقطف ثمرة، لكن الغصن المرن قاومها. انحنت بجسدها النحيل، فانسابت أشعة الشمس بين أوراق الشجر ورسمت على وجهها نقشاً من ذهب.

توقفت أنفاسه للحظة، فالزمان توقف معها. ترتدي ثوباً مطرزاً من أزهار الجليل، وتتحرك نسماتها قادمة من جبال الخليل.

في تلك اللحظة، أدرك أن فلسطين ليست فقط أرضاً تحسب مواسمها، بل امرأة تقف تحت شجرة برتقال، تضحك مع الريح، وتغري الثمار أن تسقط في حضنها.

هي فلسطين التي تحمل في عينيها أسرار بحر يافا، وفي خطواتها رقص السهول والوديان. وهناك بين أصوات البلابل وعبق الحمضيات، بدأت القصة... قصة حب ولد من رحم الأرض، قبل أن تعرف الأرض جراح النكبة.

ظل يراقبها من بين ظلال الأشجار، يقرأ أسطراً من قصيدة ولدتها أرض يافا. تتنقل بين أشجار البرتقال، تلامس الثمار بأصابعها الناعمة، تقلب صفحات الشمس الذهبية – تلك التي لا تشبه إلا شمس فلسطين – وهي تنساب على وجهها بحنان الأم، فتُذيب حبات العرق على جبينها المشرق، وتحول خصلات شعرها الأسود إلى تيار من الحرير المنساب.

تتحرك بين أشجار البرتقال بخطوات خفيفة، فهي جزء من تلك الطبيعة الساحرة، يزيدها البرتقال جمالاً وحمرة خجولة، خاصة حين حاولت قطف ثمرة عنيدة، فانحنت بجسدها النحيل، وتورّد خدّها من الجهد، لكن عينيها ظلتا تلمعان بتحدٍ طفولي.

يتساءل في صمت:

- هل صمود برتقال يافا على أغصانه، أقوى من صمودنا على هذه الأرض؟

أم أن جماله الحقيقي يكمن في طريقة قطافه برفق، كما تروي الجدات حكايات الوطن بصوتٍ دافئ؟

بدأت رياح الخيانة تعصف بفلسطين منذ أن أدار الانتداب ظهره، فتحوّل من حامٍ –كما يدعي– إلى شريك في الجريمة.

في شوارع يافا التي تعج بأصوات الباعة وضحكات الأطفال، صارت تسمع الآن وقع أحذية الجنود الغزاة، وخطوات المهاجرين الجدد الذين جاءوا يحملون أوهام "وطن بلا شعب."

إبراهيم الذي يحصّن أحلامه بين دفتر الحسابات وورق البرتقال، وجد نفسه فجأة أمام معادلة لا تحتمل الأرقام:

- كيف يحسب دماء الجيران؟

كيف يوزّع الحصص على العائلات التي طُردت من بيوتها؟

في القرية، صارت النوافذ تغلق باكراً، وصارت القبلات تختتم بالدموع قبل المغرب. حتى بستانها لم يعد كما كان.. الأشجار التي تنجب الذهب البرتقالي صارت تنجب الرصاص.

وفي ليلة ما، سمع دويّ الانفجارات يأتي من جهة البحر، فعرف أن يافا تذبح بصمت. فتح نافذة الغرفة العليا، وشاهد أعمدة الدخان تُلوّح في الظلام أطول من أيادي وداع سكانها.

صمت ثقيل وغبار الهجرة يهبط في كل مكان، وصراخ المحتلين يحيط بالقرية، بينما أصابعه تمرّ على قشرة برتقال يابسة، تلمس جلد الزمن نفسه:

- هل تشبه قوة برتقال يافا صمودنا؟

تلك الثمار التي تعلّقت بالأغصان ولبُّها معلّق بالوطن، ترفض السقوط حتى تحت وطأة الريح والغزاة.

أم أن سرّها يكمن في رقّتها؟

في تلك اللحظة التي تنفصل فيها عن الفرع بسهولة تشكل قبلة وداع، حاملة في عصارتها حكايات الأرض، ودموع الأمهات، وكلّ عرق الآباء.

وقف أمام الشجرة العتيقة في بستانهم الذي صار أشبه بخرابة. أغصانها ما تزال تحمل بعض الثمار، صامدة مثل أجداده الأوائل الذين رحلوا ولم يرحلوا.

مدّ يده إلى واحدة أخرى، فوجدها باردة تحت الشمس، ضغط عليها قليلاً فانفجرت رائحتها في الهواء، عابقة بأشياء لم يعد لها أسماء، رائحة البحر الذي صار بعيداً، رائحة الميناء الذي لم يعد لهم، رائحة والده وهو يرقع له حقيبة المدرسة في ليالي الخوف. في تلك اللحظة، بينما يقشر البرتقالة ببطء، شعر بنفسه يقشر طبقات من الذاكرة. وقطرات العصير التي تسيل على يديه تحمل طعماً مختلفاً:

- مرارة الهزيمة، حلاوة الانتظار، حموضة الغربة. وعيون حبيبته...

سمع صوت أمه من بعيد تناديه:

- البرتقال ليس للأكل فقط، إنه للذكرى أيضاً...

يعرف أن بعض الذكريات أشبه ببرتقال يافا.. كلما ضغطت عليها أكثر، كلما سالت بذكرى جديدة مختلفة.

قريتنا الصغيرة لوحة حية ترسمها الطبيعة، ثلاث تلال، أحضانها دافئة تحيط بسهل أخضر يتمايل مع القمح تحت نسمات الربيع. في قلب هذا الجمال، عين الماء الصافية تتدفق طوال العام، تروي ظمأ الزيتون والتين، وتغسل وجوه الأطفال الذين يلهون على ضفافها.

الحياة هنا تسير بنسق الحكايات القديمة، يبدأ النهار بصراخ الديكة، وينتهي بجلجلة مواعين العشاء تتصاعد من البيوت الطينية.

في هذا المشهد الهادئ، هي الشعلة التي تضيء أيامه. يأتي المساء فيجدها جاثية عند العين، تملأ جرتها الخزفية بالماء العذب. يراقبها من بعيد، مفتوناً بالطريقة التي تبلل بها خصلة شعرها الهاربة، وكيف يتحول شالها الأبيض إلى لوحة زهرية تحت انعكاس أشعة الغروب. وهي تنظر إلى انعكاس وجهها في الماء، فيختلط جمالها بجمال الطبيعة، حتى لم يعد يعرف أيهما خُلق من الآخر.

الصورة الهادئة بدأت تتصدع مع كل بزوغ فجر جديد، فأنباء شريرة من الاحتلال تصل إلى القرية. أصبح الناس يجتمعون في الساحة الوحيدة، يهمسون عن بيوت مهجورة في القرى المجاورة، عن عائلات طردت تحت تهديد السلاح.

يلاحظ ابتسامتها أقل اتساعاً، وصار ظلها أطول على طريق العودة من العين. في الليل وهو يسير بها بين الحقول، يحس بيدها ترتعش في يده عندما تسمع صوتاً غريباً، وكل ورقة تسقط من شجرة أصبحت تُذكّرها بزوال عالمها الجميل. في تلك الأيام، صار يرى في عينيها سؤالاً لم تطرحه بعد:

- هل سيظل بوسعهما حماية هذه القرية الصغيرة من العالم الذي ينهار حولهما؟

يعرف أن جدران القرية الطينية لن تصمد أمام المدافع، وأن عين الماء الصافية قد تتحول يوماً إلى بركة من الدماء. لكنه يعاهد نفسه في صمت:

- إذا كانت الأرض تستحق القتال من أجلها، فهي أيضاً تستحق أن يُقاتل من أجلها.

يتبعها بخطى خفيفة، يسرق معها اللحظات في زمن لا يرحم. قلبه يخفق بين الخوف من أن يكتشف، والأمل الذي يرتعش في صدره. وجهه يضيء كلما ارتدى طربوشه الأحمر – الطربوش الذي اشتراه بماله الأول حين صار معلماً– شاهداً على كفاحه وكبريائه.

في يافا، بين زحام "حي المنشية" وعطر البهارات يبحث لها عن ألذ حبات الحلقوم المعطرة بماء الورد، يضعها على حافة العين قبل أن تصل الشمس إليها، يقدّم لها قطعة من الليل قبل أن يبدأ النهار. ينتظرها هناك، تحت شجرة التين القديمة، وقلبه يُقلّبه الشوق والخوف.

أمه، الحاجة "لطيفة"، تعرف ما يدور في نفسه. تتلكأ في خطبتها متعمدة، تمنحه الوقت ليثبت لها – وليثبت لنفسه – أنه يستحق تلك الجوهرة. وكلماتها تُذكّره بالحقيقة المُرّة كلما همّ بالحديث:

- يا بني... أبوها مختار القرية، وله أرضٌ تمتد حد البحر، وماشية تغطيها، ومعصرة زيتون تتفجر بالخير. وماذا نملك نحن سوى طربوشك الأحمر؟

يعرف أن الاحتلال يتوسّع، وأن الأرض تسرق قطعة قطعة، لكنه يمسك بقبّعته كما يتمسك بوطنه. في عينيه إصرار يقول:

- سأثبت أن الحبّ أقوى من كلّ شيء... حتى من الاحتلال.

ورث إبراهيم عن أبيه الشهيد مصطفى فقر الجيب ولم يرث فقر الروح، يحمل في صدره: قلباً يخفق بحب الوطن، وذاكرة تحفظ صورة والده الأخيرة وهو يرفع علم فلسطين على أطراف يافا قبل أن يسقط برصاص الإنجليز.

لم يترك له أرضاً ولا مالاً، لكنه ورث منه إرثاً أثمن، كبرياء المقاوم، وشرف الدفاع عن التراب الطاهر.

أصبح معلماً ليس لأن التعليم مهنة، بل لأنه رسالة. كل كلمة يكتبها على السبورة أشبه برصاصة في معركة البقاء، كل درس يلقّنه لتلاميذه بمثابة بذرة يقاوم بها محاولات طمس الهوية.

وفي الصف بين مقاعد الطلاب الجائعين للعلم، يجد نفسه أكثر شجاعة وجرأة، حتى أنه لم يعد يخفي حبه، بل صار يردده في أشعاره.

عين الماء في القرية لم ترو عطش الجسد فحسب، بل تنعش روحه بالعزيمة. يرى في تدفقها المستمر رمزاً لصمود شعبه، وفي صفائها مثالاً لنقاء القضية. حتى أن الجميع في القرية ينحني له ليس احتراماً لذكرى أبيه فقط، بل إعجاباً بإصرار الابن الذي اختار أن يبني ما لم يستطع الأب إكماله.

الأشجار على دربه تهمس بأسماء الشهداء عندما يمر، والأحجار تحت قدميه تحفظ أنفاسه كما حفظت يوميات المقاومين. الفقر يلاحقه في بيته المتواضع، لكنه في الحقيقة الأغنى بين أقرانه، غناه كان في كرامة لا تقدر بثمن، وفي حب جماهير القرية الذين رأوا في الأبن استمراراً لسيرة الأب.

حتى طربوشه الأحمر الذي اشتراه بأول راتب له، لم يكن مجرد غطاء للرأس، بل تاجاً معنوياً توج به ذكرى والده، وإعلاناً صامتاً أن الفقر لا يهزم الكبرياء، وأن الشهادة ليست نهاية المطاف، بل بداية طريق آخر من النضال.

إبراهيم يفضل النوم على سطح البيت، حيث يجد نفسه أقرب إلى السماء. هناك بين ظلام السحر، يبحث عنها في النجوم، فعيناها تلمعان في أعماق الكون. يتأملها بلهفة، منتظراً لحظة ينبعث فيها شهاب بإشارة إلى أن الأمل لا يموت.

لكن هدوء الليل لم يكن يسلم دائماً من الضجيج؛ فطلقات الرصاص والتفجيرات الصاخبة تقطع صمته، لتذكره بأن المعركة لم تنته بعد.

العصابات الصهيونية تمدد ظلالها الشريرة على أطراف القرية، مرض خبيث يزحف نحو القلب. وإبراهيم بقوة قلب أبيه الشهيد يعلم أن النصر يحتاج إلى صبر، وأن الشموع تضيء أكثر في الظلام.

بزغت شمس يوم الخميس محمرَّة على غير عادتها من بين التلال، وتتناوب المرور من أمامها بعض السُّحب السوداء، وما زال مستلقياً على فرشته القطنيّة، يحاول أن يلملم ما تفكّك من شعوره بالانتظار، ويقرأ آثار الليل على ملامح وجهه المنعكس على إبريق الشَّاي بجانبه، ويتابع صوت الإذاعة المتقطّع:

- لقد احتلت جميع يافا... والعصابات الصهيونية تتجه نحو قرية...

شعر بانقباض في قلبه، ونزل مسرعاً باتجاه مضافة المختار ليستعلم عن الخبر، ويسأله:

- ما العمل؟

فرآها باكية تقف بجانبه، والخوف أذبل بتلات وجهها، حاول أن يبتسم، ولكنَّ قسمات وجهه تصلَّبت، ومحاولته للحديث معها فشلت، فهناك الكثير من الحروف القديمة المتجمِّعة في صدره، ويحاول إقناعها بالاقتراب من بعضها البعض؛ لتتحول إلى كلمات ليتمكَّن من إخراجها، ولكن بلا فائدة، فهي تركض وتتنافر هنا وهناك.. وبقي وجهه مشدوهاً وهو يراقبها ويتنهّد...

اجتاحت القرية زوبعة من الفوضى، نُفخَ في رماد يختبئ تحت ترابها منذ عقود. تدفق الناس سيلاً من الظلال البائسة، يملؤون المضافة حتى اختنقت جدرانها بأنفاسهم المرتعشة.

اختلطت الأصوات، فصار همس الصلاة يذوب في صراخ النساء، وانتحاب الأطفال يتداخل مع دويّ الطلقات البعيدة التي تقترب بزحف غاشم جائع.

في زاوية، احتشد رجال معدودون ببنادقهم الصدئة، يحملون أغصان شجرة يابسة أمام إعصار. بينما في الزاوية الأخرى، انحنى آخرون على أطفالهم، يحزمون الخوف والخبز في عُجلَة، والرحيل المؤقت قد يحفظ ما لم يعد له وجود.

وفوق العتبة الأخيرة لبيته، وقف المختار، أصبح رمزاً من الماضي، صوته يهتز في مهب الريح. خطب فيهم عن الصمود، لكن الكلمات تسقط من شفتيه مع حبات البرتقال النازفة من الأشجار، كل واحدة منها تشق الهواء قبل أن تتحطم على الأرض. العصافير قد فرّت بالفعل، أدركت قبل الجميع أن لا مكان للجناحين هنا.

وإبراهيم.. واقف بين كل هذا الجنون، فراشة محنطة علقت في شبكة عنكبوت. راحت نفسه تحاوره بلهفة المذعور:

- أتركض نحو أمك التي قد تكون جثّة عند الفجر؟

أم تتبع قلبك الذي يخفق باتجاه بيت المختار؟

أم تبقى كالغراب الأبكم، ينظر إلى وطن يدفن حيّاً فوق عتبة بيت المختار الأخيرة؟

وفي اللحظة التي قرر فيها أن يتحرك، سمع صوت زجاج يتحطم في بيت قريب، ثم صرخة مكتومة اختنقت فجأةً.. وعلم أن السؤال لم يعد له معنى. فالرصاص الآن يكتبُ سفر القرية، والعتبة الأخيرة لبيت المختار صارت أوّل درجة إلى الهجرة.

غربت شمس ذلك اليوم، يوم الخميس، وأخذت معها كل دفء الحياة. وغابت زهور، تلك التي تملأ عالمه نوراً وعبقاً، تاركة وراءها فراغاً لا يُملأ.

تشتت الناس بين التلال، يبحثون عن ملاذ آمن، أو حتى لحظة هدوء تسمح لهم بالتفكير، لكن ما حدث كان أكبر من أن يستوعبه عقل أو يتحمله قلب.
الأيام مرت ثقيلة، تحمل على كاهلها أحلاماً محطمة وأجساداً منهكة، وصارت كل خطوة نحو الاستقرار معركة جديدة. الوطن ينزف من كل جانب، والجراح تتفاقم، ولا أيدي قادرة على تضميدها، محاصرة بهول الأحداث، وأكاذيب المذياع التي تزيد الطين بلة.
الهزيمة ثقيلة على الصدور، ليس لأن اليهود انتصروا، بل لأن الجيوش العربية تآمرت بخذلانها. جيوش جاءت باسم النصرة فكانت أداة للتقسيم، تخلّت عن القضية قبل أن تبدأ المعركة، وتركت الفلسطينيين يواجهون مصيرهم وحدهم، وجثثهم تتدحرج على حدود التاريخ، وقلوبهم تنزف على أعتاب المنافي.
في البداية، قبلوا بالخيمة البيضاء حلّاً مؤقتاً، وهم يرددون:
- "عائدون".
"الشادر" الأبيض يخدعهم أحياناً، حين تهبّ الريح فتحرك أطنابه، فيغمضون أعينهم متوهمين أنها نسمات يافا تلك التي تعبث بشعرهم وهم يجنون البرتقال من بساتينهم. لكن سرعان ما انكسر الوهم. الأيام لم تكن رحيمةً؛ مرغتهم بالتراب والوحل، حتى صاروا جزءاً من تراب الغربة نفسه.
تحوّلت الخيمة إلى غرفة من الطوب الأسود، بناها اللاجئون بأيد منهكة، كلّ لبنة فيها تشي بموت جديد، موت الكرامة، موت اليقين، موت فكرة العودة السريعة.
صار المخيم مدينة أشبه بمقبرة جماعية، تنمو كل يوم وتضمّ وجوهاً غريبة، لاجئين جدداً يتكلّمون بألسنة مكسورة، لكنهم يحملون نفس الأسئلة العالقة:
- لماذا نحن هنا؟ وأين سنذهب غداً؟
أسئلة تتدلى في هواء المخيم، لا تجد إجابة إلا صرخات الأطفال الجائعة، وهم يلهون بين أكوام القمامة، ويتعلّمون أبجدية التشرد قبل تعلّم الحروف.
انطفأت "زهور "فجأة من دروبه، كما ينطفئ المصباح حين ينزع من سلك الكهرباء بعنف. غابت عن أزقة المخيم فصارت خرساء، وظلها الذي اعتاد أن يسبقها عند المنعطفات صار شبحاً يطارده. حتى حنفية ماء الوكالة التي تنتظرها كل صباح بلهفة العشاق، صارت تبكي ماء مراً على حافة بئر القرية، بعد أن فقدت صوت ضحكتها التي تنساب مع خرير الماء.

في طوابير الخبز الطويلة، كانت تقف بين النساء وسط حقل شائك، لم يعد يجد سوى عيون نساء غائرة تبحث عن فتات.

والعيادة الصغيرة التي تعالج صداع الأطفال وآلام العجائز تفتقدها؛ فكيف تداوي جرحاً صغيراً والوطن ينزف من خاصرتهما معاً؟

ظلّت صورتها في رأسه دوياً لا يهدأ. هناك عند عتبة الدار الأخيرة في يافا، بينما كان الدخان الأسود يلفّ المدينة بكفن كبير، تبادلا نظرة أقوى من كل كلمات الوداع. كان بإمكانه أن يصرخ وقتها، أن يجرّها إلى صدره، أن يعدها باللقاء، لكنه لم يفعل سوى أن التقط برتقالة سقطت من بين يديها المرتعشتين، التقطها كما يلتقط قلبها المكسور من الأرض.

الآن في زاوية خيمته الباردة، بينما يدحرج تلك البرتقالة بين أصابعه المتشققة، يتساءل:

- هل حبهما مجرد رقم في سجل اللاجئين مع كرت الوكالة؟

هل صارت "زهور "مجرد اسم يهمس في الظلام، حلم سرقه الدخان من فميهما قبل أن يكتمل.

أم أنه ظل حياً، عالقاً بين أشجار البرتقال التي تشهد على لقاءاتهما الخاطفة، حيث الظل يخبئهم بالحب المسروق؟

هل أخطأ حين أحبها ببطء اللاجئين في عودتهم، بتردد المنفيين عن كسر الحدود، حتى ملّت انتظار غيمة لا تمطر، فقررت الرحيل مع آخر قافلة يائسة؟

الأسئلة تدور في رأسه مع عاصفة من شظايا المخيم، لكنها لا تجد سوى صمته الطويل. حتى ظله صار ينظر إليه بشفقة، وهو يحاول عبثاً أن يمسك بذكريات تذروها الريح مثل أوراق هويته الممزقة.

في الليل، حين ينام الجياع على أصوات البكاء، يرى في أحلامه العتبة الأخيرة.. يراها وهي تتحول إلى حافة جسر، وزهور تقف على الطرف الآخر، تلوح له بيد ثم تختفي، تاركةً إياه وحيداً عند حافة اللامكان.

ظل يبحث عنها في كل مخيم، في كل مدينة فتحت أبوابها للاجئين. اللون الأزرق لشعار الوكالة بوصلته واتجاه مسيره، لكنها لم تكن هناك.

الأيام مرت بلياليها الطويلة، والأعوام جاءت بمواسم برتقال جافة وقاحلة في قلبه. البحث لم يتوقف، رغم أن الطريق مليء بالوجوه الحزينة، بالأب الذي فقد ابنه، والزوجة التي لم تعد تعرف أين زوجها. جمع بقايا القلوب أصعب مهمة في ذلك الوقت.

هناك أشياء حزينة لا تُقال، مشاعر ولدت من رحم واقع مرير، واقع لا يترك مجالاً للكلمات إلا أن تعترف بأن الحياة، بكل ما فيها، أصبحت حزينة. فقط حزينة.

بعد سنوات من التيه بين طرقات المنافي والحدود، استقر به الحال أخيراً في مخيم جديد، بحث بين أكواخ الصفيح المتشابهة عن شيء يشبه الاستقرار، وعن بقايا نفسه المبعثرة بين حقائب المهجرين وبلا فائدة... وفي ليلة ظلامها أثقل من المعتاد، احتضن أمه للمرة الأخيرة. جسدها نحيل جاف، وصوتها صار همساً يتسرب من بين شفتيها كآخر أنفاس شمعة على وشك الانطفاء.

- "اشتقت لرؤية أحفادي "...

آخر كلماتها، قالتها بابتسامة غريبة، ترى ما لا يراه أحد. ابتسامة حملت تناقضات حزن الأم التي لن ترى أحفادها، وسعادة العائدة إلى ذكريات الماضي، ورضا المحتضنة بقدرها.

ثم أغمضت عينيها بهدوء وببساطة ذهبت إلى نوم طويل، تاركة إياه وحيداً في مواجهة الفقد الذي بدأ ينسج خيوطه حول الجسد الدافئ الذي بدأ يبرد رويداً رويداً في حضنه.

في تلك اللحظة، بينما أنفاسها تتلاشى، شعر بطفولته تموت معها. ظل جالساً في صمت، يحدق في الظلال المتمايلة على الجدار، والعالم خارجاً يستمر في دورانه، غير مكترث بوفاة امرأة عجوز في مخيم لا يظهر على الخرائط.

جلس هادئاً في زاوية الغرفة، وعقارب السَّاعة تذوب في معصمه كلَّما نظر إليها، ولم يشعر بنبضها حتى أيقظته نداءات الصَّلاة، فهو ما زال في رحلته، وتتخلى عنه في كل محطة قلوب وأبدان أحبَّها، يحاول أن يطوي ألم فراق في فمه كالعلقم، وينادي الشَّمس ويستعطف النُّجوم إن شاهدتها في مكان ما، ويتذكر الفراشات والعصافير، فيحدثها عن خصلة شعرها الهاربة.

بدأ الحب يشيب بعداً وغربة. في المخيم القريب من البحر استقر بعد رحلة الهجرة الطويلة، وعمل معلماً في مدرسة الوكالة، يستذكر تلك الأيام البعيدة. أيام الوديان والبساتين. كانا يجلسان معاً على الصخور المطلة على القرية، لطيفة وجميلة، قطعة من السماء نزلت إلى الأرض، يأتي منها الخير والحياة، وتذهب بلا وداع، تاركة وراءها فراغاً لا يُملأ.

يقف الآن في المخيم أمام البحر، يحاول بجسده أن يمنع الأمواج من ضرب الشاطئ، أن يحفظ الذكريات محفورة على الرمال بعيداً عن عبث الزمن. ينظر إلى الأفق البعيد، وتختفي الشمس شيئاً فشيئاً.

هناك شيء لا يرى بالعين، لكنه يحس به. البحر نفسه يرسل له سراً يتعلق بالهجرة وهولها.

- هل هي القوارب التي اختفت في الأفق عادت، أم تركت وراءها أحلاماً غرقت في الأعماق؟

أم الرمال التي تحمل بصمات أقدام لم تعد تعود؟

شيء ما يدعوه للتأمل، للبحث عن المعنى الخفي الذي يربط بين الماضي والحاضر، بين الحب الضائع وهول الفراق. شيء غامض يلوح في الأفق، يذكره بالهجرة مجرد رحلة في ألّا مكان، بل هي أيضاً رحلة في الذاكرة، حيث تبقى بعض الأسرار مدفونة، تنتظر من يكتشفها.

نادى مؤذن يوم الجمعة إلى الصلاة، فلملم جسده المتناثر عن الفراش، يلبى النداء، فاستمع وصلَّى وكبّر، ثم لمح وجوهاً مألوفة تضيع بين الآخرين، ولكنَّها فاترة، شيء يطاردها، وتحجب تجاعيدها الحديثة الكثير من الأسى.

- نعم، إنَّه الحاج جمال، وابنه يوسف، وقد كبر كثيراً، وعلى طرف المنبر يتكئ الحاج روحي.

ولكن أين ذراعه اليمنى؟

لقد دفنها في أطراف القرية بعد أن دافع عنها، وبين أشجار البرتقال نصب شاهداً لها، تقدم إليهم ببطء وتعارفوا، واختلطت أضلاعهم ببعضها من شدَّة الشَّوق، وتداخلت التحيات مع الأخبار، ولكنَّه ينتظر نبأً يعني له الكثير، وطال شوقه له ليسأل:

- ولكن أين المختار؟

فجيبه الحاج روحي:

- إنَّه في أول المخيم بالقرب من مدرسة الوكالة، في البيت الذي يبعد عنها خمس درجات وزقاق، وعلى يمين شارع السوق.

الوقت بعد العصر بساعتين، والشمس تميل نحو الغروب، تهمس بوداع آخر. خطواته الثقيلة تتردد في أزقة المخيم، تبحث عن شيء ضاع منذ زمن. الدنيا من حوله بدت موجاً، وقلبه يعصف بعنف.

وقف أمام الباب الخشبي الأزرق، يتنفس بثقل كما لو أن الهواء نفسه أصبح ثقيلاً. النافذة الصغيرة إلى جانبه لم تكن تحجب ضوء النهار فحسب، بل تحجب بصيص الأمل الممكن.

في داخله، دار حوار مرير:

- هل يصرخ باسمها عسى أن تسمعه من وراء الزمن؟

أم يترك هذا الباب موارباً كما تركا كل شيء بينهما غير مكتمل، مجرد وعد تلاشى مثل دخان مدافع ذلك الصباح البعيد؟

سأل بصوت خافت يكاد يذوب في الريح:

- هل يبقى في فنجان قهوتنا مكان لذكرى؟

لأنه يعرف أن عطش الروح لا ترويه مياه الدنيا كلها. فدق الباب بعنف، طائر يخفق بجناحيه المحطمين في قفص الزمن. قلبه يهتف في صمت:

- أين أنت يا زهور؟

وفُتح البابُ..

وقفت هناك، لكنها لم تعد "زهور" التي عرفها. عيناها تحملان بحراً من الذكريات التي لم تعد تخصه. سألها بصوت يرتجف:

- هل تتذكرين صيفنا الأخير بين أشجار البرتقال؟

أغمضت عينيها المتعبتين، بينما أصابعها تلعب بقلادة حول عنقها – تلك القلادة التي صنعها لها من قشر برتقالة يافاوية ذات يوم. أجابت بصوت حالم:

- كل الأيام متشابهة.. لا فرق بين اليوم وعام ولا ألف عام...

حاول مرة أخرى، أن يحفر في الرمال بحثاً عن ذكرى غارقة:

- هل تتذكرين ضوء القمر وهو يرقص على قطرات الندى بين أوراق البرتقال؟
كنا نسميها لآلئ يافا...

انهمرت دمعة خفيفة على وجنتيها، كآخر قطرة ندى على ورقة ذابلة في بساتين القرية. وهمست:

- نعم.. ذلك ظل موجوداً هناك.. مع آلاف الذكريات الأخرى. لكنك...

لم يحتمل أن تكمل الجملة. نظر حوله فرأى طفلاً صغيراً يلعب خلفها. الطفل الذي حمل اسم – إبراهيم – شاهد ينمو على حب بقي حياً رغم كل شيء. في تلك اللحظة، انكسرت الشمس على وجهها، فبدت الصورة القديمة تذوي ببطء.

الطفل الصغير تعلق بثوبها وسأل:

- ماما، من هذا الرجل؟

نظرت إليه نظرة طويلة، ثم أجابت بصوت يحمل الألم والحنين:

- هذا.. هذا... حكاية من الماضي يا حبيبي إبراهيم...

وعندما التقت عيناه بعيني الطفل، عرف أن هذا هو قدرهما أن يبقيا حيين في ذاكرة برتقالة يافا التي جفت في قلادتها، ولكن عطرها يبقى.

أدار ظهره وهو يهمس:

- وداعاً زهور.. لقد وجدتك أخيراً.

على أطـراف الـوادي

عالمي محصوراً بين تلك التلال الثلاث، فراشة تحلق داخل قارورة زجاجية. الوادي ضيق، ويحوي أسراراً لا تحصى، اكبر من صندوق عجائز القديم المليء بالخرافات والوعود.

أعرف كل حجر فيه، كل نبتة برية تنمو بين الصدوع، حتى أنني أسمع أنفاس الأرض عندما ينزل المطر.

الوعي فيه متماسك مثل وتد الخيمة، يهتزُّ أحياناً إن عصفت بنا حُمّى الحياة، لم أعرف مكاناً أكثر هدوءاً من نسيم تلاله.

"الأكاسيا" – شجرتنا العجوز – عرشنا الملكي. نتسلقها أنا وأصدقائي، حتى نصل إلى تلك اليد العملاقة المتشعبة من الجذع لتحملنا فوق العالم. من هناك نرى خريطة وطننا الوادي الحية.

ذات مساء، بينما نتأرجح على "الأكاسيا"، سمعت أمي تناديني. جلست بجواري تحت الشجرة، وأشارت إلى التلال بيدها المتجعدة التي تحمل حكايا عمر كامل من الشقاء:

- انظر يا ولدي... هذه التلال ليست مجرد صخور وتراب. إنها حراس الوادي الذين عاهدوا أجدادك الأوائل. صخورها جنود، وأشجارها حراس.

  لكن احذر... فهي تحمي فقط من يحترم أسرارها.

سكتت فجأة، كما لو أن التلال قد أشارت لها أن تكف. في تلك اللحظة، هبت رياح غريبة، حركت أوراق "الأكاسيا" لتهمس بلغة قديمة. شعرت بالقشعريرة تسري في ظهري، وعيون خفية تراقبنا من بين الصخور.

لم أعلم حينها أنّ التلال ستصبح لغزي الأكبر، وكلمات أمي تلك مجرد البداية لقصة ستدفعني يوماً لاكتشاف أن بعض الأسرار يجب أن تبقى مدفونة...

خاصة تلك التي تحرسها تلال وطن لا تنسى.

وادينا لم تلمسه شوائب كثيرة من مخلفات الزَّمن، يرفض أن يتغير رغم أنه يكبر، ولم نفكر يوماً نحن سكان الوادي، وخاصة الصغار منا ماذا يوجد خلف تلك التلال؟ وما تخفيه عنا؟

كلّ شيء فيه يكفينا، يُقنِعُنا ببساطة وسعادة، نعيش في مجاهل بعيدة عن الأضواء والعمران، نسكن الخيام المتناثرة في أماكن متقابلة، وتشاركنا حياتنا حظائر الماشية، وتنضم إليها أقنان الدّجاج، وأقفاص الطيور، وبعض الصقور المحلقة، تبقى حولنا دون كلل أو ملل؛ لتحمينا من الغربان السوداء المهاجرة، ولكنها تبقى حياة متماسكة بسكانها.

نحن الصغار لم نفهم يومها ذلك السحر الغامض الذي يجذبنا إلى أحضان الوادي. شمس الصيف الحارقة تتصهر فوق رؤوسنا، تذيب أجسادنا النحيلة حتى كادت عظامنا تظهر من تحت الجلد المحترق.

وفي الليل، البرد القارس يتسلل إلى عظامنا، يجمد الدم في عروقنا، حتى صرنا نسمع دقات قلوبنا تطرق على أبواب من الثلج.

لكننا نعود دائماً... نهرول بين منحدرات الجبال الخطرة، حيث تختبئ الأفاعي بين الصخور، خيوط مظلمة تنتظر من يخطو عليها. عقارب سوداء تعيش بيننا ترفع ذيولها تحذيراً، وخلفها عقارب شقراء تنذر بالموت، والضباع تهزأ بضحكاتها المرعبة من بعيد. وفي الظلام، عيون الذئاب المتوهجة تراقبنا من بين الشجيرات، بينما الغربان السوداء تحلق فوق رؤوسنا تنذر بالشؤم.

كل يوم مغامرة قد تكون الأخيرة. كل خطوة قد تكون على حافة الموت. ومع ذلك نلتقي مساء تحت شجرة الأكاسيا العتيقة، نتساءل بيننا:

- لماذا نعود إلى هذا المكان؟
  لماذا لا نبحث عن وادٍ آخر أقل قسوة؟

ثم ننظر إلى بعضنا في صمت، وتأتينا الإجابة نفسها كل مرة، صلاة سرية نرددها بأرواحنا قبل شفاهنا:

- لأن هذا هو وطننا... هذا كل ما في الأمر...

الكلمات لا تحتاج إلى تفسير. الحقيقة عالقة فينا، تلتصق بملابسنا. كنا وسنبقى جزءاً من هذا التراب، من هذه الصخور، من هذه المخاطر. ومن هذا الوطن. فالوادي لم يكن مجرد مكان... يحفر خريطته في لحمنا ودمنا مع كل شروق وشروق.

حتى تلك الذئاب والغربان الدخيلة صارت جزءاً منا. نعرف أننا سنكبر يوماً ونفنيها، وسنصبح مثل التلال القديمة، حراساً لهذا الوادي الذي ربما سيبقى لغزاً حتى لأحفادنا.

أسعد له رأي مختلف غالباً، فهو واثق من حكايات العجائز، يلازم تجمعاتهن طمعاً في قطعة "ملتوتة" أو بعض "أصابع زينب" يستمع لأحاديثهن عند البئر، أو بجانب "الطابون" يتفق معهن؛ ليرضين عنه، ويروي لنا –على لسانهن– أنَّ الوادي يشبه وجوهنا المثلثة، ولكن بشكل مقلوب.

في مخيلتنا الطفولية، لم يكن الوادي مجرد أرضٍ بين الجبال.. لقد كان كائناً حياً. نراه رجلاً عجوزاً ممدداً على ظهره، جسده الواسع يشكل حدود عالمنا. وجهه المثلث المقلوب يرسم خريطة وجودنا، جبينه الشمال حيث صخور الموت السوداء، وذقنه الجنوبية حيث ينتهي عالمنا بمنحدرات تنزف رمالاً حمراء عند الغروب.

هذا العجوز العملاق كان مضطجعاً بين أحضان العالم، محاصراً بأجساد أخرى (دول لم نعرفها إلا من أحلام الرحالة).

ونعيش في لحية هذا العملاق التي تساقط شعرها، حيث تحولت أشجار "الأكاسيا" إلى شعيرات متفرقة، والوديان الجافة إلى تجاعيد عميقة في وجهه المتعب. وأنفاسه تلاحقنا صيفاً، ونفحات الهواء الحارقة التي تذيب الرصاص في الظهيرة...

كنا نقول إنها تخرج من فتحتي أنفه، تلك المغارات الغامضة حيث تسكن الخفافيش والأساطير.

والمطر الشحيح الذي بالكاد يبلل التراب.. نعتقد أنها دموعه. دموع عجوز مريض حزين على حاله، كما نحن حزانى على حالنا.

ذات مساء، بينما كنا نلعب بالقرب من "مغارة ابن آوى"، سمع أسعد جده يهمس لأبيه:

- النقب لم يعد كما كان.. لقد شاخ كما نشيخ نحن.

عرفنا حينها أن اسم وادينا الحقيقي هو "النقب"، لكننا كنا نناديه بلقب "الجدّ" في سرنا.

في الليالي القمرية، نرى ظله العملاق يمتد عبر الصحاري، يحاول النهوض لكنه لا يقوى. ونحن أطفال الوادي، نحلم بأن نكون الأدوية التي تشفيه، والمشط الذي يعيد شعر لحيته، لكننا أشياء صغيرة تتسلل بين تجاعيده العتيقة. ونبقى نسمع همسات الأجداد:

- النقب يموت.. وإن مات الوادي، يموت أهله.

ما زلنا أطفالاً أو أكبر بقليل، معاً نشكل فرقة جوالة. أولاد وبعض الفتيات في مخيم كشفي، لا نترك حجراً إلا قلبناه، ولا مغارة إلا نبشنا خبيئتها، ولا عُشّاً إلا سرقنا ما فيه من بيض، ومهمتي جمع الحطب، وإشعال النّار في موقدنا الصّغير المكون من ثلاثة أحجار مسطحة، نقوم بتلوين البيض المسلوق بما توافر لدينا من مواد، ومهمة "وليد" سلق البيض في علبة سمن صدئه، ونعقد مباريات تصادم البيض، ومن تتكسر بيضته يخرج من اللعبة، غالباً أنا ووليد الأكثر فوزاً، ومهمة الآخرين الأكل، ليتساءل الجميع عن سر فوزنا الدائم، هم لا يعلمون أنّ السر يكمن في كيفية إمساك البيضة، وإحاطتها بكف اليد بقوة؛ لتشكل لها درعاً يحميها.

نلهو ونمرح، نركض بلا تعب، حتى تتعب الأرض من خطواتنا؛ فتطفئ الشّمس نورها علينا؛ لتجبرنا على العودة إلى خيامنا، لم نتساءل كثيراً عن العالم خلف تلك التلال كما قلت،

- هل كانوا سعداء مثلنا؟

أم هم بؤساء؟

عالمنا يكفينا رغم ضيقه، واستراق أحاديث الكبار ينبئك بشيء أجمل خلفها، ولكنه ليس مخصصاً لنا.

في العاشرة من عمري، عشت أوَّل حزن في حياتي، أتى سريعاً مفاجئاً، حزن أفلت من حُرّاس التلال، كان ذلك في نهاية الصَّيف، حين علا صُراخ أحدهم...

- لقد غرق، ابني الوحيد، وليد... لقد ابتلعه البئر...

"لقد ابتلعه البئر..."

جملة يتردد صداها في غياهب الجُبّ وبين التلال، ومع كلّ صرخة من الشَّيخ عبد الغفار، بأمله المرتعد يعود صوته وحيداً دون جواب وحياة، ودون جدوى.

إحساس حادٌّ بالخوف، ارتعشت منه أطراف من سمع صراخه، "الغول" الذي يتردد صيته بين العجائز، قد هاجمنا، وزرع الخوف في عقولنا كما في أساطيرنا، واختطف أحدنا، وأتساءل بعينين مغرورقتين بالدموع:

- هل أصبحت بلا رفيق خامس؟

"طلال" يشعر بثقل في قدميه، وبدأ يتفكَّك من خوفه، يجلس خائفاً في حضن أمه، و"أسعد" يشرد إلى خيمتهم، ويختبئ فيها، وهيام تجمّدت مكانها، وتحول لون شفتيها إلى الأزرق، و"جلال" يستطلع الحدث بصمت، وآخرون تعلو وجوههم لحظة حادة مرعبة بالانتظار.

الرّجال يعملون على إخراج الجثة من البئر، تلتفُّ أصابعهم حول الحبل بكلّ ما فيها من قوّة، وبين شد ورخي، ومن بين جدرانه العالية، أُخرجت جثة "وليد" إلى شفق الشَّمس الّذي يغلّف الوادي، مثل وليدٍ خرج من رحْمٍ ميّت، جثة مُتقوّسة، وتقطر ماء أحمر مصبوغاً من ضوء الشَّفق، جثة لم تكن له يوماً ما، ولا علاقة لها بذلك الشّقي المغامر، ساكنة هادئة، وبذراعين ورجلين معكوستين.

لم تقتنع أمُّ وليد بموت ابنها، رغم أنَّ الخوف يحيط بأطرافها، ترقد بجانبه، تطلق صرخات يأس موجعة لا حصر لها، يردّدها الوادي في صدى صوته، مبدياً تألمه وتضامنه معها، وسرعان ما تتبدد الصّرخات، وتهزُّه من صدره علَّه يستجيب بكلمة "أمّي"، فتصرخ صرخة مخنوقة في بُحَّة ألم عميق، وعلى صدره الصَّغير، وفوق قلبه تماماً، تضع رأسها، دون صوت لكليهما، وحركات ارتعاش رأسها وجسدها من شدّة البكاء؛ تخرج فوران الحزن من قلبها.

لم تكن لديّ معلومات دقيقة عن الحادثة، فقد اتفق كبار القبيلة على رأي واحد، يرددون مقولتهم:

- لقد ابتلعه البئر...

وليد.. رفيقي وصديقي، جسدي يتألَّم، يتنكر بهيئة طفل صلب عنيد، والحقيقة أنَّني لم أكن كالآخرين، شعرت بأنَّني مصاب بالتَّسمّم، وطعم مرّ شنيع يغطي لساني، وقاربت على الإغماء، تظاهرت بالجلد والثَّبات، أقف

منتصباً قبالة الجثة، لم أفهم ما حدث حتى الآن، ولا المعنى الحقيقي لتلك الحادثة، وخوفي من عبارة "ابتلعه البئر.." أكثر خشيةً من الموت نفسه، وأتساءل:

- كيف يبتلع البئر ولداً، ولماذا اختار وليد...

لقد تنبَّأت أمّي بالحادثة، عندما قالت لي يوماً:

- لا تلعب بجانب البئر ولا تعانده، قد يبتلعك عندما يستيقظ...

البئر شخص بإمكانه أن يبتلع؟، وأن يتحدث!، يستمع إلينا...

- ولكن هل هو بهذا السوء؟

كنا نمسك بالحبل نفسه، نشده معاً بقوّة، نشرب من الدّلو الأسود الذي ينزف ماؤه بسرعة، كبرنا بطعم الماء وبرودته، وارتوينا الحُبَّ جميعاً هناك، سألت نفسي وأنا أستمع للنحيب والبكاء:

- ما السرّ الكامن في البئر؟

بدأ شعوري بالخوف يتلاشى، ومع أصدقائي نقوم بمهمّة إشعال الحطب؛ لتضيء لكبار القبيلة محيط القبر، فقد دُفِنت جُثّة "وليد" مساء، رأيناها هادئة مسالمة، غابت شقاوة صاحبها وعناده، تحت أكوام التراب والحجارة، لقد دفن وليد، وذكرياتنا معه كذلك توارت، بدا مشهد دفنه كمن يمنعونه من الهرب، ويحاصرونه من أيّ محاولة للتَّسلل من تلك الحفرة الصَّغيرة، يرصفون الحجارة بإحكام، وتراب ثقيل ينهال فوق جسده الصَّغير.
المقبرة في طرف تلَّة "الغُراب" هكذا اسمها، ويقول بعض العجائز: أنَّ غراباً جاء مهاجراً من بلد بعيد يعيش هناك على شجرة جافَّة من اثني عشر غصناً، تمثّل شهور السَّنة، قد جفَّت الشَّجرة بسبب شُؤْم الغراب ونعيقه، وكلّ شهر ينتقل الغراب لغصن جديد لاحتلاله، وكلّما انتقل لغصن؛ مات شخص من القبيلة، ويقولون كذلك أن الغراب أعور العين، حين حاول الشَّيخ في شبابه قتله، فقد رماه بحصاة من مقلاعه ولم يمت، اقتُلعت عينه فقط، يبدو أنَّه عاد لينتقم من الشَّيخ، فقد شاهد بعض الأولاد الغراب بجانب البئر يشرب الماء، ويقول آخرون، ومنهم أسعد: أنَّه كان يتحدّث مع البئر، فأيقظه، وطلب منه ابتلاع ابن الشَّيخ، وذلك مقابل أن يتوقَّف الغراب عن إلقاء الحجارة في البئر في الصَّيف عندما يقلّ منسوب المياه.
سألت أمي:

- هل قصّة الغراب صحيحة؟

- نعم، العين بالعين يا عدي... عين الغراب مقابل ابن الشَّيخ... وهناك من يبيعك ليبقى...

- ولكنَّها ليست عينه، بل قتله جميعه...

- الولدُ قُرّة عين أبيه يا عدي...... فقد اقتلع البئر قلب أبيه بدل عينه...

لم أفهم جيداً الحكمة من ذلك إن كان فيها حكمة، والأمر مخيف نوعاً ما، ولا بد لأحدهم أن يقتل هذا الغراب المهاجر لأرضنا، ويحرق الشَّجرة؛ ليعود الغراب إلى أرضه الأصلية. وهكذا نتخلّص من شرّه، ومن انتقامه المتواصل من القبيلة.

الطريق ضيق نحو المقبرة ومنحدر، مرصوف بحصى ناعم، يجب السَّير فيه ببطء، حتى لا تتزحلق، وتتكسر عظامك، ومن باب الوفاء والواجب، علينا زيارة القبر صبيحة اليوم التَّالي، فهي عادة من عادات القبيلة، تأخرت عن الزّيارة قليلاً، فقد هرب خروف صغير من الحظيرة، وتبعته حتى تل "عراد" فقد لحق خراف الأرملة "سهيلة" جارتنا القريبة، فقد ظن أنّه أحد الخراف السوداء هي أمّه، أتعبني ركضاً، حتى استطعت إقناعه بالعودة لأمّه البيضاء الحقيقية لترضعه، كانت مهمة شاقَّة.

بعدها توجهت راكضاً نحو قبر صديقي؛ لأزوره كما يفعل الجميع، ومن أعلى الوادي لمحت زوجة الشّيخ، وبجانبها بناتها، ما أثار انتباهي هي والصَّغيرة "هيام" يسقيان القبر بالماء من القربة، ومعها تُبللان التُّراب بالدّموع، والصَّمت غادر القبور المتهالكة من بكائهن ونحيبهن، لم أقتنع بما يجري أمامي، انتظرت خلف شجرة "الأكاسيا" أراقب المشهد، وتلك الطقوس الغريبة في زيارة القبر، وتساءلت:

- ألا يكفيه ما شربه من ماء البئر حين غرق؟

وتذكرت خبراً من صديقي "أسعد" نقله لي عن جدّه، أنَّ القبور مثل المخازن، توضع فيها الجثث، ويجب زيارتهم وطمأنتهم عن أخبارنا بين الفينة والأخرى، وسقي قبورهم بالماء واجب على الأحياء، وسيأتي يوم يخرج فيه الجميع منها، عندما نصبح جميعاً من حبيسي تلك المخازن.

حينها سألته مقترحاً:

- ولماذا لا نقدم لهم الطعام؟

قال بصوت متردّد:

- سأسأل جدي عن ذلك...

لحظات ليست طويلة، وبدأ زحام الأولاد بالمغادرة، فوجودهم دون فائدة، سوى ركضهم بين القبور، وإزعاج الميتين، وحين ابتعدت شمس الضُّحى عن المكان، غادرن محيط القبر بخطوات صعبة ثقيلة، وهيام تحاول إسناد أمّها على كتفها الصَّغير حتى لا تتعثر، فلمحتني العائلة مختبئاً خلف الشّجرة، فأصابني الحرج، فاحمرّت وجنتاي، حتى الجلد المحيط بعيني اشتعل خجلاً، ولم أعلم سبب خجلي حينها.

بعد كلّ تلك المتاعب والأحزان، التي استمرَّت أربعين يوماً، الحزن فيها رفيق سكان القبيلة، سمعت أمي تقول لجارتنا الأرملة، وهما تحاولان حلب الماشية، أنَّ الحليب قد جف في ضرع الماشية حزناً على "وليد".

أظنني أعلم أنَّ ذلك ليس صحيحاً، فقد حلّ فصل الشّتاء، ومن المعروف لسكان القبيلة، وما نسمعه من كبارها، أنَّ الماشية تخبئ حليبها في بطنها، وتحتفظ به؛ لتشربه في البرد لوحدها، ويكفيها كرماً أن تسقينا طوال فصل الرَّبيع والصَّيف، وبعض الخريف.

الأسى أصبح في القبيلة أقلّ من الماضي، وأصبح الحادث ذكرى تشبه بقعة سوداء في ذاكرتي، كلما مررت عليها أحسست بالعتمة والبرد، وما أكثر الذكريات مع وليد.

اقتربت من القبر بحذر، لم أر شيئاً كما كان أول مرة، التراب تغير لونه، وأصبح عنيداً تنمو فيه بعض الحشائش، وأنا أحمل في يدي فسيلة من نبتة "المجنونة" لأزرعها بجانب قبر صديقي؛ لتظلّل قبره، حتى يبدو المكان أجمل قليلاً مما هو عليه مثل الخرابة، وستتولى عائلته سقيها بالماء، كما تفعل غالباً، وما أن انثنيت بجسدي على القبر، وبدأت الحفر جانب الحجر المنتصب عند رأسه، والذي يسمونه "شاهد القبر"، وقد حفر عليه الشيخ بعض الآيات، وتاريخ موت "وليد"، قاطعني صوت صغير من خلف رأسي تماماً، طالباً مني التَّوقف، فسبَّب لي الرَّعدة والهلع، فظننت أنَّ وليداً قد قام من القبر؛ أو كان خارجاً منه لقضاء حاجة ما وعاد إليه؛ ليمنعني من القيام بذلك، فاستدرت بحذر وبطء شديدين؛ لأستطلع مصدر الصَّوت، فإذا "هيام" وأمُّها تقفان باستغراب خلفي، كم كان صوتها يشبه صوته!، له رنين يلامس اطراف الجلد، ويسبب قشعريرة غريبة!

- ماذا تفعل يا عدي؟

شعرت أنّ ما أقوم به لا يخصني، أو أنه شيء خاطئ انتهك حرمة الميت، أو تدخلاً في شؤونهم، والسؤال يحمل عتاباً مؤلماً، فجازفت بابتسامة بلهاء لأرحب بهما؛ لأنحّي من تفكيرهما إحساس الظلم عني، وعن تصرفي النَّبيل، وأشرح الأمر باختصار:

- أهلا بك يا خالتي، إنني فقط أزرع تلك النَّبتة، كان وليد –رحمه الله– يحبها كثيراً، دائماً يقول عنها أنَّها عنيدة مثله، وأحياناً يقول، إنَّه عنيد مثلها... ينتف أزهارها القرمزيّة؛ ليصنع منها طوقاً لأخته الصَّغيرة... لك يا هيام...

ردَّت زوجة الشَّيخ بسعادة ظاهرة:

- يسعدني يا ولدي أنَّك تقوم بذلك، سأساعدك أنا وهيام...

حمل كبير انزاح عن صدري، تحت سماء تغطيها السّحب، لتزيح الشُّمس سحابة رمادية تغلّفني، وتنثني أشعتها جاثية على وجه هيام؛ فيشعُّ لأراه أول مرّة بهذا الإشراق.

تهزُّ رأسها بسعادة كئيبة، وهي تداعب تراب قبر أخيها، واقترحت أن نروي النَّبتة من البئر، ونسلبه ماءه رغماً عنه؛ ليكفِّر عن خطيئته.

رأيته اقتراحاً طفولياً ينم عن سذاجة ما، ولكنَّه يعبر عن الألم الكامن في ثنايا روح هيام وعواطفها الصَّغيرة، وقالت:

- سواء للزينة، أو أحبها كما تقول، فليس هناك أجمل من الوفاء لشخص تحبه.

ذهلت حين سمعتها، وأصبح وجهي ملفوحاً من صفعة شمس قاسية، قلت بلهجة مرحة:

- أتوقع أن نجد تحتها الظِّل القرمزي في السَّنة القادمة.

فقالت زوجة الشيخ بنوع من الثناء والجديّة:

- إننا محاطون برائحة الموت، وإن كان الأمر كذلك، لعلَّ روح "وليد" تصعد مع زهورها إلى عالم الأحياء مرَّة أخرى.

- وهو كذلك يا خالتي...

عدت إلى الخيمة، واستلقيت بجانب أمي منتظراً طعام العشاء، محاولاً أن ألتقط شيئاً ما أحسست به هناك، مشاعر تتزاحم في ذاكرتي، تلامس عواطفي، أسعى لإزاحة بعضها، وتنقية الكلمات التي سمعتها هناك، دون الرّضوخ لقلبي فقط.

أمي تراقبني بصمت دون أن أدري، وتلتقط ما يدور في عينيَّ من بريق حين التقت عيوني مع عيونها، ونادتني لتناول الطعام، قائلة بضحكة صغيرة:

- لقد كبرت يا عدي...

شعرت ببعض الدَّهشة والخجل، لكنَّ البريق اختفى من عينيها، ودفنت الابتسامة خلف أسنانها منذرة بالتَّحذير، وأكملت بلهجة تخلو من العاطفة:

- لا توقظ عواطفك كلَّها، أمامك حياة طويلة، وجمال الحياة وسحرها ليس في محيط القبر والبئر فقط يا ولدي.

شعرت أن حديثها مبني على واقعة ما، علمت لاحقاً أنَّ الأرملة "سهيلة" أخبرتها بما شاهدته هناك، حين جاءت لتنقل الماء لتسقي خرافها، ويبدو أنَّها أضافت بعض الحماس لما شاهدته وسمعته.

فقلت محاولاً تبرير موقفي، ووجهي يتخذ شكل حصاة تتدحرج من أعلى "تلّ السبع" المهجور:

- نعم يا أمي، موت صديقي أفزعني، ولكنني سأواصل الحياة بسحرها، فكل شيء هنا جميل، ولكن تعاطفي مع عائلة الشيخ، واجب عليّ.

لم يبد على أمي الغضب كما توقعت، بل امتزجت في وجهها حكايات وآمال طالما حدثتني عنها، تسوقني بعطفها وحنانها، وتحاصرني برعايتها وفراسة الأم الصحراوية.

لست أدري لماذا تسوقني قدماي إلى البئر، هل أصبح مزاراً أحج إليه كلما شعرت بالحنين، كثيرون يركضون هناك، يضحكون ويعملون، وأنا أركض نحوه كل يوم، ولا أصل، ألهث بعنف دون تعب، أنظر في البئر، وجهي يتموج فيه، ويتمايل في انعكاس الماء كالأبله، محاولاً الاستقرار على رأي ما، حتى أنني لا أعرف أحياناً من القابع في قاع البئر، وأتساءل في نفسي:

- هل جئت لأشرب من البئر ما أكمل به حزني، أم أروي النبتة من مائه لينمو فرحي...

فأسأل البئر:

- ما نوع الماء الذي سيروي ظمئي فيك، أم أنني أشتاق لشيء بجانبك لا غنى عنه.

أعلم أنَّ الإجابة لن تأتي من قاتل اتفق يوماً مع الغراب، كما قال أسعد، رغم أنني لم أصدقه، ولكنها مواساة تنفع في لحظات الحيرة والضعف، فسأظل أراقب نمو النبتة، وأرويها لتكبر سريعاً.

أجلس هناك أراقب الجميع مستغرقاً في التفكير، فجاء الشيخ عبد الغفار ليزور المكان، وهيام تمسك بأطراف أصابعه، وأسنانها تقضم أطراف أظافر يديها.

دبَّ المشيب في شعر الشيخ قبل الأوان، بدا رأسه مثل ضمة من القطن الأبيض، يعبث بشاربه في شرود، يلفه بأصابعه حيناً، ثمَّ يسحبه لأسفل حيناً آخر، يرمق القبر من بعيد بنظرات خائرة، تأملت عينيه، فبدت بيت عنكبوت نسج شباكه على بياض عينيه، ولكن بخيوط حمراء، عابس يحدِّث نفسه، مثل اليوم الأول لموت وليد، وهيام تحني رأسها، تمشي على ظلّها، تراقب وقع خطواته الثَّقيلة، قلبها يطلُّ من عينيها، مثقلٌ بالهموم، فاليوم الذّكرى الخامسة لوفاته.

تلاقينا عند مفترق الطريق نحو المقبرة، توقفت في مكانها لحظات مترددة في استئناف المسير، وانتبهت أن يدها أصبحت معلقة بيد أبيها الذي ابتعد عنها خطوات... حثَّها على الإسراع قليلاً...

استدار رأسها ببطء مثل نبتة دوّار الشّمس، لاحظت اتكائي على صخرة بالقرب من الطَّريق، ابتسمت للتحية العابرة التي ألقيتها عليهما، وتابعت مسيرها خلفه، والشيخ لم يستمع للتحية أصلاً، فصوتي عميق مخنوق من الحرج، وهيام قرأت حركات شفتي، ولم تستمع لكلمة واحدة.

كبرت بسرعة، ووجهها يشعرك بآلام الوحدة، تزور القبر، تسقي النبتة، ترتب الحجارة، ثم تعود إلى خيمتها... هكذا هي خطواتها، أو سلّم سنوات حياتها التي انطبعت في ذاكرتي.

هيام، فتاة جميلة، لبقة فصيحة، ووجهها صغير، بوجنتين بارزتين، وممشوقة القوام، تتدفق بالصّحة، قويّة وماهرة في كلّ شيء، ومن سيدات القبيلة.

صمت يكتسي بالفرح، يتسلَّل إلى قلبي مثل نمنمة قلب خَدِران، طال اتكاؤه على الشَّوق، وشرايينه عادت تضخ دماءً غير تلك الَّتي تغذيه، دماء من نوع لا يصح التبرع بها، فصيلة نادرة، لم يكن حواراً بين عاشقين، بل بين روحين كادت الصَّحراء أن تجفف أنفاسهما.

الشَّيخ عبد الغفار –كما يعرفه أهل الوادي– صلب جلف، جاف في كلّ شيء، لا تروي غضبته مياه ينابيع الكون، لأنّه لم ينجب إلا ثلاث بنات، بعد موت وليد غرقاً، تزوّجت اثنتان، وبقيت هيام، ومن الطَّبيعي أنها تخشى غضب والدها الشيخ، فالدَّساسون يملؤون الوادي، لم تنطق إلا بكلمات أقصر من سورة الإخلاص، وكان سحبها لحبل الماء ليخرج الدَّلو من البئر، أهون عليها من إخراج تلك الكلمات.

عندما يراني الشيخ في الوادي أرعى القطيع، يقف قليلاً، يهزُّ رأسه بخليط من الإعجاب والاستغراب... حركة رأس غير مفهومة تشبه رأس حصان أربكه شيء ما...

عندما أنظر إلى عينيه مباشرة، يصبح وجهي متورّماً بالمشاعر، أرغب بالصُّراخ في وجهه بمكنونات نفسي... وأرتدُّ مثل كرة إسفنجية، اصطدمت بجدار.

الشمس تميل نحو المغيب، تلقي بخيوطها الذهبية الأخيرة على كثبان الرمال المتوهجة، تذوب في رمال الوقت البطيء. تحت قدميّ الأرض تحترق بلوعة الصمت، وقلبي يخفق ببرودة الأمل عند حافة المقبرة القديمة، حيث تلتفّ "نبتة المجنونة" حول الأحجار البالية.

هيّأتْ فنجان القهوة بيديها المرتعشتين قليلاً، وتصبّ جرعات من شجونها بين السّكر والمرارة. لم تكن تحتاج إلى كلماتٍ كثيرة، فالعيون تبوح بما تعجز عنه الشفاه.

- أبي عاد البارحة...

همستْ، بينما "المجنونة" تتمايل فوقنا، تشهد على اللحظة الفارقة في علاقتنا.

ثم أضافت بلهجة تخلط بين الخجل والترقب:

- تنوّرنا الليلة...

جاءت الدعوة بنسيم عابر، تحمل في ثناياها رائحة الياسمين. عرفت حينها أن أبواب الخيمة ستكون مفتوحة ليس للضيافة فقط... بل لبداية جديدة.

سألت أمي ذات ليلة، بينما الظلُّ الطويل لجسدي يرسم خطاً غريباً على الخيمة:

- لماذا أبدو أطول من رجال الوادي؟

أمسكت بكتفي، ونظرت إليّ بعينين تعرفان الحكايات قبل أن تُروى:

- كالنخلة يا بُني. نبتتَ في أرضٍ قاسية، فاضطر جذعك يعلو بحثاً عن القوة. لا تلُمْ ظلَّ اليتم الذي ربّاك، فلولا جوعك إلى النور، ما بلغتَ هذه السُّمو...

همست لها بخبر زيارة الشيخ:

- هيّام تقول: والدها يريد رؤيتي... ليتعرّف عليّ أكثر...

ضغطت على يديّ وقالت:

- امشِ ولا تهتز. لا تُكثر الكلام، ولا تنث كغصن خاوٍ. الشيخ سيمتحن صبرك، فليكن وجهك صلباً، وقلبك دافئاً تحت الرماد.

لم تسأل عن علمي بنيّته، ولم تستفسر. فحكمة الأمهات نجوم تُضاء في الظلام دون حاجةٍ إلى تفسير.

تهندمت بما تيسَّر، وقبلت يد أمّي بارتجاف شفتي من خوفي، خُيِّل إليَّ أنَّ الطريق أطول من العادة، الرّمال تمسك بقدميّ، ولفح الهواء يصفع وجهي، وعجاج الغبار جعلني أضلّ طريقي، محاذير تطوف حولي من اللقاء، واختبأت الشَّمس خلف الخيمة، فأطلّ والدها من بين رفرفة شرائِطها، أصلب من صخرة انشقت من قمَّة هرم عتيق، وفي ناحية ليست بعيدة، أطلت هيام، تشرق من بين ستائر لا نوافذ لها، تخفي ابتسامتها خلف شالها، فالمسافات مهما كانت بيننا فهي لا تباعدنا.

- سأحاول الوصول إليك، سأقاتل الوادي ورماله، فالأمر ليس تباهياً بالشَّجاعة، بل شعوراً بالحب...

لم أطل النَّظر في عيني هيام، قرأت فيها رسالة جميل فحواها، فامتلأ قلبي وهدأت مخاوفي، وأمّها بجانبها تتفحّص القادم، "سفينة صحراء دون سنام"، –هكذا وصفتني–، أمُّها نوعاً آخر من النّساء، مشرقة من طيبة قلبها، فقد أخبرتني هيام مرَّة أنَّ أمها مثل الجذور، قويّة بعواطفها، كلّها طيبة، وكلامها قليل.

جلست مقابل الشَّيخ، بدأ حديثه بصوت مجلجل كالعادة، وله ذاكرة أكثر وضوحاً من ذاكرتي، رغم سبعين عاماً أو أكثر عاشها في الوادي، ترحمنا على كثير من الموتى، نبشَ أسرارَهم، انتقد ومدح وتأسَّف، وكثيرٌ من الأحياء نالوا نصيبهم، رغم أنَّ القهوة تأخَّرت كثيراً، لكنَّها جاءت هادئة، تفوح منها رائحة الهيل، ومُدَّتْ إليه من خلف ستارة

تفصلنا عن خيمة النّساء، لمحت منها نظرة خاطفة، كنت كمن يسكن تحت رموش ظبية تراني ولا أراها، وما أن تذوقت قهوتها، لم تقوَ شفتاي على حملها، فانسابت قطرات منها على قميصي.
وهنا عاد الشيخ مبتسماً ليكمل حديثه، وهذه المرة تعمَّد الهدوء، يتحدث بعاطفة، يصارع قوَّة حنجرته لتهدأ قليلاً.
بدأ في شجرة عائلتي من جذورها حتى أطراف أغصانها، والمقصوصة منها أعاد وصلها؛ ليكمل الصّورة، وساعات من الليل تتسابق بيننا، أقضيها مثل فارس يسابقه باحثاً عن مهرته في ثنايا كلامه.
بدا لي أنَّه على عداوة مع الجذور والأغصان والأشجار العائلية. وأتساءل في نفسي:
- هل لأنَّه لم ينجب من الذّكور بعد وليد؟، وليس له جذوراً تنمو بعد موته...
لماذا أنا هنا؟ ...
يضيع وقتي بين قصص وحكايات مدفونة، لا تحكيها إلا شواهد القبور، لقد أصبح لقاؤنا مثل طريق ملأى بالهياكل العظميّة، تروي قصصاً عبرت طرقاتها في زمن غابر... ويكمل كلامه:
- أبوك -رحمه الله- رجل طيب كريم، كنت صديقه لفترة، وأمك امرأة فاضلة محافظة.
ثمّ اضطجع على ثلاث مخدات، إحداهن خرجت أحشاؤها من بطنها، أخذ يحملق في وجهي، وأردف قائلاً:
- على كل حال، أعلم لماذا جئت، ولا تقدر على الكلام خجلاً أو رهبة، لو كنت قادراً، لاستطاعت شفتاك أن تحتفظَ برشفة القهوة، ولم تفلت منها.
شعرت بموجة خجل حارَّة تذيب جسدي، بدوْتُ مثل رجل متعب من اللّظى، يشتاق للظّل، ولكنَّني مصمم، وسأبقى، تمنيت لو أنّ الأرض تنشق وتبلعني، لأكون قصّة من قصصه، ولكنَّ الاطمئنان عاد من خلف رفرفة السّتارة، جاءت ضاحكة رقيقة، تسلَّلت ليرفَّ قلبي، شعرت أنَّها غطت عامريَّة الأرض وسماءها..
- أدعوك ووالدتك لزيارتنا بعد عصر الجمعة القادم، لنتفق على التفاصيل...
تسمَّرتُ في مكاني، والتصقت يداي بفخذي، فقامت عيناي بالمهمّة، ترتفع لأعلى رغماً عني، شاكرة الله على بداية تحقق حلمي، غير أنَّني لست واثقاً ما سيكون بعد ذلك.
تجولت في وادي القبيلة حتى الفجر، تائه في الحدِّ الفاصل بين أحلامي وأفكاري، وتشرق الشَّمس جزئياً علينا، حتى خرج بعض الصّبيان يرعون الماشية، واكتفوا بالنَّظر باستغراب إلى هذا التائه في قبيلته وبالقرب من بيته.
وصلت خيمتنا، أمّي تجلس في طرفها، تحني رأسها على "غربال" من القشّ، تتفقَّد حبّات "الفريكة" تُخرج منها كلَّ دخيل، تخيلت أنَّها تعدُّها، وبجانبها حفرة نمل، تسير بنظام، وتنقل ما تلقيه لها من حبّ أسود مسوّس؛ لتخزنها في حفرتها، بدا المنظر نملة تحمل الأخرى... مشهد يلخص الحياة، كلنا يعطي الآخر، حتى لو كان مسوّساً.

رأسي ثقيل، فاتكأ على كتفها من تلقاء نفسه، بعد أن قبّلت رأسها، أمسكت بيدها الأخرى، فقالت:

- سيوافق، لا تقلق...

ساد الصّمت بيننا قليلاً، سيّد الموقف بلا منازع، أتأمّل حركات يدها، ودقتها مع حبات "الفريكة"... عندها مخاوف واضحة، وبعض التّوتر جعلها تلقي حبّات سليمة إلى النّمل، فقلت:

- هل أنت واثقة...

- نعم، واثقة، ولكنه سيطلب منك مهراً غريباً... فقد نقلت الأرملة سهيلة الخبر من والدتها.

- تناول فطورك، تمدّد قليلاً، فالماشية بحاجة لمن يعتني بها، وهي تنتظرك...

خرجت مسرعاً، أحمل زوّادتي على حصاني، أقود القطيع للوادي، فالشّفق يحفظ موعدنا، فكانت في الموعد تجمع الحطب، وبعض الأعشاب، وتعتني بباقة من الأزهار، وابتسامة بحُمرة خجولة تغطي وجنتيها، وحبات من العرق تجمّعت على جبهتها الضّيقة، وضعت الباقة على الصخرة بجانب البئر، وبيدها المرتعشة أشارت إليها.

وبدوري، وما قاد إليه تفكيري المضطرب، وبخطوات حذرة متلصصة تسترني فيها نبتة المجنونة، ألقيت بجانب البئر حُزمة من القشّ أخفيت فيها رسالة من ورقة واحدة.

ضحكت ضحكة قصيرة، وحملت الحزمة بعد أن استطلعت المكان، وضمتها إلى حزم الحطب التي يحملها حمارها وغادرت الوادي...

- آه يا هيام... سرعان ما تأتي، وسرعان ما تعود... سأفتقدك كثيراً حتى يوم الجمعة...

أسبوع قاس، تسمرت أيامه مكانها، الشمس بطيئة لا تتحرك، والقمر بحاجة لمن يقنعه بالظهور؛ ليكمل نظام الكون.

- سيكون يوماً قاسياً... هذا ما أتخيله

لم تأب مشاعر الشيخ الإطراء علي عندما جلسنا مساء، نظراته لائمة نحونا، ولكن هناك شعور بينهما، لمحت نظرات حزينة تنساب من عيني الشّيخ لأوّل مرّة، عندما قالت أمي:

- من ستتزوج ابني، ستكون أسعد امرأة في الدنيا، لا يوجد من هو في صفاته ولا أخلاقه، ساعد الجميع، ووقف مع الكبير بشجاعته، والصّغير بلطفه، لا تنسَ يا شيخ، عندما هاجمت الريح الوادي، من تمسَّك بعمود خيمتك حتى لا تطير؟

- أنا أثق أنّه سيحافظ على...

قبل أن تنطلق كلماته، توقف للحظة، وتذكر شيئاً طواه الزمن. وعيناها تحدقان في الشيخ بعمق، وفي صوتهما رنين حكاية قديمة:

- ذات يوم، كان لك مطلب... ورأيي كان ابني.

وبمشاعر فياضة قالت:

- إن كنت ستعاقب الماضي... فالماضي مات بعد أن فات... ولن يعود...

خشيت أن يقول لأمي قولاً خشناً، فتنفلت أعصابي، ونتجه للنزاع بدل الاتفاق. فقلت بنبرة هادئة متوترة:

- لقد جئنا يا شيخ لنتفق كما قلت، ما طلباتكم؟

سكت الشيخ لحظة، ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة هادئة، وجد ضالته بعد طول انتظار. أمر بإحضار القهوة، ثم أضاف بنبرة تحمل في طياتها قراراً مصيرياً:

- لتُحضرها هيام بنفسها... ولتجلس معنا.

ارتعد قلبي من فرط ما سمعت:

- هل الشيخ يفتح باب الخطبة رسمياً؟

هل أرادها شاهدة على هذه اللحظة، إعلان صامت بأنها ستكون شريكة العمر، لا مجرد خادمة للضيافة؟

لمحت أمي نظرة الموافقة في عينيه، بينما هيام تخطو نحونا بحركة متزنة، وتعرف أن مصيرها يكتب الآن بين رشفات القهوة وهمسات الرجال. أصوات أقدام هادئة تقترب، وحواسي تتبعها، لم يطل الأمر إلا بعض دقات قويّة من قلبي، فأشرقت الخيمة فيها، لحظة بعد أخرى، ... ثوان معدودة، حتى سمعت...

- أسعد الله مساءكم جميعاً، خالتي أمّ عُدي.... كيف حالك؟

- مرحباً يا ابنتي الجميلة

أحقيقة ما تراه عيناي ويحصل...؟!

أطلت عليّ مادة فنجان القهوة، لم أجرؤ على رفع وجهي عن عيني الشيخ، حتى أقدر على حبس مشاعري داخل عيوني، ولا تخونني نظراتي إليها، سأبقى رغماً عني محتفظاً بهيبة ما، أستمدها من عينيه الجاحظة فيّ.

أخذت فنجاني، وقلت:

- أشكرك، وأسأل الله أن يجمع بيننا في خير وسعادة.

لقد زال قيد آخر... بينما نسمات المساء الباردة تعبث بأطرافها، رأيتها تفرك كفيها في ساقيها محاولة إيقاد شرارة دفء. غريب أمرها – هل خُلقت من تناقضات؟ – تشع دفئاً من بعيد، وتشعر بالبرد في نفس الوقت حين تكون قريبة.

احتضنتها أمي، وأجلستها بجانبها، وأنا لا أدري ما تخبئه الدّقائق القليلة القادمة، فتنحنح الشيخ، فأفقت من ذهولي، وقال ضاحكاً:

- ما بك يا عدي، هل رأيت شبحاً، هيام ستصبح خطيبتك، وسنقرأ الفاتحة...
- أم أنّك نسيت لماذا جئت؟

وبصوت بدى الارتعاد فيه واضحاً، والذُّهول سيّد الموقف... لم تكن القهوة، بل جرعة قويَّة من ماء يغلي...

- ماذا قُلْتَ يا شيح؟
- أنا عمُّك الآن، وقلت، هذه الخجلة التي تجلس أمامك ستصبح خطيبتك، وسنقرأ الفاتحة...

ابتسمت ابتسامة النصر والفرح، وربّت على يد أمي، وقبلت رأسها، ونظرت إلى هيام وهي ثانية قدميها في وضع أتعبها قليلاً وقلت:

- أعلم أنها أصبحت وحيدة أبويها، مدللة لا يرفض لها طلب.

حاولت أن تغير من جلستها، فمدت قدمها قليلاً؛ فاصطدمت بفنجان قهوتي، فانسكب على رجلي، فضحكنا جميعاً على سذاجة الموقف حينها ذكرنا الشّيخ أن حظي مع القهوة دائم الانسكاب...

وتابع الشيخ حديثه...

- لا تظن أنّني لا أعلم برغبتك بالزّواج من هيام، ولولا أنّ ثقتي بك في محلها، لما سمحت لك بالاقتراب من طرف ثوبها، فظللت أزجُّ بك داخل حياتنا؛ لتصبح أنت الشّخص الوحيد الذي أمامها. ليمتلئ قلبها بمن نثق به ونأتمنه عليها...

الشيخ يعلم أنني نشأت بين الخيام والرمال والجمال، وتعلّمت منذ صغري فنون الصيد والترحال من والدي وجدي. ولدي معرفة واسعة بالتقاليد البدوية وقصص الأجداد، وأحب قضاء الوقت مع أصدقائي والاستماع إلى حكاياتهم. وأردف قائلاً:

- قلبك ملك للقبيلة، وابنتي هي الفتاة التي رآها قلبك لأول مرة في طفولتها عندما تزور قبر أخيها. منذ ذلك الحين، لاحظت أنك أحببتها في صمت، أو تريد أن تظهر بعد الوفاء لصديق الطفولة، منتظراً اليوم الذي تستطيع فيه طلب يدها.

- واعلم يا بني أنها ابنة الشيخ، زعيم القبيلة المعروف بحكمته وشجاعته، لكنها أيضاً تتعلم وتقرأ بفضل تربيتي لها.

يعلم عدي أن موافقة الشيخ عبد الغفار لن تكون سهلة، خاصةً أنه من عائلة أقل نفوذاً. لكنه مستعد لمواجهة التحديات لإثبات حبه وشجاعته. بدأ الحوار بينهما بجدية هذه المرة...

- أعرف أنك تريد ابنتي، ولكن في حياتنا البدوية، الرجل يجب أن يثبت أنه قادر على حماية عائلته، وتوفير ما يحتاجونه. إذا أردت أن تتزوج هيام، عليك أن تجتاز اختباراً...
- أنا مستعد لأي تحد سيدي. سأفعل أي شيء؛ لأثبت أنني قادر على حماية هيام....

واجه عدي تحدياً صعباً وضعه الشيخ عبد الغفار، فطُلب منه قتل "الغراب الأعور". هذا الغراب رمز لحزن الشيخ، ويشكل تحدياً له منذ شبابه، ولم ينجح أحد في قتله منذ سنوات.

لم يتردد عدي، أعد نفسه وانطلق في رحلة مضنية عبر التلال المحيطة، وخلال الرحلة، واجه عواصف رملية وحر الصيف القاسي، وإصراره على الفوز بهيام أقوى من أي عقبة. بدأ عدي في رحلته للبحث عن الغراب الأعور، الذي يعيش عادة في الأشجار العالية، مما يزيد من صعوبة المهمة.

في ليالي الصحراء الهادئة، عدي يتذكر هيام وأحلامهما المشتركة، ليكون أكثر إصراراً على إيجاد هذا الطائر الصغير.

في أحد الأيام، وأثناء البحث في الصحراء، رأى عدي الغراب الأعور يقف فوق شجرة تعلو على كل ما حولها، مما جعل الغراب يعتقد أنه في مأمن من أي تهديد. عدي لم يكن لييأس. قرر أن يستخدم الحيلة والقوة معاً لتحقيق هدفه.

أخذ قوسه وسهمه، وركز جيداً على الغراب. يعلم أنه بحاجة إلى تسديدة واحدة، دقيقة وقوية، للإطاحة به. ومع أن رياح الصحراء قوية، استطاع عدي أن يبقى ثابتاً ويسيطر على نفسه.

بعد أن تأنى في التصويب، أطلق السهم بدقة نحو الغراب. فأصابه في جناحه، مما أدى إلى سقوطه من الشجرة العالية.

وبعد سقوطه، هرع عدي نحو الشجرة ليتأكد من أنه قد قتله، ووجد الغراب ملقىً على الأرض بلا حراك.

جمع بقايا الغراب ليعود إلى قبيلته منتصراً، بعدما أثبت شجاعته وذكاءه في مواجهة هذا التحدي الصعب.

حينها رأى الشيخ عبد الغفار الإصرار والشجاعة في عيني عدي، أدرك أنه قادر على مواجهة التحديات. وبصوت مملوء بالعاطفة قال الشيخ عبد الغفار:

- لقد أثبت أنك رجل صادق وشجاع، قادر على تحمل الصعاب والوفاء بوعودك. لذلك، أمنحك موافقتي على الزواج من هيام.

فرح عدي وهيام فرحاً كبيراً، وتم الزفاف في ليلة مقمرة، حيث اجتمع أفراد القبيلة للاحتفال.

منذ ذلك اليوم، عاشا معاً في خيمة واحدة، يتشاركان الحب والمسؤولية، يحافظان على تقاليد أسلافهما البدوية. هيام تساند عدي في جميع تحدياته، وعدي يقدر دعمها، ويشعر بامتنان لوجودها في حياته.

ووسط ظلال الوادي، الذي كان يوماً رمزاً للسلام، وقف الشيخ عبد الغفار في الماضي شامخاً، محاولاً مواجهة الغراب، هذا الطائر الذي حمل معه الظلم والفرقة. حاول بكل ما أوتي من قوة وشجاعة، ونجح في اقتلاع عين الغراب، تاركاً علامة لا تُمحى في ذاكرته. لكن الغربان وقتها وبجشعها وظلمها، لم تنسحب، بل استمرت في نشر الظلام في أرجاء الوادي.

مرت السنوات، حتى بزغ يوم جديد، يوم عرفت فيه الغربان أن زمنها قد انتهى. وقف عدي، الشاب الجريء، يستلهم من شجاعة عبد الغفار، عندما قرر أن يضع حداً لهذه الحكاية. يوجه ضربته القاتلة إلى كل غراب يحاول أن يقترب من الوادي، فتهاوت قواها وسقطت.

لم تكن تلك النهاية لطائر واحد فقط، بل إشارة واضحة لكل الغربان أن الوادي لم يعد ملاذاً لها.

بفعلته البطولية، أشعل عدي شرارة الأمل والحرية بين شباب الوادي، الذين وقفوا صفاً واحداً، يرددون بصوت واحد:

- لن يعود الظلام إلى هنا أبداً.

هكذا تحول الوادي إلى رمز للوحدة والشجاعة، وحكاية تُروى للأجيال عن شيخ بدأ المشوار وشاب أكمله بشجاعة.

بعد مرور أشهر على زواجهما، أنجبت هيام طفلاً جميلاً أسمياه "وليداً" تيمناً بابن الشيخ عبد الغفار الذي ابتلعه البئر قبل سنوات.

كان وليد نوراً ساطعاً في حياتهما، يملأ الخيمة بضحكاته البريئة، وحركاته الفضولية. ولما علم الشيخ عبد الغفار بالأمر، امتلأت عيناه بالدموع. وجد في وليد تعويضاً عن الفقد الذي مر به، وعرف أن الحياة دائماً تمنح فرصاً جديدة للبداية.

عاشت العائلة الصغيرة بسعادة وسلام، بينما وليد يكبر وينمو بين حب والديه ورعاية جده. وعدي يروي له قصص مغامراته في الصحراء وتغلبه على التحديات ليحقق وعده، ويكسب حب أمه هيام، ليعلمه دروس الشجاعة والصبر والإصرار.

بهذا أصبح وليد رمزاً للأمل الذي استمر، موثقاً ذكريات الماضي الجميل، وآمال المستقبل الواعدة.

كمّـــامـــــة

كُلُّ شيءٍ تغير في لمح البصر. توقف أبي عن الذهاب إلى مصنع الطوب، حيث يقضي ساعات يومه بين الغبار والأسمنت، واختفى كذلك من مقهى الحي ملاذه الصباحي، ليس لأنه قرر ذلك، بل لأن الأبواب أغلقت بقرار حكومي طارئ. الآن يجلس ملتصقاً برباط أمام شاشة التلفزيون، بسرواله الأبيض الباهت، وفنجان القهوة الذي فقد وجهه، بينما إبريق شاي الصباح يجثم بارداً بجانبه، تخلّى عن مهمته في إضفاء الدفء على اليوم.

عيناه مثبتتان على الناطق الرسمي، الذي يعلن بأسلوب جافٍّ أن عدد المصابين ارتفع إلى مئتين، وأن هناك روحاً واحدة قد فارقت الحياة.

أما جدي، فقد اختار ساحة البيت مكاناً له، أشعة الشمس المتسللة من الباب تضيء وجهه المتجعد العابس. يجلس هناك، يلف سجائره من "الهيشة" حركاته في لفّها يدوية ماهرة، يمرر لسانه على طرف الورقة، كمن يسخر من الدنيا كلها، ثم يشعلها بينما يراقب المارة القلائل من وراء الباب، فقد أصبح حارساً لزمنٍ لم يعد موجوداً.

وفي غرفة أخرى، يمارس إخوتي الصغار أنواع الشقاوة والألعاب التي تخترعها براءتهم، محولين الغرفة إلى ساحة معركة من الوسائد والضحكات العالية.

وأمي في المطبخ كعادتها، تحارب على جبهة أخرى من حرب الوباء التي لا ترحم. بين أكوام الصحون المتراصة، وبين هدير الغسالة الذي يختلط مع أنفاسها المتعبة، تحاول أن تُمسك ببقايا قواها.

عيناها تقرآن تعباً أعمق من مجرد إرهاق، خوفها يختبئ خلف حرصها على تعقيم كل شيء، تقاوم الموت نفسه بمنشفة معقمة (بالأسبيرتو) ومرطبان (كلور) معلق على باب المطبخ.

- ماما، أنا جوعان...

تسمع صوت أحدنا، فتنحني مرة أخرى فوق الموقد، تحوّل بقايا الثلاجة إلى وجبة تُشبه المعجزة، بينما قلبها يتساءل:

- هل يكفي؟ هل الطعام آمن؟

هل سأستيقظ غداً لأجدهم بصحة جيدة؟

صوت التلفاز يذيع أرقام الإصابات، يدها ترتجف وهي ممسكة بالملعقة، تتنهد وتواصل، فالأمهات لا يملكن رفاهية التوقف. وفجأةً، يصرخ أبي من الغرفة:

- وقفي صوت الزفت...

فَتجمُد لثانية، الصوت مزّق حاجزاً بنته طوال النهار لتواجه الخوف. ثم تهمس وهي تعدّل "شالها" على وجهها:

- اللهم أحفظهم...

قبل أن تعود إلى دورة المغامرة اليومية: غسيل، طبخ، تعقيم، قلق... وانتظار لنهاية لا تعرف شكلها .لأن الأخبار لا تنتظر، والأرقام تتزايد، والعالم خارج البيت يبدو أكثر غرابةً وتهديداً كل يوم.

يوم الخميس يوم آخر، يحمل في طياته نذير تغيير كبير. في المدرسة، وقفنا لتحية العلم، وأنشدنا "فدائي" بأصوات ملؤها الحماسة، لكن شيئاً مختلفاً.

في طابور الصباح، بدأ الطلاب يتهامسون عن خطر غامض يتسلل بيننا، خطر لا يُرى لكنه يحس. بعضهم ارتدى الكمامات، مثل أبطال خارقون من عالم "النينجا"، بينما فرك آخرون أيديهم بمادة هلامية غريبة يسمونها "الجل"، لتشكل درعاً واقياً من عدو غير مرئي.

أما أنا واقف بينهم، أشعر بالقلق الذي يعتصر قلبي، لكن شيئاً آخر يملؤني... الغيرة!

نظرت إلى سارية العلم، وتساءلت في صمت:

- لماذا لست مثلهم؟

هم مستعدون لمواجهة موت يجتاح العالم، وأنا واقف بلا سلاح وكمامة، بلا "جِل"، جندي أحمق نسي درعه في ساحة المعركة.

همست في نفسي، بصوت مسموع بين ضجيج الطلاب وتمتماتهم، التي تُسرق بعيداً عن أعين المعلمين وآذانهم:

- نفسي ألبس كمامة...

أقف على حافة عالمين، عالم فيه زملائي يرتدون الكمامات، ويتسلحون "بالجِّل"، يحملون دروعاً ضد الموت، وعالمي حيث يداي فارغتان، وقلبي مثقلٌ بالقلق. نظراتي تتجول بين الوجوه المغطاة، أبحث عن إجابة لسؤال لم أجرؤ على طرحه:

- لماذا أنا الوحيد الذي لا أملك ما يحميني؟

أشعر بالخجل، ليس لأنني لا أملك كمامة، بل لأن العالم من حولي بدأ يتحول إلى مكان غريب، مكان يحتاج فيه حتى الأطفال إلى أدوات للحماية. فقط أريد أن أكون مثلهم، أن أشعر بالأمان، أن أكون جزءاً من هذا التحول الجديد، لكن الظروف لم تسمح له بذلك.

ثم حاولت أن أعزي نفسي بقول:

- إنها مفقودة من السوق...

وإلا فلماذا سيتركني والدي دون واحدة. في أعماقي أعرف أن الكمامة لم تكن مجرد قطعة قماش بيضاء، بل رمزاً للأمان في عالم من اليأس بدأ يفقد توازنه.

دخلنا غرفة الصف، ودقّ الجرس معلناً بدء حصة تلو الأخرى، جرس إنذار لسلسلة من المحاضرات الطبية الطارئة في كل حصة، لا بدّ من سماع نفس التحذيرات:

- احذروا المرض، اغسلوا أيديكم، ابتعدوا عن بعضكم... عقموا كل شيء...

ظننت أن المعلمين تحولوا فجأة إلى أطباء، أو ربما انضموا متطوعين إلى حملة عالمية للوقاية.

مللتُ من تكرار المعلومات نفسها منذ الصباح، يعتقدون أننا نسينا ما سمعناه قبل عشر دقائق:

- نعم، فهمت يا سادة، المرض خطر، والوقاية ضرورية، لست بحاجة إلى سماع ذلك في كل حصة، بل أنا فقط بحاجة إلى كمامة لأحمي نفسي كالآخرين... وكما تطلبون!

وفي خضم التصريحات الجادة عن الإجراءات الوقائية، الواقع يضحك في وجهنا، أهمس لأخي الصغير ساخراً:

- ما زلنا نشرب من نفس الصنبور واحداً تلو الآخر، ونستخدم المرحاض نفسه بأعداد كبيرة، فهل تطهّر المكان بالسحر، وفي الصف نتعارك ونتزاحم، وأصوات العطاس والسعال تأتي من كل اتجاه، مثل موسيقى خلفية لفيلم رعب.

فأين الإجراءات الوقائية التي يتحدثون عنها ونحن نغرق في الكارثة؟

أم أنها مجردِ كلمات تُلقى في الهواء ونحن نعيش في واقع مختلف تماماً؟

في حصة الفنون، الحصة الأخيرة التي تعتبر ملاذنا من الروتين، تحولت إلى مشهد غريب يثير الحيرة والاستغراب. المعلم، الذي كان يجلس في زاوية الصف القريبة من الباب، بدا يحاول الهرب من رائحة أنفاسنا المختلطة في الغرفة، فالهواء نفسه أصبح خطراً يهدده.

جلس على كرسيه، منشغلًا بهاتفه، بينما نحن نتوزع بين همسات خفيفة بين الأصدقاء، وزميل آخر معروف بجديته المفرطة في الحصة.

المفارقة كانت في أدوات الرسم التي امتلكها البعض، بينما تحول حديثنا عن الكمامات وأنواعها إلى موضوع الساعة أصبحت ألوان "الأكريليك" مجرد خلفية صامتة، وتحولت أقلام الرصاص إلى أدوات لرسم مخططات لكمامات(N95).

في زاوية الصف في اليوم التالي كنا نتبادل سابقاً قصص أبطال الألعاب الإلكترونية، وجدت نفسي أجلس في دائرة مختلفة تماماً. صالح مد يده نحو حقيبته بلهفة الطفل الذي يريد إبهار أصدقائه، هذه المرة لم يخرج لعبة أو غداء، بل كمامة زرقاء مجعدة.

- جربوها!

قالها بحماس بينما يمررها بيننا:

- إنها ناعمة مثل قميصي الرياضي...

في المقابل، محمد يعدّ كماماته الثلاث بعناية، أمين مكتبة يرتب كتبه النادرة:

- هذه للخروج، وهذه للطوارئ، وهذه...

توقف ثم همس بسرية:

- هذه احتفظ بها لأعطيها لابنة عمتي...

رأيت عينيه تلمعان بينما يربت على جيبه حيث تطوى الكمامة المزينة برسوم "باتمان".

فجأة، انفتح الباب بعنف. دخل عبد العزيز يجر قدميه، كل الأنظار التصقت بالحقيبة الغريبة التي يحملها.

- انتظروا حتى تروا هذا...

قال وهو يفتحها ببطء، ليخرج قناع الغاز القديم الذي أخذه من أخيه الأكبر. ضحكنا جميعاً عندما وضعه على وجهه، لكن ضحكنا توقف عندما قال بجدية غير متوقعة:

- أبي يقول أن هذا قد ينقذ حياتي يوماً ما...

وسط هذه الفوضى، ظهر طلال من بين الحشود بطل خارق من عالم الفضاء، معقم اليدين في يد، والقفازات في الأخرى:

- خط الدفاع الأول معي...

أعلن وهو يوزع كحولاً معطراً على أيادي ممتدة. حتى المعلمة ابتسمت وهي تراقب المشهد من بعيد، بينما كان يشرح بنبرة خبير:

- المهم ألا تلمس وجهك أبداً... حتى لو حككت أنفك..

جلست أتأمل هذا المشهد الغريب. تذكرت كيف كنا نتباهى سابقاً بأحدث الألعاب والهواتف، واليوم أصبحنا نتبادل النصائح عن أفضل أنواع الكمامات، ونفحص بعضنا البعض:

- كمامتك مقلوبة! لم تغسل يديك كفاية!

حتى لعبة "التقليد" التي نلعبها في الفسحة، تحولت إلى محاكاة ساخرة لكيفية "السعال في المرفق بشكل صحيح." في عالمنا المقلوب هذا، لم تعد الألعاب الإلكترونية أو الملابس الجديدة هي ما يثير الإعجاب. أصبحت الكمامة التي تشبه تلك التي يرتديها الأطباء في المسلسلات، أو عبوة الجل المعقم التي لا تنتهي، هي وسيلتنا الجديدة لإثبات أننا "مستعدون" لهذا العالم الغامض. بين هذه الأدوات والاستعدادات، ظل السؤال الأهم يدور في رأسي:

- متى سنعود نتباهى بأشياء الأطفال الحقيقية مرة أخرى؟

عاد معلم الرياضة إلى ملعبنا، فارس من العصور الوسطى، يتلحف بكمامته التي تغطي نصف وجهه، ويأبى انفه الاحتماء داخلها، يشعر بالاختناق، ونظاراته يغطيها ضباب أنفاسه المتلاحقة. يتحرك بحذر بيننا، يتجنب ألغاماً غير مرئية، بينما نحن نروي ذكريات من عالم لم نعد نعرفه.

وأحياناً، ينسى نفسه ويقترب أكثر من اللازم، نراه يتوقف فجأة، قد تذكر أمراً مهماً، يتراجع خطوتين إلى الوراء، ليعيد حساب مسافة الأمان بيننا.

بعد انتهاء دوام ذلك اليوم، وفي طريق عودتي إلى البيت، أمسكت بيد أخي الصغير بلال لنعود سوياً، لأن زميلاً له اعتاد مضايقته، ويسخر منه دائماً، لأن أخي يلبس نظارات سميكة، ويلقبونه بالأعمى؛ لكثرة تعثره بالطريق

- أعتقد أنه يتعثر لارتدائه حذاءً أكبر من مقاس قدمه دائماً..

دخلنا إلى قلب المخيم، حيث تتدلى أسلاك الكهرباء العشوائية في كل اتجاه، كل سلك منها يهمس بقصة، هذا يحمل أنين مروحة بالية في حرّ آب، وذاك ينقل ضحكات أطفال لم يعودوا يجرؤون على اللعب في الزقاق.

مقهى الحاج محمود نبض الحي، يقف الآن صامتاً بوجهه المغلق. والزبائن الأوفياء لا يخونون موعدهم الصباحي، فقد تحول السور الخارجي إلى مقهى مفتوح. عبر شقّ في الباب تنزلق أكواب بلاستيكية دافئة كما لو تهرب من سجن، بينما يتبادل الرجال النكات بخفّة، فالفيروس لا يستطيع عبور حاجز السخرية الشعبي.

على الرصيف المقابل، حيث كان المصلون يكدسون أحذيتهم أيام الجمعة، نصب أبو عبود خيمة مؤقتة من أغطية بلاستيكية معلقة بعصيّ خشبية. بين الطماطم الذابلة والبطاطس المتواضعة، يدير "سوبرماركت الفقراء" ببراعة، خضاره موزعة بعناية كي لا تلمس الأخرى، وفي الزاوية، جلس العجوز أبو ياسر يبيع السجائر مفردة، فالوباء علم الناس أخيراً اقتصاديات التدخين.

الأصوات تتصادم في الهواء:

- خيار يا عالم! سعر ببلاش...

ليصرخ طبيب عيادة الوكالة:

- ممنوع التجمعات... يعني شيلوا الكراسي وابعدوا عن بعض...
- والله لو الفيروس جوعان.... كان طلع من هالبلد..."

تحت سقف من الهموم اليومية، يخترع الناس هنا طرقهم الخاصة للبقاء. فإذا كانت الدولة تعقم الشوارع بالكلور، فهم يعقمون الخوف بالمزاح، وإذا التعليمات تنادي بالتباعد، فهم يمارسونه بطريقتهم، مسافة ذراع بين البائع والمشتري، مع ابتسامة عريضة تكسر كل القيود.

توقفنا متأملين على باب الصيدلية نراقب أنواع الكمامات وأسعارها، قررنا توفير مصروفنا؛ لنشتري كمامة نلبسها بالتناوب، واتفقنا على البدء من الأسبوع القادم.

لم نعلم أنه ليس هناك أسبوع قادم، فقد تقرر إغلاق المدارس دون علمنا، سنبقى في البيت، حجر صحي، ممنوع الخروج، ممنوع العمل، ممنوع الزيارات والأعراس، وحتى دَفْنُ الموتى تَغيّر، كل شيء توقف، حتى الزمن توقف بعدما اختُصِرَ الآذان. وتزوجت ابنة الجيران دون عرس وحفل ساهر، وتلبس كمامة مع الطرحة.

زاد خوفي من فوضى الحياة، فوضى فوق فوضى المخيم، تُغْلَقُ الطُرقات، وتوضع عليها المتاريس الحجرية المزينة بالإطارات الملونة، تحوّل المخيم لسجن كبير، ضاق علينا أكثر، الخُروجُ للعب مخاطرة، ومعانقة أمي كذلك مخاطرة ما نَلمَسه خَطراً.

صمتت الكلمات في المخيم، وتبعثرت الحياة مساء عن الشوارع، سوى من بعض اللامباليين، وتبقى بعض الأضواء حتى الصباح؛ لتحكي حكاية البيوت، فبعضها طبعته حالة من السهر واللعب، والأخرى اختصرت سهراتها بكلمات بائسة تختصر حال أصحابها:

- كورونا ومساعدات، وكرتونة... صندوق وقفة عز؟!

والدي يزداد توتراً، ليس من المرض المحيط بأنفاسنا، بل سمعته يقول لأمي:

- من وين بدي أطعميهم؟

وأمي تشدُّ من أزره، فالصبر طبعها، الله لن ينسانا، عندنا بقايا طحين، والأرز فيه كفاية، والعدس رخيص...

وجدي لا يدرك ما يحيط بنا من أحداث، فهو يطالب بحصته الأسبوعية من "دُخان الهيشة"، فقد قارب ما لديه على الانتهاء.

وأنا وأخي "نريد كمامة"

نهرٌ بضفتين
(بعض الأحداث مستوحاة من واقع حقيقي)

تشرق شمس يوم جديد، عادتها التي لا تتغير على جسدي، نهوضي من الفراش يحمل في طياته قصة مختلفة. نومي لم يكن سوى محاولة لإخفاء جسد يلتف حول نفسه، فالصباح يطوي رداء بالياً ملَّ من كثرة الاستخدام.

أتظاهر أحياناً بأنني ما زلت نائماً، رغم أن التعب لم يعد يشدني إلى السكينة، ولم يعد يمنحني النوم تلك الطمأنينة التي أبحث عنها.

عندما يستيقظ دماغي، يكون مصحوباً بصوت مشوَّش، أحلام تتحول إلى صدى بعيد، أشبه بصوت جرش إزالة الصدأ عن قطعة معدنية دفنت في التراب دهراً من الزمن. تبدأ ذاكرتي بالتجول في أرجاء الغرفة، تبحث عن تلك الأحلام الجريئة التي ستخرجني من عالم الضجر إلى دنيا الأمل، لكنها تبدو الآن بعيدة، فقد اختفت مع أول خيوط النهار.

أتململ في فراشي، بوصلة تدور إبرتها حول محورها، باحثة عن اتجاه واضح في عالم مليء بالضباب. إبرة البوصلة تشير إلى باب غرفتي، وإلى أمي بالتحديد، التي أول من يسمع همسات استيقاظي.

أحياناً أظلُّ في مكاني، ما زلت حبيساً بين النوم واليقظة، بين الواقع والحلم، بين الضجر والأمل.

هذا الاستيقاظ ليس مجرد نهوض من الفراش، بل رحلة داخلية تبحث عن معنى جديد، ليس نسخة عن سابقه، يحمل في طياته إمكانية للتغيير، حتى لو كانت صغيرة.

جسدي مفكَّك بأكمله مثل لعبة سقطت من يد طفل بعد جهود طويلة في تجميعها، وصرت ليناً لا أعارض الطيّ والإزاحة أسهل من لعبة قماشية تركت في غسالة تتقاذفها الأشياء دون إحساس على الإطلاق، غير أن عقلي الذي فقد حدَّته يطفو بعيداً كل مرَّةٍ عن جسدي المنهك، ومقصلة القدر نفذت حكمها فيه مبكراً، يبحث عن نفوذ ما، ومعطل عن أي شعور بالتوقع.

الشعور بالغضب مثل الشعور بالنُّعاس، أو ألم الاستيقاظ المفاجئ من حلم مزعج يلف الجسد، تلك اللحظات المحرجة للزحف نحو المرحاض. أو عندما تجبر نفسك على تحمل طقوس ومراسم الاستحمام، حتى تناول الطعام وشرب كأس من الشاي الفاتر –حتى لا أحرق جسدي الميت– أصبح عبئاً ثقيلاً ومهمة شاقة.

أُعاني من عقدة المكان، المساحة الضيقة التي أشغلها تشعرني بالاختناق لا يهمني الزمان ولا الأحداث؛ فالمهدئات تقوم بعملها بكفاءة، تدفن أي رغبة في الرفض أو الاحتجاج، لا أملك حتى خيار الرَّفض ولا أعرفه، فكلمة "لا" محيت من قاموس كلماتي.

حياتي محصورة في حفرة مكعَّبة الشكل يسمونها غرفتي، أحياناً أتمنى أن تصطدم قدمي في طرف السرير، أو أن أغلق الباب على أصبعي، فقط لأشعر بشيء. أو أي شيء يذكرني بأنني ما زلت على قيد الشعور بالحياة.

الإحساس المفزع بالرقود في الظلام يلتهم روحي، أجد نفسي مكوماً في زاوية البيت، مثل غطاء قديم ينتظر استخدامه في يوم ما، أتمنى لو أستطيع التململ لأشاهد الحديقة؛ أو طرد تلك البعوضة الحمقاء التي تتغذّى على دمي، أتركها حتى تكتفي منّي، لأنها والزمان سواء في نظري. كلاهما يأخذ دون أن يعطي، وفي النهاية أهمس لأمي:

- لنكن مرحين مهما حدث..

تقولها أمي لي دائماً، جملة تحمل في طياتها أملاً غامضاً: "لنكن مرحين مهما حدث." ومع أنني لا أعرف معنى المرح الذي تقصده، ولا أجد في نفسي الرغبة حتى في المحاولة، إلا أنني أرسم لها ابتسامة من طرف شفتيَّ المقشَّرة. أفعل ذلك فقط لأنني أعلم أن ذلك يسعدها، وربما يخفف عن قلبها بعضاً من الثقل الذي تحمله.

عيناها الحمراوان الزائغتان تشبهان حبتي فراولة ناضجة، تحيط بهما هالة خضراء مسوَّدة، آثار ليال من السهر والتعب. انحناء جفنيها ينبئ بكل شيء دون أن تنطق بكلمة واحدة. هي لا تحتاج إلى الكلام لتخبرني كم تعبت، فكل خطوة تخطوها، وكل حركة تقوم بها، تحمل في طياتها قصة من التضحية والصبر.

ذات مرة، قالت لي:

- إنه نوع من الكحل الأخضر.

تختلق ذلك، تجمل الكلام لتخفف عني، لتجعل الواقع أقلَّ قسوة. هي تكذب عليَّ أحيانا أكاذيب جميلة، كتلك المرّة التي أخبرتني فيها:

- ستبقى صغيراً، وسأرعاك دائماً. العظماء مثلك لا يكبرون.

التعب نحت عمرها وأطرافها، ووصل إلى عيونها العسليّة الجميلة. أشاهد دموعها تفور برهة من الزمن، لا تبتعد عن فوران الفقاقيع في زجاجة مشروب غازيّ، ثم تتبدد ببطء على تجاعيد خديها، وتسير في أودية وجهها نزولاً، أنهار صغيرة تحمل معها قصصاً من الألم والصبر.

هي لا تشتكي، ولا تطلب شيئاً في المقابل. كل ما تفعله هو أن تمنحني الحبَّ والرعاية، حتى عندما يكون جسدها منهكا وروحها مثقلة. هي أمي، العالم الذي أعرفه، الذي يمنحني الأمان في وسط هذا الألم.

أبقى صامتاً، محاصراً بتلك اللحظات الصباحية الكئيبة التي لا أستطيع الفكاك منها. لا مهرب لي، ولا مفرَّ من هذا الجسد الذي أصبح سجني. حتى الصراخ، ملاذي الوحيد، خفت صوته مع مرور الوقت. منذ كنت في المهد، لم يكن أمامي سوى الانتظار:

أنتظر قرص الشمس حتى يتجاوز جسدي قبل أن يجففه، فأتحول إلى عرجون قديم يابس بلا حياة. كم تمنيت أن أقف أمام المرآة مثل أبي، لأحلق ذقني، لأشعر بأنني إنسان عادي، لكن حتى هذه الأمنية البسيطة تبدو بعيدةً عن متناولي.

أحياناً أحاول أن أستنجد بيدي اليمنى، رغم ثقلها وتقوسها الهلالي، ورغم ما تبقى فيها من حياة بالكاد تذكر. أن أنقل الكأس البلاستيكي إلى شفتي، لكن يدي تحاول الانفصال عن جسدي وتتمرد عليه.

أشعر أن عظامي غير منصاعة، ترفض الحركة كما أريد. ينتابني ألم شديد، فلحمي يتفتت من الداخل، لينتفض ويتمرد على هذا السكون الطويل الذي فرضته عليَّ الحياة.

رغم ذلك، أستمر في المحاولة. أكرر الحركة مراراً، حتى لو سقط الكأس من يدي، حتى لو رفض أن يتحطم، فأتأمل تدحرجه وصوت ارتطامه بالأرض.

الكأس رغم فراغه، يعود ويمتلئ مرة أخرى، ولا يقنط من النهوض. ربما هو أكثر مقاومة مني، أو يعلم أن السقوط جزء من الحياة.

سمعت أبي مرة يشكو لأمي من خدران ذراعه، لاتكائه عليها طويلاً. لم أكن أعرف معنى "الخدران" آنذاك، لكنني أفهمه جيداً. الخدران جزء مني، جزء فقط ينتقل إلى عائلتي ليخبرهم كيف حالي كلما سألوني عن حالتي، أشعر أن الخدران هو الجواب الوحيد الذي يمكنني تقديمه بدلاً من أنا بخير.

مرات كثيرة شعرت بالشفقة على نفسي، تلك الشفقة تلمع في عيني، وتخنق صوتي المهموم. أتفاجأ كلما سمعت اسمي يذكر، أخشى أن يكتشف أحد كم أنا ضعيف وعاجز. لكنني أتعلم، شيئاً فشيئاً، أن الضعف ليس عيباً، وأن الألم جزء مني، جزء يجعلني إنساناً من نوع فريد، حتى لو كان ذلك الإنسان يعيش في جسد لا يعمل كما يجب.

مالت شمس يوم الجمعة خلف جدار البيت، وهو أبعد ما أستطيع رؤيته، بدأ ذلك المشهد الذي يسمونه "الغروب". في تلك اللحظة، قادني أخي الصغير "مهند" إلى ردهة البيت، وأنا لا أبالي كثيراً، فمن يشعر أنه لا يملك جسداً،

لا يهمه أين ينقله الآخرون. كل ما يشغلني هو ذلك الشعور الغريب الذي ينتفض بداخلي، شعور بالترقب والانتظار.

فجأة وجدت نفسي أمام طاولتنا المستديرة، وحولها أمي وأبي، وأختي "أماني"، وعدة شموع متراقصة الضوء، وضعت فوق كعكة هلامية لونها يشبه الحنّاء.

الجميع يراقبني بعناية، ينتظرون لحظة فرح مصطنعة اعتادوا عليها. لحظة حرق الشموع جاءت على استحياء، ولأن أنفاسي لا تقوى على إطفائها، قامت "أماني" بالمهمة نيابة عني. أكملت عام حزن آخر، أضفته إلى تسعة عشر عاماً مرت، ولا أتذكر منها سوى رائحة الشموع المحترقة من أجلي.

- كل عام وأنت بخير...

أمي أول من نطق بها، تلك الجملة التي أعلم كم هي صعبة في قاموس عائلتنا – أن أكون بخير– ثم تتوالى التهاني والقبلات من الشفاه الباردة، إلا شفتي أماني، فقد كانتا الوحيدتين الحارتين، ربما أثر الشموع الحار ما زال عليهما.

الهدايا المغلَّفة بالورق اللامع وضعت في حجري، قام مهند بفتحها لأشاهدها. تقبلت ذلك بوداعة وسرور، فما زال في إمكاني التفاعل معهم، وما زال ما تبقى من جسدي قادراً على أن ينتفض ليبادلهم الشكر.

في تلك اللحظة، شعرت بأنني جزء من هذا العالم، جزء من العائلة، رغم كل الألم والصعوبات. ربما تلك الشموع المتراقصة ترمز إلى بصيص أمل ما زال يتوهج في داخلي، أمل بأن الحياة –رغم كل شيء– قد تحمل في طياتها لحظات من الفرح والدفء وحتى الحركة البسيطة يمينا ويساراً.

وبعد دقائق من فتح الهدايا، أخذ مهند واحدة، وأماني فعلت مثله، وبقيت هدية واحدة حيَّرتني بماهيتها. تشبه بلاط البيت، وحولها قطع صغيرة تشبه مومياوات الفراعنة. أشياء مألوفة، لكنها غريبة في نفس الوقت.

علمت لاحقاً أن أبي أحضرها بعد أن همس في أذن أمي بكلمات غير مسموعة:

- قد يستطيع... تحريك... يتعلم... ذكاء... فوز.

سحبت يدي إلى الأمام لأتحسس ملمسها، محاولاً تقليبها. شكلها أثار فضولي، وحركة يدي المفاجئة أثارت دهشة أمي ومن حولي:

- هو يستطيع! لقد أحبَّها!

قالتها أمي بصوت مليء بالأمل.

جلس أبي على كرسيه، ممسكاً بقطعة الكعك، وفي يده الخشنة ارتجاف خفيف كلما حاول غرس شوكته فيها. الجزء الهلامي يهرب من الشوكة فهي بلا عظم يسندها.

ولأخفي حرجي، وأثير اهتمامهم أكثر، حاولت فتح علبة الهدية بطريقة ساذجة، فغرست أظافري فيها عساها تستجيب. بصوت متوتر، قلت مجاملاً أبي:

- ما أجملها...

وجدت نفسي منهمكاً أكثر في ذلك النزاع الساذج مع العلبة، حاولت أن أجلس معتدلاً، لأنتصر في مهمتي الأولى. ملامحي غير متوازنة بين فرح وبؤس، وبين شوق لمعرفة ما يخبئه الصندوق الكرتوني المبلط.

أخيراً تمزقت العلبة، وانسلت منها تلك القطع، وانتشرت على أرضية الردهة، كل قطعة منها تحتل مكاناً جديداً في عالمي الصغير.

تأملت الهدية، تفكيري يتراوح بين الجدوى والعبث، جدال نشب بين جسدي وعقلي:

- هل يوجد شيء أستطيع فعله بها؟!

تقدم أبي ببطء، وجلس على الأرض يلملم القطع المتناثرة. طاولتنا البلاستيكية فصلت بيني وبينه، وبدأ يرتب عليها تلك القطع بطريقة ما. على سطح الرقعة الكرتونية المبلطة بالأبيض والأسود، تشكلت شواهدها الصماء تُنبئ بنظام معين جذب تفكيري، وجعل جسدي الرافض يتراجع قليلاً.

- إنها الشطرنج، لعبة العظماء والأذكياء والقادة. ولأنك منهم، سأعلمك اللعب بها.

شرحه مختصر، يحاول بثَّ الإصرار في قوة يدي اليمنى المتمردة على جسدي، لأنها ستكون كافية للعب والفوز. يخاطب عقلي، لأن الإنسان –حسب رأيه– يجب أن يعيش بكامل عقله، لا بكامل جسده.

في تلك اللحظة، شعرت بأنني لست سجين جسدي بعد الآن.

الشطرنج بوابة إلى عالم جديد، عالم فيه العقل هو السلاح، والفكر هو الطريق إلى النصر. لأول مرة شعرت بأنني قادر على الانطلاق، على الفوز، على أن أكون أكثر من مجرد جسد عاجز. تلك اللحظة بداية تحول في حياتي، من الانحباس إلى الانطلاق، من اليأس إلى الأمل.

تزاحمت في ذاكرتي الأسماء والحركات والخطط، لأميّز بين الملك والوزير، وأفهم قفزة الحصان، وهل تصمد القلعة أمام الفيل؟

ولماذا تقتل البيادق الضعيفة لحماية الملك والوزير القويين؟

لم أكن أدرك قبل ذلك أنه يمكنك أن تصبح بطلاً بمجرد أن تتحرك قليلاً من مكانك، فتصنع نصراً. أن تنتقل من المربع الأسود إلى الأبيض، كمن ينتقل من الظلام إلى النور. أن تتزحزح رويداً، وتجتاز الخطَّ الفاصل بين المستحيل والممكن. ودون سبب محدد، لازمني أبي في اللعب. هناك شيء ما يدفعه، شيء يستطيع الأحياء فعله من أجل الموتى.

صرت أسيراً للعبة على مدى أشهر متتابعة. تلك الأيام التي بثت فيَّ الحياة من جديد، فقد بُعثتُ مقاتلاً.

هناك شيء يحتشد في مخيلتي من فنون المناورة والانتقال بين الحياة والموت. اللعبة غذت شجاعتي، وقناعة بأنني قد أموت بطريقة أكثر عبثية من البيادق، وأكثر سخافة من الفيل الضخم. وقد أعيش ليفعل عقلي شيئاً سليماً، بعيداً عن جسدي، ونيابة عنه.

لقد بدا العالم المتقاتل على تلك الرقعة الورقية قوياً، ورغم هشاشة إمكانياته وقلّة جنوده، فإن الغلبة فيه لمن ينظر جيداً في محيطه، ويخطط بدقة لحركاته، وينتقل ببطء وثبات، يجب أن تكون أسرع من ثعلب سيختطف دجاجة من قنِّها.

في كل حركة أقوم بها، أشعر بتحدي قدراتي، أتحدى ذلك الجسد الذي ظلَّ لسنوات سجني. الشطرنج علمني أن النصر ليس دائماً للقوي جسدياً، بل لمن يستخدم عقله بحكمة وصبر. وأنا تدربت على الصبر جيداً طوال عشرين سنة.

أتحرك على الرقعة وأتحرر من قيودي، وأجد طريقاً جديداً للحياة، غابت عني صرخة اليأس المعتادة التي أطلقها لاستجداء عطف أمي، وحلَّت مكانها صرخة النصر التي أهتف بها في وجه شجاعة وصبر أبي.

تحولت الجلسات بيننا إلى نزال حقيقي، جولات قتالية لا حصر لها، كلُّ حركة فيها تحمل تحدياً، وكلُّ خطوة تقربني أكثر من فهم معنى الحياةِ الحقيقية.

أدركت أنني لا أحلم عندما بدأ الأقارب وبعض الجيران والأصدقاء يحتفلون بنصري. يجلسون حول الرقعة، يخوضون معي أشواطاً قتالية متفرقة، كلُّ واحد منهم يحمل في عينيه نظرة التحدي والإعجاب.

نعم، هُزمتُ مرات كثيرة، لكنني أيضاً انتصرت. وصوت النصر دائماً يفوق مرارة الهزيمة.

في صدري هناك شيء جديد يشتعل، يرفض العودة إلى الماضي. روح معنوية عالية يصعب إخفاؤها، وابتسامة ترتسم على شفتيَّ كلما انتقلت من غرفتي إلى الردهة، أخطو نحو عالمي الجديد. كلما تغلبت قطعة على أخرى، شعرت بأنني أتغلب على جزء من اليأس الذي يخيم عليَّ.

كلماتي مرحة، مليئة بالثقة كلما امتدت يدي لمساعدة أحد البيادق وإنقاذه من موت محقق. لست مجرد لاعب، بل قائد يحاول إنقاذ جنوده من الهلاك. في تلك اللحظات، أدركت أن المستحيل لا مكان له في حياة من يمتلك الإرادة.

وفي آذار، مع ساعة شمس ربيعية تهمس بالحياة، تهفو فيها النفس لتذكرني بعمر الشتاء الذ مضى، عمر ليس لي الحق في استرجاعه. سارت بنا السيارة بين الأزهار المتفتحة، والطبيعة نفسها تبتسم لنا. أخبرني أبي أن نادي البلدة يقيم مسابقة في لعبة الشطرنج، ويدعونني للمشاركة.

أصغي إليه بصمت، تغشى وجهي قتامة ظل على بقعة أرض ما زال الشتاء يغزوها. رهبة غير المألوف، رهبة الكلام والمكان والزمان.

- هل يكون هناك حظ لهذا الجسد العاثر؟

سؤال دار في خلدي، بينما الشريط الطويل للمكان يمتدُّ أمامنا. تجاوزنا مفترق الحي، ودخلنا ساحة مبنى كبيراً تلتفُّ حوله الأشجار، محارة تنغلق على ذاتها. أغوص في غابة صغيرة باحثاً عن لؤلؤة في أعماقها. انفعالاتي مشحونة بإحساس غريب، هارب من رعب إلى آخر.

آنست وجوهاً مألوفة تطلُّ من بين الأغصان، وخلفها نافذة تشبه قفصاً من حديد. ظللت متوتراً، حتى وصلنا الباب الخشبيَّ بجناحيه الكبيرين، اللذان يصرخان من صدأ الأيام. فُتح لنا البابُ بترحاب، ترددت عند عتبته، في حالة حيرة جديدة. عيوني تستنجد بعيون أبي المشتاقة للدخول.

- لننزل...

قالها أبي بثقة، وجرَّ عربتي إلى مدخل المبنى عبر ممر مخصص لها. ألتصق بعربتي، ويعتريني خوف كامن، خوف من أن يتخلى عني أبي ويودعني ملجأً في تلك الغابة بعد هزيمتي في الحياة.

أغلقت عينيّ للحظة، تحررت من جسدي الثقيل، وصعدت إلى عالم الأحياء حيث الحياة تنبض في كل زاوية.

استقبلتنا رائحة القهوة الطازجة تختلط بنفحات عطر أحد الحكام الذي مرّ بجانبي. طاولات الشطرنج المصطفة تلمّع بقطعة قماش، فانبعثت رائحة الخشب المعتق مع كل مسحة. عبر الضجيج الخافت، التقطت همسات اللاعبين:

- "انتبه للفيل"، "هذه النقلة ستقتلك!

بينما كانت قطع الشطرنج تُرتب على اللوحات فتصدر خشخشة إيقاعية صغيرة. من النافذة المفتوحة تسللت نسمة باردة تحمل معها عبق الربيع الأول، فتنفستها بعمق لتعيد إليّ شيئاً ضائعاً. في تلك اللحظة، بين الروائح والأصوات

والهمسات، شعرت بأنني أعيش أكثر من أي وقت مضى. الكرسي المتحرك لم يعد قيداً، بل منصة لمشاهدة الحياة وهي تتكشف أمامي برائحتها الزكية، حركتها الدؤوبة، وتفاصيلها الصغيرة التي تمس الروح قبل الجسد.

المسابقة على وشك البدء، وأنا هنا، جزء من هذا العالم النابض، أتنفس رائحة الحياة التي لا تحتاج إلى قدمين لتجري بها.

استمر أبي في حديثه المشجع دون ملل أو انقطاع، يحاول التقاط شرارة ما من أعماقي، ذلك الشيء الذي احتفظت به منذ كنت طفلا صغيراً. نظراته الدافئة تزيح عنّي هواجس الماضي الثقيلة، يدور حولي ويَلتفُّ من كل اتجاه شمسه لا تغيب.

أما أنا أراقب المكان بصمت، أغرق في ضجيج الحفاوة المحيطة بي. أصوات التحيَّات والضحكات تصل إلى أذنيَّ، لكنّني لا أستجيب كما يفعل الآخرون.

غريب في هذا العالم الجديد الذي بدأ يفتح أبوابه أمامي رويداً رويداً. ومع ذلك، لمست شيئاً غريباً في صدري... أهو الأمل؟

نعم لأول مرَّةٍ منذ سنوات طويلة، شعرت أنني على وشك اكتشاف جزء من نفسي كان مختبئاً في الظلام، قطعة شطرنج نادرة طويت داخل الصندوق ونسيها اللاعبون.

تلك اللحظة لم تكن مجرَّد بداية مسابقة، بل رحلة من العزلة إلى الانفتاح، ومن اليأس إلى المنافسة، لست وحدي فالعالم مكان أكبر من جدران غرفتي، وأرحب من صمت كرسيي المتحرِّك.

تَقدَّمت نحو الطاولة المخصَّصة لي، ورقعة الشطرنج الخزفية تلمع تحت الضوء، تعلن نصراً لم يحدث بعد، أو تحاول تبديد نظرات الشك الحارقة التي تحوم حولي. كنت على وشك أن أفقد رباطة جأشي، وظننت في سريرتي أنني مهزوم لا محالة. لكنَّ شيئاً ما بدأ يتغير عندما جلست "شيماء" أمامي، لتخوض معي أولى معاركي.

عندما التقت عيوني بعيونها، شعرت بأن للحياة سحراً ما زال يفعل فعله. شيماء صماء، لا تسمع كلماتي، ولا تتحدث إلا بابتسامتها وشفتيها، ترسم بيديها وأصابعها لوحة من الكلام يعجز الفنانون عن تلوينها. لغتها الخاصة، بين الصمت واللمس بيننا نهر ينساب بهدوء، يحمل في طياته أسراراً لا تقال.. تساءلت في نفسي:

- ما نوع الحياة التي سأعيشها الآن؟

لكنني بكل صراحة، أشعر بفزع من هذا الحماس الجديدِ. أخشى أن أسقط مرة أخرى من أعلى الحياة إلى قاعها.

لكن هل ستطول تلك اللحظات التي اتخذ فيها وجهي شكلاً آخرَ؟

لحظات الأمل التي بدأت تلوح في الأفق، شمس تشرق بعد ليل طويل.

بدأنا اللعب، وكلُّ حركة تحمل في طياتها تحدّياً جديداً. عيون أبي وابتسامته تتحرك مع حركاتي، تصمت أحياناً وتهتزُّ أحياناً أخرى، تضبط إيقاعاً خفيّاً. وأتساءل في سريرتي:

- هل أخجل من شعور الشفقة على شيماء، أم على نفسي؟

وسرعان ما أدركت أن الشفقة ليست هي الشعور الذي يربطنا. شيماء، برغم صمتها، أقوى من أن تشفق عليها. تنظر إليَّ بتحد، وتقول لي:

- هيا، لنلعب، ولنرى من المنتصر.

في تلك المنافسة، شعرت بأنني لست وحدي. فشيماء بابتسامتها الصامتة، تذكرني بأن الحياة لا تقاس بالكلمات، بل باللحظات التي نعيشها معاً.

شعرت أننا قضينا مئات الدقائق نتحدث دون صوت، الكلمات تتبادل بيننا عبر نظرات خاطفة وابتسامات صامتة. لم يفقد أحد منا إيمانه بالحياة أو بالنصر، نتسلق معاً منحدراً طينياً زلقاً، متمسكين بصمتنا الذي كان أقوى من أي كلام.

نظرات عيونها سهام تخترق قلبي، وتُذكِّرني بأنني قد أخسر في جولة ما، لكنني مستعد لهذه الهزيمة، لأنها تأتي منها.

أخسر بيادقي واحداً تلو الآخر، وشيماء تجيد الهجوم بصمت، تنسج خططاً لا ترى إلا عندما تتحقق. انتشرت رائحة الموت على الرقعة عندما قتل الوزير، وخيولها تدوس الفيلة بلا رحمة.

اختفى الملك في النهاية خلف آخر قلاعه، يختبئ من مصير لا مفرَّ منه. عند هذه النقطة، أصبح واضحاً لي مغزى الانتصار. فما يبدو لنا هزيمة أحياناً، يكون في أخرى انتصاراً لمن نحب.

لم يكن سهلاً شرح ما حدث، كنت فائزاً رغم هزيمتي. تلك الأوجاع التي شعرت بها غير متصلة ظاهرياً بجسدي، لكن قلبي قد فاز في جولة جديدة من الحياة. تمنيت أن تدوم لحظات هزيمتي، أن تتلكأ في ابتعادها، لأنها لم تكن طريقة سيئة للبداية.

الهزيمة طريق يتسع لنا لنعيش فوق حطام الحياة، كما اتسع قلبي لتقبل حطام جيشي وهزيمتي الأولى أمامها. أحياناً يعالج الحطام بالحطام.

احمرَّتْ وجنتاها عندما أعلن الحكم نصرها، ورغم حرجي لسماعي ذلك، اجتاحتني أحاسيس الطفولة بالرضا والسعادة. أشعر نفسي أهدي وردة مخملية لصديقتي في الروضة. فتلك اللحظة مليئة بالتناقضات، هزيمة على الرقعة، وانتصار في القلب.

ابتسم أبي بتلك الابتسامة العجيبة التي أعرفها جيداً، تلك التي تخفي وراءها خططاً محكمة، وأسراراً لم تكشف بعد. قال:

- يبدو أنكما تعرفتما جيداً

نبرته تحمل شيئاً من الرضا الغامض، تشير إلى نجاح خطة دبّرها في الخفاء.

يجلس بين الحضور، زعيم حكيم، حاضر بجسده، لكنه يبدو أكبر من المكان نفسه. ينسج الأقدار بخيوط غير مرئية، يضع الناس في طريق بعضهم، يجعل النَّاس يواجهون قدرهم وحدهم. ثم يتراجع إلى الخلفية ليراقب المشهد بصفاء. لا يتدخل أكثر من اللازم، شعرت بأن كل تفصيل صغير قد مرّ بين يديه قبل أن يحدث.

لوهلة التقطت نظرة شيماء وهي ترمقه بدهشة، ثم تنظر إليّ، تدرك فجأة أن هذا اللقاء لم يكن صدفة. كان هو الخيط الخفي الذي جمعنا، الراعي الصامت لرحلتنا.

والآن بعد أن التقينا، بعد أن تبادلنا الكلمات والضحكات، شعرت بأن شيئاً مكسوراً بداخلي بدأ يلتئم...

فهمت لماذا كان أبي يبتسم بهذه الطريقة. كان يعرف، دائماً ما يعرف، متى يكون الصمت أقوى من الكلام، ومتى تكون اللقاءات البسيطة هي بدايات الأعاجيب.

انطلقنا نحو البيت، والسيارة تبتلع الطريق خلفنا، ويختفي شريط من الذكريات الجديدة. عبر النافذة المفتوحة، دخل الهواء حاملاً معه همسات الليل الدافئة، ليروي لي حكاية قديمة عن معنى الحياة.

أدركت في تلك اللحظة الهادئة أن الحياة ليست مساراً مستقيماً بين نقطتين، بل هي نهر عظيم يجري بقوة. نهر يلمع تحت ضوء القمر، يلتقي بضفتيه العتيدتين: أبي الذي ظلّ شجرة عملاقة تمتد جذورها في أعماق الأرض لتحميني من العواصف، وشيماء الضفة الأخرى، صامتة لكنها صلبة، تمنحني مساحة لأتدفق دون أن أخاف من الضياع.

مررنا بشارع مضاء بمصابيح برتقالية، فشعرت نفسي ذلك النهر الذي اكتشف فجأة أنه ليس وحيداً.

التوجسات القديمة التي لازمتني سنوات طويلة بدت الآن أمواج صغيرة تلاطم ضفافي ثم تتراجع، منهكة مهزومة. في المقعد الخلفي، أغمضت عينيّ وأنا أسمع صوت أبي يهمهم بأغنية قديمة، بينما شيماء تمسك بيد النافذة لتصافح الريح. وهكذا استمررنا في السير. أنا والنهر الذي بداخلي، والضفتان اللتان التفتا حول قلبي فجعلتا من رحلتي وطناً.

عرفت حينها أن النصر الحقيقي ليس في الوصول، بل في أن تجري، وأن تعرف أن هناك ضفتين لن تسمحا لك بالجفاف أبداً.

واستوت على الجودي

تحت سماء تئنُّ من صمت العالم، رمال ذهبية تتسرب مع طلوع الشمس على صدر البحر الأزرق، ودمع الموج لم يجف، تقف غزة هناك. مدينة صغيرة تتمسك بالحياة بين أنياب الحصار، عصفور يحمل قصة بجناحيه المكسورين، يرفض السقوط. بيوتها المبنية من طين، وشوارعها الضيقة تعج بالأمل، تحكي سراً واحداً:

- هنا تخلق المعجزات من رحم اليأس.

في زاوية من زوايا تلك المدينة، تختبئ الأحلام تحت أنقاض الواقع، علي يقف أمام حشد من الوجوه المتعبة، عيناه تشعان بأسى، بريق نجم في ليلة حالكة. خطواته في حياته فيها جراح، وكلُّ جرح تحوَّل إلى حكاية:

- لنبدأ من حيث انتهى الأمل...

هكذا همس، بينما ذكرياته تتدفق رافضة الجفاف:

- هل سمعتم من قبل قصة تروى بالدم؟

هذه قصتي، صوتي هادئ، يحمل في طياته قوة لا تقهر:

- غزة ليست أرضاً ندفن فيها كما أرادوا، أو مجرد مكان للسكن، بل قصة خلود وصمود وإيمان لا يتزعزع. لقد رأيت بأم عيني الحياة هنا سنابل تنبعث من تحت جنازير الظلم، الحياة هنا على الرغم من مصاعبها تختزل في نفس واحد بين الرصاص والحياة، ولا تزال تخفق بنبضات قلوب تعبت لحد الحناجر.

  رأيت أمهات يفقدن أبناءهن، ثمّ يصمدن أكثر، وشباباً يزرعون الثأر في شقوق الجدران، يضحون بكل شيء من أجل أن تبقى هذه الأرض حرة.

  علمتني غزة أنَّ الألم ليس نهاية الطريق، بل بداية النصر. والجذور العميقة ليست في الأرض فقط، بل في سماء تحميها من العواصف.

  نحن هنا، ولن نرحل، فهذه الأرض ليست مجرد تراب ورمال، بل هي جزء من إيماننا وتاريخنا، ومسرى نبينا ومعراجه، وطريق الأنبياء.

علي شاب في العشرين من عمره، يتوجه صباحاً إلى جامعته، يحمل بين ضلوعه أحلاماً أثقل من كتبه. كل صباح يقطع أزقة "خانيونس" الضيقة، وتلاحقه ضحكات الأطفال وأناشيدهم القصيرة، وهمسات الأمهات – اللواتي يعرفن ثمن الأمل جيداً– تصل إلى روحه، وتدفعه إلى الأمام.

- روح... الله معك، وربنا يوفقك يا ابني...

الأمل في غزّة لا يعيش طويلاً. أقصر من عمر فراشة بلا جناحين في غابة مليئة بالعناكب.

ذات صباح، بينما علي يقلب صفحات كتابه، حطمت قذيفة صمت المدينة. عادت الحرب مرَّة أخرى، عاصفة من حديد ونار، تغرق المدينة بالدّماء. وفي طريقها تبتلع الضحكات والأغنيات قبل أن تقتلع الشوارع والبيوت.

جيش العدو مدجج بالسلاح، يجتاح المدينة بوباء أسود من آلياته، يبدأ هجومه والقذائف تنهمر من السَّماء، والبيوت تراكمت فوق بعضها أسرع من أوراق الخريف المتساقطة في إعصار. وسط هذا الجحيم، وقف علي ليس بكتبه هذه المرة، بل بشيء أكثر ثقلاً، سؤال وحيد:

- كيف يحارب الإنسان دون سلاح عندما يصبح كل ما حوله ضده؟

دقائق فقط... هذا كل ما احتاجه الرعب ليفتك بقلب غزة. النساء يجررن أطفالاً صغاراً مبعثرين في إعصار الدم، صرخاتهم تثقب سماء اختنقت بدخان أسود كثيف، حتى الشمس – التي شهدت كل شيء – لم تعد ترى شيئاً.

وعلي... ذلك الشاب الذي كان –قبل قليل– يقلّب صفحات كتابه بحماس، يقف الآن في قلب الجحيم، عقله يرفض تصديق أن هذا كابوس لا يُصحى منه. ركض بجنون بين الحطام، يداه تحملان جريحاً بعد جريح، بينما دموعه الساخنة تذوب في دماء الغرباء، محاولة يائسة لغسل جراح لا تغسل.

في تلك اللحظة، اكتشف معنى أن تكون بطلاً بدون خيار. فالأبطال الحقيقيون لا يختارون معاركهم، المعركة تختارهم.

سهام، الأم الشجاعة، تختبئ مع أطفالها الثلاثة تحت طاولة قديمة في منزلها. لم يكن أصغرهم ياسر يعرف ما الموت. فأمسك بذراعها وسألها بصوت بريء:

- ماما، هل العدو وحش حقيقي؟

ابتسمت سهام وهي تخفي خوفها:

- لا، يا حبيبي، الوحوش لا تعيش إلا في القصص الخيالية.

سهام، أم شابة في الثلاثين من عمرها، تحاول حماية أطفالها تحت الأنقاض، وبجانب جثة زوجها الممزقة. ياسر يرتجف من الخوف، ثم سألها بصوت مرتجف وهو يراها تخفي دموعها:

- أمي، لماذا لا تتوقف الأصوات؟

- ستتوقف يا حبيبي، غداً ستشرق الشمس.

الشَّمس لم تشرق بعد تلك الليلة، فالوحش الذي رآه طفلها حقيقية واقعة، في الليلة المظلمة العاشرة، توقفت دقات قلب ياسر الصغير من الرعب، وأمه تحتضنه بين ذراعيها، وتهدهده، تراقب النّجوم بصمت، علّها تواسيها بنورها الخافت.

لقد سكتت أسئلة ياسر إلى الأبد. فجسده الصغير لم يعد يحتمل الجوع والبرد والخوف، وسهام، التي تحمل جثته التي لا تبرد من حمم القذائف، صرخت في وجه الطائرات المحلّقة في السماء:

- لماذا... لماذا يموت الأطفال بينما العالم صامت؟

جارتها أمينة تجر ابنها أسامة بين الحطام، يداه الصغيرتان تتشبثان بدميته المحروقة، وهي تحمل رغيف خبز متفحماً التقطته من بين الجدران المنهارة.

- الأمطار ستكون باردة هذه السنة

همست في أذنه، وعيناها تراقبان السماء التي لم تكن تمطر إلا حديداً وناراً.

عند منعطف الشارع، رائحة البقالة كانت تعبق قبل أيام، توقفت ليلى فجأة أمام حذائها المدرسي الأحمر تحت الركام. ركضت إليه تنظفه بكمّ ثوبها الممزق:

- بابا شفت؟ رجعت لنا أشياء من المدرسة...

صرخت نحو الفراغ، الرياح حملت صوتها إلى مكان لم يعد فيه أحد يسمع.

في الخيمة التي تهتز مع كل زفرة ريح، جلس الجد أبو محمد أمام فنجان القهوة البارد، يداه ترتجفان وهو يحاول إشعال آخر سيجارة له:

- يا زينة، القهوة بتعكر إذا ما شربتيها

قال بصوت أجشّ ثم سكبها على الرمال، ليروي شيئاً لن ينمو.

وخارجاً خطوات الدبابات الثقيلة تدقُّ كل ساعة بالموت، فانكمشت أمينة حول أسامة تحت سلة الملابس البالية

- ما تخاف... راح يروحوا...

لكنها شعرت بأنفاسه السريعة على كتفها، فعادت تحضنه بقوة، تحاول إعادته إلى جسدها الذي خرج منه ذات يوم.

ليلى تضم حذاءها إلى صدرها وتغمض عينيها، تتخيل صوت جرس المدرسة، بينما انفجار قريب يذكّر الجميع بأن الجدران الوحيدة التي ما زالت قائمة في غزة هي جدران الألم. والغد في غزة ليس سوى يوم خراب آخر.

الليل يسقط كل يوم ببطء، والظلام يختلف فهو لا يخفي شيئاً، بل يكشف كمّ الفراغ الذي تركه الغائبون.

وأسامة يغمض عينيه أخيراً، بينما أمينة تهمس في الظلام لزوجها:

- أنت قلت لي عنا بيت جديد بكرة، صح؟

الصباح ليس ببعيد عنهما، يجلس يحيى القائد. عيناه تلمعان بإصرار وعزيمة. اقترب منها، ووضع يده على كتف أمينة، وقال بحزم:

- دم أسامة وغيره لن ينسى. سيبقى خالداً في قلب كل واحد منا. ما دامت قلوبنا لم تمت، فإن غزة لن تفنى. لا تبكي يا أمينة سنواصل القتال، لأن الحرية لن تهزم.

نظرت إليه أمينة بعينين ملؤهما اليأس:

- لكننا نموت من الجوع والقصف، حتى الماء أصبح نادراً." فأجابها:
- ليس الماء وحده ما نحتاجه للبقاء على قيد الحياة، نحن بحاجة إلى الإيمان لننجو، الإيمان هو الطريق لننتصر.

جلس يحيى وعيناه المتعبتان – اللتان شهدتا مئات الجنازات والمعارك – تلمعان جمرة في رماد.

اقترب من الحاجة التسعينية أم مروان التي تقبض على حذاء ابنها الشهيد، على آخر ذرة من الأمل. وضع يده المتشققة على كتفها المرتعش، فشعرت بحرارة إصراره تخترق ثيابها البالية.

- دم مروان.. دم كل شهيد.. لن يذهب سدى... اصمدوا يا أهل غزة الإيمان. ما دام فينا قلب ينبض، غزة لن تنحني.

دمعها يسقط على يده التي تحمل آثار حروق القنابل. نظرت إليه بعينين جرحهما مفتوح.

- نحن لا نموت بالرصاص فقط يا يحيى... –همست بصوت يذوب من الجوع–:
  الطفل الصغير يموت وهو يبحث عن قطعة خبز.. العجوز يموت وهو ينتظر جرعة دواء.. حتى الماء صار حلماً نراه في المنام.
- نعم، الجوع قاتل.. والعطش قاتل.. لكن هناك عطش أخطر من عطش الماء، – وهو يشير إلى صدره – عطش الروح للإيمان.. وهذا ما لن يسلبه منا حتى ألف قنبلة.

خلفهم أحمد، طفل الأحد عشر ربيعاً، يملأ دلوين من ماء الأمطار المتسخة. توقف للحظة لينظر إلى السماء، ثم قال ببراءة تكسر القلب:

- خالي، "يقولون إن الشهداء يشربون من أنهار الجنة.. لو أعرف الطريق، كنت جبت لكم شوية ماء منهم".

سكت الجميع. حتى صوت القصف البعيد توقف للحظة، فالسماء نفسها تأخذ نفساً عميقاً من هول كلماته.
التقط يحيى حجراً من الأرض، وحفر على الجدار المقابل للخيام:
"غزّة لا تموت.. إنها فقط تنزف كي تروي شجرة الحرية".
ثم التفت للجميع، عيناه تشعان في قبو مظلم:
- من يريد أن يروي هذه الشجرة معي؟
وواحداً تلو الآخر، بدأت الأيدي ترتفع في الظلام.. حتى يد النساء الهزيلة ارتفعت، وفي عيونهن شيء لم يظهر منذ زمن.. شيء يشبه الأمل.
مرت الأيام أطول من السنين، والشهور قرون. المدينة التي كانت يوماً تعج بالحياة صارت جثة متحللة تحت الشمس. يقول الناس بعضهم لبعض:
- حتى الموت قد يتعب منا...
المجاعة ضربت الجميع، ولا أحد يبحث عن علاج. الأمهات يغرفن من قدور المذلة، يطبخن أوراق الأشجار وقشور الفاكهة، وما يمكن أن يملأ بطوناً صغيرة تهتز من البكاء.
في بيت منهار، ليلى ذات السبع سنوات تضم ركبتيها إلى صدرها الناحل. بطنها يقرقر جوعاً يأكلها من الداخل:
- ماما، ليش ما في خبز؟
صوتها الطفولي مكسور، بينما عيناها الكبيرتان تتبعان يد أمها وهي تحرك ماء ساخناً في إناء صدئ، لا شيء فيه إلا بعض الأعشاب البرية. أوقفت الأم الملعقة للحظة، فالسؤال قد ضربها في مقتل:
- الطحين صار مثل الذهب يا حبيبتي، بل أغلى منه..
قالت وهي تحاول أن تبتسم، لكن شفتيها المتشققتين لم تستطيعا تحمل ثقل الكذبة:
- والجوع... الجوع صار يسكن فينا كلنا، بيته الثاني...
ثم خرجت ليلى تحمل جرة ماء مكسورة، تتنقل بها بين الأنقاض. الجرة تشبه قلبها المحطم، لا تزال تحاول أن تحتفظ بما تبقى بداخلها.
رأت الكلاب الهزيلة تترنح بين الركام. كلب أبيض ببقع سوداء – ربما كان مدللاً في زمن آخر – وقف أمام جثة شاب، أنفه يرتعش وهو يشم رائحة اللحم البشري.
نظر إلى ليلى والأطفال الجوعى الذين يراقبونه من بعيد، وعيناه تفيضان دموعاً – يبدو أنه يعتذر – قبل أن ينقض على ما تبقى من ساق الشهيد.

- لماذا تتعبين نفسك يا حلوة؟

سألتها أمها وهي تراها تعود منهكة، قدميها الصغيرتان تنزفان من كثرة السير بين الحطام. توقفت الطفلة، نظرت إلى أمها بعينين تكادان تختفيان في محجريهما.

- لأن سامر يبكي –قالت بصوت خافت – "وأنا ما بقدر لدموعه ثانية..."

لم تستطع ليلى الصمود أكثر، وبعد أيام قليلة ارتقت ميتة مع جوعها وبؤسها، قذيفة أبقتها راكدة بين الحطام، تاركة وراءها جرتها المكسورة.

في تلك الليلة، بينما الحي يغرق في صمت القبور، والأم تبحث عنها، سمعت صوت خدش خلف الأنقاض. كلب أسود كبير واقف عند جثة ليلى الصغيرة، عيناه تلمعان في الظلام. نظرت إليه الأم من بعيد، لم تصرخ أو تبكي، فقط همست:

- "تعال.. تعال... كل... هي لم تعد تحتاج هذا الجسد..."

لكن الكلب لم يقترب. أدار رأسه بعيداً، وبدأ ينبح بصوت مبحوح ينعي إنسانيته المفقودة، قبل أن يختفي في الظلام.

في الصباح استطاعوا الوصول لجثتها، وجدوا الكلب الأسود ممدد بجانب ليلى. مات منتحراً بالجوع، رافضاً أن يعيش في عالم لم يعد فيه حتى للحيوانات أن تحتفظ ببراءتها.

وفي يد ليلى المقبوضة حفنة من القمح الصغير – ربما جمعتها من بين الأنقاض طوال أيام – كان يمكن أن ينقذها لو أكلته. لكنها اختارت أن تخبئه لأخيها.

سامر لم يبك عندما وجدها. فقط جلس بجانبها، وأخذ يلعب بجرتها المكسورة، منتظراً أن تعود كما تفعل كل يوم. لكن الشمس غربت ثم أشرقت، وليلى لم تعد. فقط الجرة بقيت، شاهدة على أن حتى الموت يمكن أن يتعب من غزة.

فوجئ العدو الذي توقّع سقوط غزة سريعاً بالمقاومة الشرسة. تحطّمت خططه واحدة تلو الأخرى، ورغم حصاره القاسي ووعوده الزائفة، لم ينحن أحد. حتى حين عرض "الرحمة المسمومة"، نهضت عجوز شمّاء، التقطت حجراً وهزّته في وجههم وهي تصرخ:

- "يا أحفاد القردة والخنازير لن نركع... ولن نموت إلا أسياداً..."

في أطراف "رفح"، الظلام كثيف في نفق تحت مزرعة مهجورة، لا يخترقه سوى وهج شمعة تتلوى، وروحها تحترق مع ثلاثة ظلال تتحرك حول نورها الضئيل.

خالد الجريح، ما زال دمه ينزف تحت ضمادته البالية، وعمار الشاب الذي لم يعد يذكر لون السماء، وياسين، الذي يحمل في جيبه آخر رصاصة معه. هزَّ خالد كتفه المجروح وهو يستند إلى الحائط الرملي:

- أتذكرون غزوة الأحزاب؟ حين أحاط المشركون بالمسلمين كالضباع الجائعة؟ يحصون أنفاسهم... حتى قضاء الحاجة صار مغامرة.

فانعكس لهب الشمعة في عيني عمار الواسعتين:

- وكيف انتصروا وهم محاصرون في المدينة؟

أدار خالد وجهه نحو الظلام، ليرى ما فوق عين النفق:

- إنها السماء، عندما بلغت القلوب الحناجر من الخوف.. لم يعد هناك مكان للفرار.. حينها ينزل النصر مطراً بعد القحط. –سعل سعلة جعلت ضلوعه ترتجف– الشدة تصنع الأبطال يا رفاقي.. مثل النار التي تصنع من الحديد سيفاً.

رفع ياسين رأسه فجأة، يستطلع صوتاً في البعيد:

- وإذا اجتمعت قوى الأرض ضدنا؟ نحن لسنا سوى حفنة من الرجال بين أنقاض غزة، وفي أنفاقها؟

أطفأ خالد الشمعة فجأة. في الظلام الدامس، واشتعل صوته:

- في تلك الغزوة... هناك صخرة وقفت في وجه الصحابة أثناء حفر الخندق. صمتٌ ثقيل من اليأس فوق الصخرة رافق الصحابة.

ثم انفجر صوت ضربة معول في الظلام من نبي له في حنين السماء، تهمس الأحجار والصخور باسمه في الأقصى، لم تكن كلمات النبي محمد (ﷺ) عن فلسطين مجرد أحاديث، بل كانت بذور أمل تُغرس في قلب الأمة. حين ذكر عسقلان، رسم بحديثه خريطة للعودة، وحين تحدث عن المسجد الأقصى، أضاء درب المحررين عبر القرون. "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..." كان يقول (ﷺ)، فيجعل من الأقصى قبلة للقلوب قبل أن يكون قبلة للأقدام. وفي حديثه عن الرباط في أرض فلسطين، كان (ﷺ) يمنح كل حجر فيها قوة صمود: "أرض المحشر والمنشر، والرباط إلى يوم تقوم الساعة"

حتى تلك الصخرة التي ضربها في غزوة الأحزاب، فتناثرت منها مفاتيح الشام واليمن وفارس، نبوءة أن صخرة قبة الصخرة تحمل مفاتيح القدس التي ستعود يوماً.

كل ذرة تراب في يافا وحيفا، وكل حجر في عكا يحمل ذكرى كلماته:

- لن تزول قدم مرابط في ثغر فلسطين حتى يشرق الفجر.

هذه الأرض ليست مجرد أرض، إنها وصية النبي الأخيرة، كتبها بدماء الشهداء ودموع الثوار.

ضربة واحدة منه:

– أعطيت مفاتيح الشام..." وضربة أخرى تهز النفق. والحجارة تتناثر

أعطيت مفاتيح فارس..." ارتجفت الأرض تحت أقدامهم و"ضربة أخيرة.. فانفجار التراب والصخر...

أعطيت مفاتيح اليمن..."

أشعل عمار الشمعة مرة أخرى. في الضوءِ المتذبذب، رأوا دموع خالد تسيل على ندوبه القديمة:

- تلك الصخرة التي ظنوها نقمة.. صارت مفتاح الفتوحات...

التقط ياسين حجراً من الأرض، ونظر إليه يتأمل حالهم في نفق المدينة أم نفق غزة، قلبه معول يهتز:

- إذن.. دباباتهم ليست سوى صخور ينقصها ضرباتنا...

ضحك خالد ضحكة جعلت جرحه ينزف من جديد:

- بالضبط، كل ضربة منك يا ياسين، كل رصاصة من عمار، كل شهيد، هو ضربة جديدة في صخرة الظلم. وسيرد الله المحتلين بغيظهم ولن ينالوا خيرا...

من بعيد، سمعوا دبابة تقترب. التقطوا أسلحتهم بابتسامات لم تظهر على وجوههم منذ أشهر. النفق الضيق صار فجأة أوسع من كل ساحات القتال. وقالوا:

- الآن تعالوا.. لنُكمل ما بدأه الأجداد...

أدركوا أنَّ الشَّدائد ليست نهاية الطريق، بل بداية النصر، وأنّ الله لا يتخلى عن عباده أبداً، بل هو معهم حتى في أحلك لحظاتهم. ويكمل –علي– روايته...

- هنا في غزة... تحت القباب المحطمة، يولد الأمل من اليأس كل صباح.

كان عليٌّ يعرف أن الأذن التي ناشدوها لا تسمعهم، لكن غزة ظلت تحكي قصتها كل ليلة بالدم، تقف خلف الجدار تنتظر قادماً ما...

علي يهمس للعالم بأسرار غزّة، يصف له رائحة الخبز الطازج تحت الأنقاض، وصراخ الأمهات اللواتي يبحثن عن أطفالهن بين الحطام، ودويّ القنابل الذي يُذكّره بزئير وحش جائع.

في إحدى الليالي، بينما كان يروي لها قصة الطفلة "لمى" التي رفضت ترك بيتها المدمر لأنها تنتظر عودة أبيها، لاحظ شيئاً غريباً...

قطرة ماء! انحدرت من الأذن الصمّاء، سالت على خدّ الجدار العتيق بالقرب من رفح، أول دمعٍ تسمعه في حياتها. أدرك عليٌّ يومها أن بعض القصص لا تحتاج إلى أذنٍ تسمع... بل إلى قلب ينبض.
الأنفاق الضيقة – التي حفرتها أياد متورمة من التعب – صارت شرايين مقاومة تنقل الدماء والذخيرة وقصص النصر.
النساءُ الثكالى، اللواتي دفنَّ أطفالهن بأيد عارية، يخبزن اليوم خبز الصمود من طحين القهر والأعشاب البرية. والأطفال الأيتام، الذين رأوا الموت قبل أن يعرفوا معنى الحياة، يحملون في حقائبهم الممزقة دفاتر مدرسية مكتوبة بالدم.
العدو يحاصرنا، لكنه لا يعلم أن كل بيت مهدم تحول إلى قلعة من لحم ودم وعزيمة. يحاول تجويعنا، فيكتشف أن بطوننا الممتلئة بالإيمان أقسى من حجارة الشوارع. يمنع عنا الماء، فيتفجر من عيوننا ينابيع كرامة لا تنضب والعالم يتفرج.. يتناقش.. يتخاذل، لكن غزة تعلم الأرض معنى جديداً للقوة:
الخوف هنا لا يقتل الشجاعة، بل يذوب فيها، والجوع لا يكسر الإرادة، بل يحولها إلى سكين يشق طريق النصر. والدموع لا تسقط سدى، بل تنبت زيتوناً في كل أرض يطؤها المحتلون.
حتى الموت نفسه يقف حائراً في غزة:

- كيف لشعب أن يموت ألف مرة.. ويقف في كل مرة أكثر صلابة من الحجر؟

العدو يحاربنا بأسلحة الدمار، ونحاربه بأرواح لا تعرف السقوط. يحاول إغراقنا في بحر الهزيمة، لكنه ينسى أننا تعلّمنا السباحة في طوفان النصر، غزة حيث الضعف قوة، واليأس أمل، والموت بداية حياة جديدة. هنا فقط حيث تكتب النهايات بدماء الأحرار، ليُفتتح أول فصل من تاريخ النصر.
في تلك الأيام الصعبة التي عاشها "علي" بين الأنقاض، صار صوت القصف هو النشيد اليومي، فتذكر قصة الطوفان العظيم. لكنه لم يعد يرى الماء ذلك العذاب الذي أغرق الظالمين، بل رأى في طوفان نوح أول مقاومة في التاريخ:

- سفينة صغيرة تقف أمام جبروت الطغيان، مثلما تقف غزة اليوم بسفينتها المحطمة، لكنها لا تغرق.

الطوفان ماء غسل الأرض من الكفر والضلال، وها هو طوفان غزة نار تطهّر العالم من الصمت. ذلك الزمن أغرق الكفار بقطرات المطر، وهذا الزمن يغرق الظالمين بدموع الثكالى ودماء الشهداء. ويرددها علي على مسمع الجميع:

- اللهم لا تذرْ على أرض فلسطين من المحتلين ديارا.

هي نفسها الكلمات. لكنّ الأبطالَ اختلفوا. نوح كان يدعو عن ظهر سفينة من خشب، ونحن ندعو من باطن نفق من رمال.

سفينة نوح حملت الأبرار إلى بر الأمان، وسفينة غزة تحمل اليوم أيتاماً يصنعون من جراحهم أشرعة الأمل. نوح يعرف متى سينتهي المطر، أما أطفالنا يعرفون فقط أن السماء ستمطر حريّة ولو بعد حين.

يخاطب صديقه عبد القادر الجريح:

- الطوفانان يتشابهان في شيء واحد:

كلاهما تحذير للعالم أن الظلم لا يدوم. وطوفاننا الصغير في غزة – رغم كل الدمار – لم يغرق الضمير بعد، بل أخرجه من سباته العميق.

اليوم، الأمواج التي تواجهها سفينتنا ليست من الماء، بل من نيران المحرقة، وتخاذل الأشقاء، وصمت البشرية ومع ذلك السفينة لا تزال تبحر، لأنها تعرف أن كل طوفان في التاريخ يسبق فجراً جديداً.

- الفرق بيننا وبين قوم نوح – همس علي وهو يمسح غبار القنبلة عن وجه صديقه– أننا لن ننتظر النجاة، بل نحن الذين سنغير الخريطة.

خرج علي يوماً من تحت الأنقاض حافي القدمين، لم يكونا وحدهما، بل هناك العشرات، المئات، بل الآلاف من الشباب الذين نزعوا رداء الخوف كما تُنزع ثياب الموتى قبل الدفن.

- انظروا... –صاح وهو يشير إلى البحر المحاصر بالقطع الحربية–
  هذا ليس طوفان ماء يغرقنا.. إنه طوفان رجال سيغرقونهم في جحيمهم.

المعارك التي ينفذونها برقاً يخطف الأبصار قبل الأسماع. ضرباتهم تذكر العالم بقانون قديم:

"الأمم لا تُدفن تحت الأنقاض.. بل تُولد من بينها.

انحنى "علي" فوق خريطته الممزقة، حين انشقّ الظلام فجأة بسحابة سوداء تتحرك فوق مواقع العدو. لكنها لم تكن دخاناً بل طيوراً سوداء تحمل في مناقيرها حجارة من تراب غزة، الأرض نفسها تقذف بذور ثأرها نحو السماء.

بينما علي يعدّ العدة لضربة جديدة، رأى في ظلام السماء شيئاً أغرب من الخيال، سحابة سوداء تتشكل فوق مواقع العدو، لا من قذائف الدخان، بل من طيور حقيقية – طيور كتلك التي أرسلها نوح لتبحث عن اليابسة لكن هذه المرة "أبابيل" تحمل بين أجنحتها قذائف صغيرة من أرض غزة.

عبد القادر –مغروراقاً بالضحك والدموع–:

- حتى الطيور صارت تقلع من أرضنا بحمولتها...

ضحكته تحجَّرت فجأة. انفجار مختلف هزَّ الأرض ليس ككل الأصوات. يقول مقاوم آخر:

- ما هذا الذي سمعناه

علي يتأمل هدير الأمواج:

- هذا صوت ميناء الظلم وهو يغرق... يظنونه حصناً، فإذا به تابوت...

عبد القادر –مسبل جفنيه كي لا تُرى دموعه:

- عجيب، إمبراطوريات تدمر نفسها بأيديها، ونحن — بلا جيش — نعلمهم معنى الصمود.

علي –مشيراً إلى السماء حيث الغيوم البيضاء الأولى منذ سنوات:

- انظروا، الطوفان الجديد قادم، هذه المرة نحن الماء الذي يغسل عار التاريخ والعروبة، لا ضحاياه.

في الشمال، كان لبنان — الجبل الذي صار سحابة — يصرخ عبر الحدود:

- خذوا ذخيرتنا وخبزنا، وحتى أنفاسنا.

وفي الجنوب، اليمن — الطبيب الجريح — يوزع صواريخه في كل مكان:

- ها هو الدواء الوحيد الذي نملكه.

أما العراق — الجندي العجوز — فقد انتفض من كرسيه المنهار:

- خذوا دمنا... ففي كل قطرة ذاكرة انتصارات.

دوي هائل يسمع في الأفق، و"مجاهد" يستطلع:

- أهذا صوت سقوط السور يا علي؟

- لا. ليس بعد، هذه أصوات قلوب محاصرة خلفه انفجرت غضباً.

صمت ثقيل في النفق، لم يكن علي وحيداً في خندقه الضيق تحت الأنقاض. حتى في أحلك اللحظات، حين يقبض على سلاحه بيد متورمة من الجوع، يسمعها – همسات التضامن القادمة من وراء الحدود–، نداءات غريقين في بحر واحد. ثم همسات من الراديو المكسور تعلن:

تونس... الجزائر... مصر... الملايين في الشوارع...

عبد القادر مبتسماً للمرة الأولى منذ أشهر:

- غزة لم تعد أرضاً غزة صارت نبضاً

علي ملقِياً ببصره نحو الأفق حيث تلوح الأعلام:

- الطوفان ليس عقاباً، بل هو الولادة الجديدة.

في ساعات الفجر الأولى، بينما رفح تستيقظ على دوي القصف البعيد، خرج يحيى من بين أنقاض منزل يحمل عصاه الخشبية التي رافقها إحدى وستين عاماً. في السماء، طائرة مسيرة تطن كذبابة عملاقة، تبحث عن فريسة جديدة بين الأطفال العزل. رفع يحيى عصاه نحو السماء بيد تنزف لكنها صلبة من صخر القدس، صارخاً:

- يا أعداء الله لن تطيروا فوق أرضنا إلى الأبد...

أدار يحيى رأسه نحو طائرة مسيرة صغيرة، وابتسم ابتسامة يملؤها الرضا:

- سأريكم اليوم كيف تصنع العصا من الطائرة خردة...

في مشهد أبكى الحجر قبل البشر، بدأ يحيى يلوح بعصاه في الهواء، يصطاد حشراتهم، بينما الطائرة تقترب منه وصوتها أعلى من صوت وحش الجائع.

فجأة، وفي حركة بطولية، ضرب العصا نحو الطائرة بقوة جعلتها تترنح في الجو سكرانة من الرعب.

- انظر يا أحمد، هكذا نطرد الذباب من بيوتنا...

صرخ يحيى بينما الدم يسيل من جرح في كتفه.

- وللحرية الحمراء باب بكل يد مدرجة يدق...

الفرحة لم تدم طويلاً. من بعيد، سمع هدير دبابات تقترب بسرعة. القائد الصهيوني صرخ من داخل إحداها:

- "اقتلوا هذا الرجل.."

انطلقت ثلاث قذائف مدفعية واحدة تلو الأخرى. الأولى دمرت ما تبقى من جدران المنزل. الثانية أطارت الكرسي الذي يجلس عليه يحيى. أما الثالثة، فحولت جسده الطري إلى شهيد...

والمفارقة أن عصاه بقيت مرفوعة في يده كما لو كانت تحيي العالم. قبل أن يغمض عينيه إلى الأبد، همس بكلمات سمعتها قلوب سكان رفح:

- خذوا عصاي.. فهي أطول من كل طائراتهم.. واجلسوا على كرسي فهو أبقى من كل دباباتهم..

في اليوم التالي، انتشر الخبر ناراً في الهشيم. فلسطيني يعلم العالم معنى المقاومة الحقيقية بعصاه.

في رفح، أصبح المكان الذي استشهد فيه يحيى مزاراً للثوار. والأطفال يأتون كل صباح ويرفعون عصيهم نحو السماء، يرددون:

- نحن جيش يحيى.. وجنود العصا...

يحيى لم يمت.. لقد صار أسطورة ترويها العصي لكل طائرة تحلق في سماء غزة هذه الأرض لا تحتل.. وهذه السماء ليست لكم.

لم يكن موت يحيى النهاية... بل البداية. في صباح اليوم التالي، وقف أيمن بين الأنقاض حاملاً راية صديقه الممزقة، عيناه تحترقان بنار لم تكن هناك من قبل:

- يحيى استشهد، وروحه تسكننا الآن، –هتف بصوته الأجش–، وما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة.

ظهرت أمينة فجأة، سكينها اللامع في يدها الصغيرة يتحدى كل منطق.

- سأقاتل حتى ألتقي بأسامة ويحيى"، همست وتقسم قسماً مقدساً من بين الدخان المتصاعد، برز ملثم بكوفية حمراء مشبعة بدماء الشهداء.
- لن نبقى في القاع، –زمجر بصوت يشق الضباب ويعشقه الملايين–، "سيغادر كل الدخلاء أرضنا.. والخزي والعار لمن وقفوا متفرجين...

ظن العدو أنه يحطم غزة، فوجد نفسه محاطًا بكراهية أشد من نيرانه. عند الفجر، لم تكن المدينة سوى أطلال... وفي قلب تلك الأطلال، راية بيضاء متروكة علامة هزيمة. التقطها أيمن، وكتب عليها بدمه كلمة واحدة:

- "نصر".

صارت الراية كفناً لكل شهيد رفض الانحناء. وصور الأمهات وهن يدفنّ أطفالهن هزّت العالم الذي ظل صامتاً. ليلى، يحيى، أيمن... أسماء صارت أساطير تُروى في الخفاء. وبدأت أصوات الغضب تعلو أكثر:

- غزة لن تموت

تدفقت المساعدات، بينما الشباب يبنون بيوتهم من جديد بحجارة الكبرياء. العدو وجد نفسه محاصراً – ليس بالسلاح – بل بمقاطعة عالمية جعلت بضاعته لعنة يتوارى منها الناس. وبعد سنوات، وقف علي متكئاً على آلية مدمرة، نظرة انتصار في عينيه.

- لم نربح بالرصاص، –قال لنفسه– بل بإرادة جعلت الموت نفسه يرتجف.

أشرقت شمس جديدة على غزة... شمس لم تكن تعرفها منذ زمن. المدينة التي تشبه سفينة نوح العظيمة، رست أخيراً على قمة أعلى من الجودي، إنه العالم، تروي لهم قصة الأمل الذي لا يموت.

في الزوايا، بدأ الأطفال يلعبون بين أشجار النخيل الجديدة، بينما الشيوخ يحكون لهم عن زمن كان الدم فيه يزرع الحياة، والحجارة تلد الأبطال. غزة تنفست أخيراً هواء الحرية... هواء النصر.

عاد عليٌّ إلى منزله المدمر، لكنه لم يعد ذلك الشاب الذي كاد اليأس يبتلعه. لقد صار أشبه بجذع زيتون عتيق ظنّه العدو ميتاً بينما جذوره تنبض بالحياة تحت الرماد. أخذ الموت أصدقاءه واحداً تلو الآخر، لكنه يعرف:

- هم ماتوا كما أحبوا.. واقفين لا راكعين.

الطوفان نقطة تحول في حياته. ذلك اليوم الذي أعاده إلى جذوره، إلى قيم الجدّ الذي حفر بيديه بئراً في الصخر، والأم التي علّمته أن دمعتها على شهيد تنبت زيتونة.

وقف الآن على شاطئ البحر مع رفاقه، ينظرون إلى الأفق كما لو أنهم يرون المستقبل ينبثق من بين الأمواج.

قال رفيقه محمد – صوته مع ضوء الفجر الأول بعد ليلة دامسة–:

- ظننت الطوفان نهاية كل شيء.. لكنه البداية الحقيقية لنا.

أدار عليٌّ وجهه نحو البحر، ابتسم ابتسامة عرفها رفاقه جيداً – تلك التي تسبق كلماته الحادة دائماً:

- لولا الطوفان.. لما عرفنا أن العزة تشترى بالدم، لا تمنح بالعطايا.

لم يكن عليٌّ يلقي خطبة، بل يعلن ولادة قانون جديد، فانبرت المحامية فاطمة تكمله بحماس:

- الطوفان علّمنا أن قوتنا مخبأة فينا.. نارنا تشتعل تحت الرماد.

أما عليّ، فقد أمسك بحفنة رمل من الشاطئ، ثم أطلقها بين أصابعه لتحملها الريح:

- لم يأخذ الطوفان منّا شيئاً يستحق، بل أعطانا كل شيء، أعطانا أن الأوطان تبنى بأيدي لا تخاف الأمواج، وأرواح لا تقبل أن تعيش على الركبتين.

تحت شجرة ليمون محترقة، محمود وسعيد يتناقشان رمى محمود بحصاة على الأرض، يسقط نظرية قديمة:

- يا سعيد.. العروبة وحدها لا تكفي، جيش بلا عقيدة أوهن من قصر على رمال.. سيجرفه أول طوفان

أما سعيد، فقد حدّق في الأفق حيث الشمس تتوارى خلف الدخان المتبقي:

- أتعرف لماذا انتصرنا؟ لأن رصاصاتنا كتب عليها 'لا إله إلا الله'.. لأننا حاربنا بسيف القدس، لا بمجرد الحقد.

لقد فهم الجميع الآن:

النصر لا يقاس بعدد الدبابات، بل بعدد القلوب التي تؤمن أن الموت في سبيل الحق.. هو الحياة الحقيقية.

في جباليا، بين أنقاض المنازل التي ما زالت تحكي قصص الصمود، جلس الجد أيمن محاطاً بأحفاده. أخرج صندوقاً صغيراً من خشب الزيتون، مغطى بطبقة من تراب المعركة، عليه بقع دماء متحجرة. الصندوق بحجم الكفّ، لكنه يحمل ثقلاً من الذكريات.

- هذا الصندوق ليحيى –قال الجد بصوت يهتز بين الحزن والفخر–. صنعته يدا أبيّه من خشب شجرتنا هذه، قبل أن يستشهد.

فتح الصندوق بيدين مرتعشتين، ليظهر محتوياته:

مصحف جيب صغير، تظهر على أطرافه آثار تآكل من كثرة الاستخدام. إحدى صفحاته مفتوحة على سورة الأنفال، وبها بصمة إصبع دماء جافة. وقلم حبر أزرق، كان يحيى يستخدمه لتدوين آيات قرآنية على جدران الأنفاق. حفنة تراب من باحة المسجد الأقصى، ملفوفة بعناية في قطعة قماش. ساعة يد متوقفة عند الساعة (4:17) لحظة استشهاده. ومسبحة صغيرة من "عجم زيتون" القدس.

رسالة أخيرة من ورقة صفراء من دفتر مدرسي، كتب عليها:

- إذا قرأتم هذا، فأنا الآن تحت الشجرة، جذوري مع جذورها. لا تبحثوا عن جسدي، بل عن أفكاري بينكم.

تناول أحد الأحفاد المصحف الصغير وقبله باحترام، بينما قالت الحفيدة "تالا" الصغيرة وهي تلمس القلم:

- لكنه يبدو عادياً جداً يا جدي.

ضحك الجد بعينين دامعتين:

- العظمة ليست في الأشياء يا تالا، بل في الأيدي التي تمسكها. هذا القلم البسيط كتب به يحيى آيات الحرية على جدران السجون. ثم أضاف وهو يمرر أصابعه على الساعة المتوقفة:
- هذه اللحظة لم تتوقف في الحقيقة، إنها تستمر في كل قلب يحمل الروح ذاتها.

أخذ مازن، الحفيد الأكبر، الصندوق بحرص وقال:

- سأحافظ عليه لأخبر أبنائي عن القائد يحيى

لكن الجد هز رأسه:

- لا يا بني، ليس للحفظ، بل للاستخدام. خذ القلم وأكمل ما بدأه، واترك المجال لغيرك ليضيف إلى الصندوق.

مع غروب الشمس، بدأ كل حفيد يأخذ شيئاً من الصندوق: واحدة أخذت المصحف لتكمله، وآخر أخذ حفنة التراب ليزرع فيها بإناء صغير، بينما قرر مازن ارتداء الساعة المتوقفة، ليس لتذكر الماضي، بل ليعيش الحاضر بنفس الروح.

وفي الليل، بينما كان الجميع نياماً، فتح مازن الرسالة الأخيرة مرة أخرى. لكنه هذه المرة وجد سطراً إضافياً كتبه الجد قبل أن يسلّمه الصندوق:

- الآن، أصبحت المسؤول عن كتابة الفصل التالي من القصة.

رحــلتــي مـــع العصــا

(قصة عن الاستغفار)

يرفع رأسه من السجود ببطء، يستيقظ من حلم عميق. شمس الربيع تمدُّ خيطاً من دفئها ليلامس طرف وجهه المُجعَّد، ذلك الوجه الذي صار كتاباً مفتوحاً، وتحكي تجاعيده قصص الأيام التي مرت، وأخاديد الدموع التي حفرت طريقها إلى لحيته البيضاء، أنهار صغيرة من الحكمة والتضرع.

أظلُّ أراقبه في صمت، كما أفعل دائماً، حتى ينهي صلاته. حركاته بطيئة، فالزمن يتباطأ حوله، يمنحه ما يحتاج من وقار واطمئنان. يرفع يديه المرتجفتين نحو السماء، يهمس لها بهمومه، ثم يمسح وجهه بلطف، حتى آخر خصلة من لحيته البيضاء.

تساءلت في نفسي:

- هل هذا الارتعاش هو مجرد أثر من الزمن الذي لا يرحم؟ أم ترنيمة خاصة ترافق كلمات الاستغفار والدعاء التي يهمس بها بعد كل صلاة؟

بعد لحظات، يمسك بعصاه بحنان، صديق قديم لا يفارقه.

تلك العصا التي يقول عنها:

- من زيتونة البلاد، يكاد زيتها يضيء.

هي ليست مجرد عكاز يسنده، بل جزء من روحه، تحمل رائحة الأرض، وذكريات الزمن الذي مضى. بها يشق طريقه، وبها يتذكر جسراً بين ماضٍ عاشه، ويعيش حاضراً بإيمان عميق.

جدي، الحاج صبحي، أو "أبو رافع" كما يعرف في المخيم، يقترب من نهاية العقد الثامن من عمره. لا أعرف إن هو من يصحبني إلى المسجد، أم أنا من أحب رفقته. في انحناء ظهره أرى تاريخاً طويلاً، ربما استقامة ماض مضى، أو اعوجاج حاضر لا أفهمه تماماً.

بعد كل صلاة، أقول له بعفوية:

- تقبَّل الله صلاتك يا جدي.

فيجيبني بهدوء:

- تقبَّل الله منا ومنك صالح الأعمال والأقوال، وغفر الله لنا ولك.

أحياناً عندما أراه متعباً، تدفعني الشفقة فأسأله:

- لماذا لا تصلي في البيت؟

فيبتسم ابتسامة خفيفة، تضيء وجهه المتجعد، ويعاتبني بلطف:

- ألا نجيب دعوة من ينادي علينا في اليوم خمس مرات؟

هذه الإجابة أربكتني. لم أفكر بهذه الطريقة من قبل. جدي، الأزهري بفصاحته وطيب معشره، يعرف وضع الكلمات في مكانها الصحيح. ثم يتابع كلامه الدافئ:

- إنها النداء اليومي إلى اللقاء، ولبث الهموم والدعوات، لشحن النفس استعداداً للقاء القادم.

ازداد ارتباكي. كلماتي تتدافع على شفتيَّ، ولا أعرف أيها يجب أن يخرج أولاً.

قلِقٌ عليه، يتعب كثيراً في طريقه إلى المسجد، وكاد أن يقع أكثر من مرة. أنا وعصاه نتناوب على الإمساك به، إجاباته دائماً تحيرني:

- من يقع في طريقه إلى لقاء خالقه، أفضل ممن يقع في معصية عدم اللقاء.

ويطمئنني بأنني لا داعي للقلق، فطالما سمع النداء، وسار متكئاً على عصاه، فلن يوقفه شيء.

تساؤلاتي تزداد كلما تحدث عن عصاه. يخاطبني بـ "صغيري"، وهذا يزيد من حيرتي:

- بماذا أنا صغير، وقد قاربت على العشرين؟

يواصل حديثه... لو بقي يوم واحد من عمره، فلن يتخلى عنها. كيف لا، وهي الرفيقة له، كما اعتاد أن يصفها.

عبارتان قالهما جعلتني أدخل في متاهة من الأسئلة:

ما سرّ هذا الارتباط بين العصا والمسجد؟ خيوط معقدة يصعب عليّ فكّها، فقررت أن أحفر في ماضي جدي؛ لأفهم حقيقة هذا الارتباط.

أسمعه كل يوم يدعو ويستغفر بعد الصلاة، وأنا أؤمّن على دعائه. لكن اليوم، لاحظت أن جُمَلَ دعائه المعهودة غابت، وبدلاً منها يكثر من الاستغفار.

صمت قليلاً، وغاص في ذكريات الماضي، ثم طلب مني أن أتعلم منه، وألا أستهين بشيبه وكبر سنه.

يقول دائماً:

- الدهن في "العتاقي"، ولكل مقام مقال، ولكل حاجة طريق وباب.

كلمات تحمل في طياتها حكمة ما، لكنني لم أستطع بعد أن أفهمها تماماً. كل ما أعرفه أنني أحبه، وأحب رفقته، وسأظل أحفر في ماضيه؛ لأفهم سرّ هذه العصا، وذاك الاستغفار الذي لا ينتهي.

دعوت جدي إلى الجلوس بجانب المحراب؛ ليريح ظهره المُتعب. أصدقاؤه ينتظرونه، أو من بقي منهم على قيد الحياة. شيخ المسجد يحادثهم بصوته الهادئ، ويروي لهم حكايات من زمن مضى.

ساعدت جدي على النهوض، بينما عصاه تسنده من الجهة الأخرى. يسير بعزيمة، رغم أن صوت طقطقة عظامه يسمع بوضوح. الألم لم يظهر على شفتيه، كما لو أن قوة خفية تحميه. تلك القوة التي جعلته دائماً مميزاً بين الناس.

جلس جدي، وابتسامة خجولة تتشكل على شفتيه، زهرة تتفتح في حديقة وجهه. احتضن عصاه بحنان لطفل صغير. ثم طرح سلامه مبادراً:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

فرد الجميع بصوت واحد:

- وعليك السلام يا حاج أبا رافع، وداعين الله أن يديم عليك الصحة والعافية.

وقتها، قلت في نفسي:

- مشاركة الحديث مع كبار السن من أصعب الأمور في حياتي. كلامهم تبادل للتاريخ أكثر من الحديث عن المستقبل. ورموز كلامهم مفاتيح للماضي، لنفهم من خلالها المستقبل.

نظر إمام المسجد إلى جدي بتأمل، ثم قال:

- ما شاء الله، يا حاج، القوة من الله لك دائماً. أنت من أهل المسجد ورواده الذين نعتز بهم بيننا.

اعتدل الجدُّ في مَجلِسه، ثم وضع يده على كتف الإمام بحنان الأبوة، وحكمة الشيخوخة، وقال لهم بصوته الهادئ الذي يُذكِّر بزمن الصحابة:

- سألني حفيدي قبل قليل عن سر استغفاري اليومي.. لماذا أكثر منه حتى فاق دعائي؟ أحببت أن تجيبوه معي، لعل القلب يزداد يقيناً.

فالتفت الإمام، وتلألأت عيناه وقال:

- الاستغفار والدعاء جناحا مناجاة.. لكن أتدرون ما قال الشيطان حين رأى بني آدم يسقطون في الذنب، ثم ينهضون بالاستغفار؟ — هزَّ رأسه كما لو كان يُحدِّثهم بسرٍّ عظيم — لقد اعترف عدو الله بقوته، فقال: أهلكتهم بالمعاصي، فأهلكوني بـ(أستغفر الله) و(لا إله إلا الله).

فلما أيقن أن الاستغفار يُذيب ذنوبهم تحت شمس التوبة، بثَّ فيهم الأهواء.. حتى يظنوا الخطأ حسناً، وينسيهم التوبة.

همس رجل جالس في الظل كان صامتاً، كلماته تخرج من أعماق قلبه المجرَّب:

- ألا ترون كيف تُثقِل الذنوب الصدر؟ إنها أمراض القلوب التي لا دواء لها إلا التوبة.. والاستغفار هو النَّفس الذي تعود به الروح إلى ربها.

فابتسم الجدُّ، ورفع إصبعه منبهاً ليُعلِّمهم درساً من دروس الحياة:

- الدعاء بيت الله الواسع، ندخله كل يوم لنحدثه عن همومنا، ونشكره على نعمه، ونسأله من فضله.. هو تحيتنا لبعضنا، وتهنئتنا، وحتى دمعتنا على فراق الأحبة، ألم تسمعوا كيف كان النبي (ﷺ) يعلّم الصحابة أن يقولوا: «بارك الله لك» أو «أعاذك الله من الشرور»؟ الدعاء هو الحياة.

انفتح قلبي فجأة بنور جديد... كم مرة دعوت دون أن أشعر بأنني أتنفَّس بذكر الله؟ كم مرة قلت "بارك الله فيك"، ولم أعرف أنها دعوة صادقة ترتفع إلى السماء؟

لكن سؤالاً بقي يطرق باب روحي:

إذا كان الدعاء هو الحضن الدافئ لجميع مناجاتنا.. فما موقع الاستغفار؟ أهو مجرد طلب للمغفرة.. أم أنه سرٌّ أعظم؟

كأن جدي قرأ ما يجول في قلبي قبل أن ينطق به لساني، أمسك عصاه فتشابكت عروق يده عليها، جذور شجرة تمسك بالأرض، ثم رفع رأسه وقال بصوته الذي يُذكِّر بزهوِ الأزهر الشريف في أيامه الذهبية:

- إذا دخلت بيت الدعاء، فادخله بضعف العبد ورجاء المؤمن، وادخله بطمع الطفل في كرم أبيه، وتيقن أن فيه غرفة لا يملك مفاتيحها إلا أنت.. — ثم أومأ بيده نحو صدره ليشير إلى عالم آخر — إنها غرفة الاستغفار بابُها قلبك، ومفتاحها دمعك، وجدرانها أسرارك بينك وبين خالقك. لا يدخلها إلا القويُّ بضعفه، ولا ينجح فيها إلا الضعيف بقوته، الاستغفار نسمات الروح التي ترفرف نحو العرش.

احتككت الأكتاف في المجلس، ومال الجميع نحو كلماته. حتى الإمام مال قليلاً، ليسمع هذا الكلام لأول مرة، كيف لا، وجدي — الذي يُلقبونه في المخيم "بالأزهري" — يحمل بين طيات حديثه عبق الأزهر.

- كيف يكون الدعاء بيتاً.. والاستغفار غرفة؟ — اندفعت بالسؤال قبل أن أتمالك نفسي.

فانحنى قليلاً، وابتسم تلك الابتسامة وأشار إلى المحراب:

- في بيوتنا غرفة نخلع فيها أثوابنا المتسخة.. وفي غرفة الاستغفار، نخلع ذنوبنا واحدة واحدة، نضعها أمامنا، نتألم من جراحها، نستحي منها، ثم نغسلها بدموع الندم حتى تبيضّ من جديد.

سكت الجميع.. حتى كدت أسمع دقات قلوبهم.

فجأة، ارتفعت همسات الاستغفار أصواتها أمواج البحر في الليل. جعلنا نرى الاستغفار جراحة للقلب، لا ككلمات تقال.

- في هذه الغرفة...، — تابع جدي وصوته يرتجف في مهب الريح — "أنت وحدك أمام مرآة روحك تُجرد نفسك من الكبرياء... تقف عارياً أمام الله، تخلع الذنب بعد الذنب، حتى تشعر أن ثقلاً يحطم صدرك قد زال.

فهمت أخيراً...

- الدعاء هو أن تطلب من الله كل شيء.. أما الاستغفار فهو أن تتطهّر من كل شيء يمنعك من الله.

لكن جدي قطع صمتي بتشبيه هزَّ أعماقي:

- الذنوب وحل ملتصق... إن تركتها على ثوبك جفَّت وصارت جزءاً منه، لكن دمع التوبة الماء الذي يذوب فيه الوحل حتى يزول" — ثم ضرب عصاه على الأرض ضربة جعلت الجميع يقفزون — "فإن أغلقْتَ غرفتَك وهربتَ من ذنوبك.. مات القلب، وانهار البيت.

اغرورقت عيون الإمام...لم يتمالك نفسه، فقام وهو يمسح دموعه بكفّه الخشنة:

- الاستغفار أيها الأحبّة.. أن تنظر إلى ذنبك تحت مجهر الخوف من الله، تحتقره، تتألم منه، ثم تحاصره بالاستغفار حتى يختفي.

وأكمل جدي مبتسماً ليهدئ الجميع:

- بالدعاء تسأل النعمة.. وبالاستغفار تحفظ النعمة، لذلك كان النبي (ﷺ) يستغفر الله في اليوم مئة مرة وهو المعصوم.

سكت قليلاً، وغاص في ذكرياته، حتى ظننا أنه لن يكمل.. لكنه أخرج لنا كنزاً من الماضي:

- سألني شيخي في الأزهر يوماً: لماذا الحزن يا رافع؟

فقلت: أبحث عن حلٍ لمشكلتي..

فغاب عني أياماً، ثم عاد وسألني: هل وجدت الحلَّ يا بني؟

فقلت: نعم.. دعوت الله واستغفرته

فضحك وقال: الاستغفار هو الحلُّ الذي نبحث عنه.. فهو المذيب الأعظم للذنوب.

ما تعلمته في المدرسة قد يكون سطراً بعد كل ما سمعته اليوم، أو حتى عنواناً مختصراً. أستاذنا محمود كان يحدثنا عن أمور ديننا، وأن الاستغفار من أعظم أنواع الذكر، ومعناه طلب المغفرة. وحفظنا منه عبارة سيد

الاستغفار: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"

خرجنا من المسجد. الشمس تميل للغروب، وظلُّها الطويل يسير أمامنا كرفيقٍ قديم.

- ألا تأكل معنا؟ — سألته وأنا أعلم أن جدتي تنتظرنا، وأن طبق الخبيزة بالليمون، والفجل والبصل والشطة — طعامه المفضل — سيبخُر على المائدة.

ضحك ذلك الضحك الذي يُذكّره حين كان شاباً يملأ الحارات ضجيجاً وقال:

- أخاف إن تأخرت أن تُغلق الباب" — قالها وهو يغمز بعينيه.

توقف فجأة عند سور البيت، وأسند ظهره إليه، ثم نظر إلى السماء يبحث عن شيء بين السحب.

– الشيخ حسن..." — همس وهو يمسح شيئاً غير مرئي من عينيه — "كان يقول لي: الدنيا بحر من الحماقات، وأنت فيه بلا قارب، إما أن تصنع لنفسك مجدافاً.. أو تغرق.

– وكان يضربك بهذه العصا؟ قفز السؤال من فمي قبل أن أفكر.

انفجر ضحكاً حتى كادت دموعه تبلل شاربه الأبيض...

- يضربني؟! — صرخ وهو يمسك بأذني بلطف — لو كان يضربني بها لكنت كسرتها على ظهرك أنت.

دخلنا البيت، وجدتي تقف على الباب بعينين تقولان:

- أدركْ طعامك... فغضبي سيكون إعصار...

لكنها ما إن رأت جدي حتى تلاشت السحابة من وجهها.

في الحوش.. تحت شجرة التين جلس جدي على كرسيه من القشّ القديم، ومدّ رجليه يستعد لحكاية من ألف ليلة وليلة.

أسرعت أحضر له كأس الماء — نصفه يسيل على يديَّ من شدة تسرعي — وهو يشرب ثم يبتسم:

- اللهم أسقنا من يد النبي (ﷺ) شربةً لا نظمأ بعدها أبداً.

- بدأت الحكاية في السنة الثانية لي في الأزهر.. — قال وهو يدير العصا بين أصابعه — فرخة ضائعة في قنن جديد، أخطئ وأتعثر، وأحياناً.. أقع في الذنوب جاهل في كل شيء إلا إيماني بالعلم. حتى جاء يوم رأيت فيه الشيخ حسن — ذلك الرجل الذي يبدو خرج من كتاب قديم — يقف أمامي بهذه العصا.

توقف ويصف مشهداً قديماً يعود أمامه..

- قال لي: يا رافع.. هذه ليست عصا للمشي.. بل هي عصا التذكير، كلما ضعفت.. تمسك بها فتذكرك بمن تركك لتوصل رسالته.

رفع العصا إلى نور الشمس المتسلل من بين أوراق الشجرة..

- انظر.. — قال وهو يشير إلى نقوشها الخفيفة — هذه الخطوط ليست زينة.. بل هي عدد المرات التي كدت فيها أن أضيع فأنقذتني.

سكتُّ.. وفهمت، هذه العصا ليست خشباً، بل هي سيرة رجل، سيرة جدي والشيخ حسن، وكل من عرف أن الطريق إلى الله يحتاج أحياناً إلى عكاز.

عندما كان شاباً صغيراً، أرسله والده ليتعلَّم في الأزهر. والزمان زمان حرب، وصل هناك، وسكن في غرفة فيها تسعة أشخاص. الفقر علامتهم الوحيدة. سراويلهم شبه ممزقة، وطعامهم بعض الخبز والجبن، وحبات من الفول المدمّس، وحبة بندورة مجعّدة الوجه، وزيتوناً جفّ من قلّة الزيت عليه.

في أول يوم دراسي، دخل عليهم شيخهم غرفة الفصل. تعلو رأسه عمامة بيضاء، ويلبس جبة صوفية، وسروالاً أبيض، وبيده عصاه.

نظروا إليه بتمعّن، جالسين ملتصقين ببعضهم من ضيق الغرفة. هزّ رأسه دون أن يخاطبهم بأي كلمة، وتبادلوا النظرات. منهم من بدت عليه علامات الخوف، وآخرون اجتاح القلق مفاصلهم.

يتساءلون بصمت الطفولة:

- من هذا الشيخ الجليل، فحوله هيبة ترتجف منها القلوب؟

وقفوا جميعاً لرد السلام والتحية دون تردد، وقفة واحدة، والرؤوس إلى الأسفل والعيون تحاول أن ترتفع لأعلى لتسرق نظرات أخرى من وجه الشيخ القادم. تجوّل بينهم، يعدُّهم، أو يتفقدهم. حتى أنهم أحسوا أنّه يبحث عن شيء ما بينهم، أو فيهم.

- ماذا يريد؟

إنه أستاذهم، شيخهم حسن. وقتها لم يجرؤ أي منهم على الحديث، أو حتى الاستفسار.

هم في عالم لا يعرفونه ويجهلونه. منهم السعودي والفلسطيني والمصري، والأردني والسوداني، وغيرهم الكثير. صقلهم هول الموقف والحضور بقالب الصمت والترقب.

- هل هو الخوف أم الاحترام ما جعلكم بتلك الحالة؟

- لا أكذب إن قلت لك نعم، كنا خائفين، ولكن لا نعرف من ماذا. لم نكن خائفين من شيخنا، ولا من عصاه التي يحملها، ولا من غربتنا. كنا فقط خائفين.

شعرت أنني أجلس معهم في غرفة الفصل –كما يسمونها في مصر– عندما بدأ شيخهم درسه عن الإسلام والإيمان والجنة والنار... وعقولهم الغضة تلاحق كلماته، وتحفظ منها الكثير، ويشرد منهم بعضها.

ليسوا معتادين على الحديث، أو حتى الاستماع لأحد باللغة العربية الفصيحة، حتى أن بعض كلماته حسبوها ليست عربية.

في نهاية الأسبوع الأول، عندما هموا بالخروج عائدين إلى غرفتهم القريبة من الأزهر، وقف الشيخ على باب الفصل طالباً من الجميع المغادرة بهدوء، إلا رافع...

طلبٌ أربكَ هدوءَ جدي وعزمه إلى الخروج.

- ابق هنا يا رافع، فأنا أحتاجك...

كان كمن حظي لحظتها بشأن ما ورتبة كبيرة، فأجابه بكلمات مترددة تغلفها رهبة كبيرة:

- حاضر يا شيخي.

اصطحبه إلى غرفة كبيرة مقوّسة تشبه المكتبة، وفيها طاولة كبيرة عليها بعض الكتب والأوراق ومحبرة وريشة، وكرسي خشبي. ونافذة تطلُّ على السّاحة، تتزاحم خيوط الشمس فيها مع الستارة المتأرجحة من الهواء الداخل عند فتح الباب. جلس وتأمله بنظرات حانية:

- سأعطيك وظيفة.

- وظيفة لي؟

طلب منه أن يهتم بالغرفة، وينظفها كلما احتاجت ذلك، وعند تخرّجه سيعطيه عصاه هذه أجرة له. سائلاً:

- هل توافق؟

تسارعت بتزاحم كبير الكلمات والتساؤلات في ذهن جدي وهل يجرؤ على الرفض؟

- أنا........؟

وما تلك الأجرة الغريبة؟ عصا الشيخ...

تبسّم شيخه، وفهم حيرته بصمته، وتلك ابتسامة فرّجت خوف قلبه، وأزالت الرهبة التي تربط مفاصله.

نهض عن كرسيه حاملاً عصاه عارضاً إياها عليه:

- أنت من فلسطين، والعصا من شجرة زيتون مقدسية، أخذتها عند زيارتي إلى المسجد الأقصى، وهي أكثر ما أعتز وأفتخر به من ذكرى. وبما أنك فلسطيني، فأنت أحق بها من غيرك. هذه العصا يا ولدي.. ميراث الدعوة والقضية.

شعر جدي بفرح غامر، فهو الموعود بأن يكون صاحب عصا الشيخ ومن أحبه. وأصبحت له واسطة، نعم شعر أنه يختلف عن الآخرين...

- كم كان صغيراً في كل شيء، حتى بنظرته إلى هدية الشيخ وقتها.

وباستعجال وافق... وسيقوم بما يطلبه منه.

عصا جدي تنتمي إلى عالم آخر. لم تكن مجرد عكاز يتكئ عليه، بل شاهد عصر مضى، وجسراً بين جيلين، ووصية من رجل لم يمت.

في ذلك المساء، تحت شجرة التين التي شهدت حكاياته، مدّ يده نحو العصا ببطء، يستأذنها قبل أن يتحدث.

- هل تعلم؟ ... يوم أعطاني الشيخ حسن هذه العصا، قال لي كلمة لم أفهمها إلا بعد سنوات. — توقف، ثم نظر إليّ بعينين تعرفان وزن الكلمات —
- قال: هذه ليست عصا.. بل هي قضية.

صمتٌ ثقيل.. حتى سمعت حفيف أوراق الشجرة تشاركنا الحديث.

- في البداية ظننتُها مجرد كلمات.. حتى رأيت الشيخ يُقتل وهو يعلم القرآن الكريم في قرية نائية، يومها فهمت أن العصا أول سلاح في معركتنا.. معركة حمل الرسالة والحفاظ على الدعوة.

دفعها نحوي فجأةً...

- خذها.. فقد حان وقتُك!

ارتجفت يدي وأنا أمسك بها لأول مرة. خشبها الناعم يحمل أخاديد عميقة...

- لكن.. أنا لست... أزهرياً
- أتعرف لماذا اختارها الشيخ حسن من شجرة زيتون؟ — قاطعني بنبرة لم أسمعها منه من قبل —لأن الزيتون شجرة لا تموت، يقطعون أغصانها.. فتنبت من جديد.

أدركت فجأةً لم يكن يعطيني عصا.. بل كان يسلّمني مشعلاً...

- في كل مرة تسمع فيها صوتها على الأرض.. تذكر أن لها لغة — قال وهو يضربها بلطف على البلاط

  – انظر.. هكذا تتكلم...

صوتها نبض قلب.. دقّتان.. ثم صمت.

- الضربة الأولى.. تذكيرٌ بأن الدعوة لم تنتهِ. والثانية.. أن القضية لا تموت. كما أن الاستغفار يُجدّد الإيمان، فإن العصا تجدّد العهد بحمل الأمانة.

لم أستطع الكلام...

فقد رأيت فجأة كل شيء، الشيخ حسن الذي زرع البذرة، وجدي الذي رواها بعرقه، العصا التي سارت في دروب الأزهر، ستسير يوماً في أزقة القدس بعد تحريرها، الاستغفار يطهر القلب ليكون أهلاً لحمل همّ الأمة.

وأنا.. الذي عليه أن يحمل المشعل الآن باستغفار يزكي، وعصا تواصل المسير، وقضية لا تنسى.

- لكن.. كيف...؟

العـمّ ربيـع

في زاوية ضيقة من رصيف القرية، تتكدس الفاكهة تحت شمس الصعيد الحارقة، العم ربيع يقف أمام بسطته المتواضعة، يمسح بكمّ "جلابيته" البالية عرقه، عيناه تتجهان نحو الشارع بتعب. لم تكن تلك حركة الناس الهادئة التي يعرفها، يرفع رأسه نحو السماء لتُذكّره مرة أخرى بسماء غزة التي تختنق بدخان القنابل وصرخات الأمهات. تساءل في نفسه:

- كيف تُشرق الشمس هناك بينما القلوب مظلمة؟ وكيف ينام الجوعى وأطفالهم يبكون؟

انحنى على جيبه الممزق، أخرج منه قطعة نقدية متآكلة، نظر إليها طويلاً فهي آخر ما تبقى. ثم ضحك ضحكة مريرة وهو يتذكر خطاب الرئيس الذي سمعه على المذياع القديم، يتحدث عن "الصمود" و"الحدود الآمنة"، بينما تغلق المعابر وتحجب المساعدات خلف أسلاك شائكة.

- حدودنا تفصل الجائع عن الخبز، والمحتضر عن الدواء –همس لنفسه–.

في تلك اللحظة، مرّت أمامه صورة طفل غزيّ على شاشة هاتف جاره، يحمل علبة فارغة يبحث فيها عن بقايا طعام. لم يعد يرى الطفل، بل رأى حفيده الصغير "سليم" الذي يلهو ببراءة تحت سقف البيت.

- لو كان سليم هناك... لكان هو الجائع...

ارتعشت يداه، ثم أطبقهما على القطعة النقدية بقوة، يمسك بقلبه قبل أن يُلقيه في مهبّ الريح.

في اليوم التالي، وقف العم ربيع أمام بسطته، يبيع برتقالاً ممزوجاً برائحة العرق والتراب وتمتم بكلمات صعبة: – هذا ليس مالاً... هذا عار الحُكّام الذين يشبعون بينما هم هناك تموتون.

في غزة التي كانت يوماً ما تعج بالحياة والفرح، أصبحت الآن محاصرة بقوات الاحتلال. القذائف تتساقط كل دقيقة، والسماء لم تعد تعرف سوى دخان الحرب وصراخ الأطفال. المجاعة ضربت أطنابها، وأصبح الخبز حلماً بعيد المنال.

على بعد مئات الكيلومترات، ما زال الفلاح المسن في قريته النائية في صعيد مصر، أمام بسطته الصغيرة يبيع فيها الفاكهة، بالكاد توفر لقمة العيش لأسرته. ورغم فقره، قلبه واسع كالنيل يمتد إلى قلوب الغزيين، يجلس يفكر مع نفسه:

- ما الذي يمكنني أن أفعله؟ كيف يمكنني أن أُسهم، حتى لو بشيء بسيط؟

لم يملك ثروة، نظر إلى صندوق البرتقال أمامه، وشعر بأن هذه الحبات، رغم بساطتها، قد تكون بمثابة شمعة تضيء عتمة حياة طفل جائع.

في يوم مشمس، وبينما شاحنة مساعدات تستعد للانطلاق إلى غزة، وقف العم ربيع بجانب الطريق. بيديه المتعبتين، بدأ يرمي حبات البرتقال إلى داخل الشاحنة، واحدة تلو الأخرى، وهو يبتسم.

نظر إليه صديقه الذي يقف بجانبه بدهشة، وقال:

- يا عم ربيع، كيف تعطي كل ما لديك؟ أنت بالكاد تجد قوت يومك.

رد العم ربيع بابتسامة عميقة:

- يا أخي، أطفال غزة أحوج إلى هذا البرتقال مني. إذا كان يمكنني أن أطعمهم ولو حبة برتقال واحدة، فهذه أعظم نعمة لي. نحن الفقراء نشعر بالجوع، ونعرف ماذا يعني أن تمد يدك ولا تجد شيئاً.

لم يعلم العم ربيع أن أحد المصورين قد التقط لحظة انكسار قلبه بين أصابعه المتشققة، وهو يدفع بحبات البرتقال نحو الشاحنة.

"الكاميرا" لم تلتقط مجرد صورة، بل التقطت صرخة ضمير في زمن صمت فيه الحكام. انتشرت الصورة كالنار في الهشيم، ليس لأنها غريبة، بل لأنها كشفت المفارقة الأقسى على لسان المصور:

- رجل بلا اسم يضاء به وجه الإنسانية، بينما تُخفي "شهرة" الزعماء وجوهاً بلا ضمائر.

أصبحت الصورة أيقونة تُحاكي بها الأمهات في البيوت، والشباب في المقاهي:

- انظروا، هذا الفعل الذي يُحرّك السماوات، لا خطابات المنصات المذهّبة.

لقد حوّل العم ربيع فقرَه إلى سلاح، بينما حوّل الحكام سلطتهم إلى جبن. صار اسمه يذكر في المنتديات قبل أسماء من يملكون الملايين، لأن التاريخ لا يحفظ من "المشاهير" إلا من أضاءوا شمعة في الظلام، لا من أضاءوا كاميراتهم بينما الظلام يقتل الأطفال.

في تلك الأيام، تعلم الناس أن الشهرة الحقيقية ليست في الظهور على الشاشات، بل في الظهور في قلوب المظلومين. فـ"شهرة" العم ربيع كانت دمعة امتنان في عين أرملة غزية، بينما "شهرة" آخرين رقماً في قوائم العار تُحصي ضحايا صمتهم.

وهكذا، صار البائس الفقير نجماً يُشار إليه بالبنان:

- هذا هو العربي الذي لم تمُتْ فيه إنسانيته.

وصلت شاحنة المساعدات إلى غزة، الأطفال في استقبالها. وسط الصناديق الثقيلة، هناك حبات متناثرة صغير من البرتقال. ركض الأطفال نحوها بفرحة لا توصف. أخذ أحمد، طفل صغير لم يذق طعم الفاكهة منذ أشهر، حبة برتقال بين يديه وقال:

- من أين أتى هذا البرتقال؟

أجابه أحد المتطوعين مبتسماً:

- هذا من رجل طيب من صعيد مصر. لقد أعطانا ما يملك ليصلكم.

قشّر أحمد البرتقالة ببطء، وقال:

- شكراً يا عم ربيع. البرتقال لذيذ جداً، وجعلني أشعر أننا لسنا وحدنا في هذا العالم.

وقال عبد الرحمن وهو يتذوق البرتقال:

- عم ربيع، البرتقال مميز. أشعر أنك أخي الكبير الذي لم ألتقِ به بعد. شكراً لأنك لم تنسنا.

وقالت مريم الطفلة المصابة على سرير المستشفى:

- عندما أكلت البرتقالة، شعرت أن هناك من يحبنا في هذا العالم. بارك الله فيك يا عم ربيع، أنت جعلتنا نبتسم.

أما يوسف الذي فقد عائلته جميعها فقل:

- عم ربيع، أنت بطلنا. البرتقال في أيدينا اغلى من كل شيء. جزاك الله خيراً لأنك علمتنا أن العطاء لا يحتاج إلى ثروة، بل إلى قلب كبير.

وصلت الرسائل إلى العم ربيع عبر المتطوعين، اختنق صوته بالعبارات، وقال:

- الحمد لله. لقد وصلت حبات البرتقال إلى أيدٍ تستحقها. لو لدي أكثر، لما ترددت للحظة.

بعد أن انتشرت قصة العم ربيع، قرر أحد الصحفيين زيارة القرية النائية في صعيد مصر لمقابلته. وقف الصحفي أمام البسطة الصغيرة، حيث العم ربيع يجلس بابتسامته الدافئة.

- الصحفي: عم ربيع، لقد أصبحت حديث العالم كله. كيف شعرت عندما رأيت تأثير حبات البرتقال التي أرسلتها إلى غزة؟

- العم ربيع: –يبتسم بتواضع– "والله يا بني، ما توقعت أن حبات برتقال بسيطة هتفرح ناس كتير. أنا ما عملتش حاجة كبيرة، بس أعطيت اللي أقدر عليه".

- الصحفي: لكنك أعطيت كل ما تملك! كيف تقول إنها ليست كبيرة؟
- العم ربيع: –ينظر إلى السماء– يا ولدي، يقولون أن الفقراء هم أكثر الناس عطاء، لأنهم يعرفون معنى الجوع والحاجة. لما تكون فقير، بتحس بغيرك اللي بيحتاج. العطاء مش بالمال، العطاء بالقلب.
- الصحفي: لكن ألا تخشى أن تعطي كل ما تملك وتحتاج أنت بعدها؟
- العم ربيع: –يهز رأسه– لا يا بني، الإيمان اللي في قلبي أكبر من أي خوف. لما تعطي، الله بيرزقك من حيث لا تحتسب. أنا ما خسرت حاجة، بل كسبت فرحة أطفال غزة.
- الصحفي: ما الرسالة التي تريد أن توجّهها للعالم بعد هذه القصة؟

العم ربيع –يحدّق في الكاميرا وعيونه تخترق شاشات التلفاز إلى قصور الحكام–:

- أريد أن أقول للحكام الذين يختفون وراء الجدران العالية والخطابات الفارغة، أنتم لستم فقراء في المال، بل فقراء في الضمير، وللشعوب التي تنتظر معجزةً لتتحرك: لا تستهينوا بحفنة دعم تقدمونها، فاليد التي تزرع خيراً – ولو مثقال ذرة – ستسقط أقنعة العاجزين عن فعل حتى ذلك.

نحن الفقراء نعطي لأننا نعرف أن الجوع لا ينتظر مؤتمراتكم، وأن الدم لا يُمسح ببيانات التعازي، فليكن عطاؤكم – مهما قلّ – صرخة في وجه زمن الخيانة، لا صمتاً يشبه موتكم الأخلاقي

ثم يلتفت للصحفي، وعيناه تلمعان بتحد:

- العار ليس في أن تعطي القليل، بل في أن تمنع حتى القليل باسم السياسة!

ظلال الشاشة والندم

في أحد الأحياء الشعبية، حيث تكافح الأسر لتأمين لقمة العيش، عاش مراد وزوجته مها حياة بسيطة تخلو من الرفاهية. مها موظفة عادية في شركة صغيرة، تعمل بجد هي وزوجها لسدّ حاجات بيتهما المتواضع. لديهما ابن صغير اسمه عمر، طفل بريء يحلم مثل أي طفل بألعاب وهدايا، غير مدرك لمعاناة والديه اليومية.

تربت مها على القيم المجتمعية السائدة، تلك التي تُعلّم الفتاة أجزاء من دينها، وأحياناً يتغلب العرف الاجتماعيٍ عليه، يجب الحفاظ عليه أمام الناس، دون تأصيل ديني حقيقي يغرس الوازع الإيماني في القلب مع الرضا والشكر.

وفي غياب هذا الأساس المتين، تشعر مها بأن بيتها أرضاً جافة، ينقصه دائماً شيء ما، وهي مستعدة لأن تنبت أيَّ بذرة تسقط عليها، لتكمل النقص، حتى لو من وساوس الشياطين. لتقلد صديقاتها الأغنى منها.

ذات يوم، بينما مها تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي في لحظة استراحة نادرة، لفت نظرها نمط من النساء اللواتي حققنَ شهرةً ومالاً سريعين عبر نشر محتوى مثير يتلاعب حول حدود الحياء.

في البداية، قاومت الفكرة واستنكرتها، لكن الحاجة المادية، والرغبة في تقليد أولئك النساء بدأت تتسلل إلى قلبها كالسم الزعاف.

- لماذا لا؟ الجميع يفعلونه، فقط لفترة قصيرة... لن يعرف أحد، وسأحافظ على سمعتي أمام الجميع.

هكذا خاطبت نفسها، غير مدركة أن الشيطان يزين لها الخطيئة خطوة بخطوة، وأن السقوط يبدأ بهذه الأفكار الصغيرة التي تفتح الباب أمام الكبائر.

نشرت مها مقطعها الأول، وبالرغم من أن ضميرها يصرخ بالخطأ، إلا أن الانبهار بالأموال والشهرة دفعها للاستمرار. ومع كل مقطع، تغفل أن ما بدأ بخطوة صغيرة يتسلل تدريجياً ليصبح هاوية.

أما مراد، في بداية الأمر، رأى هذا الخيار مخرجاً مؤقتاً من الأزمة المالية، غير مدرك تماماً للثمن الذي سيدفعه الجميع لاحقاً. مع مرور الوقت، بدأت مها تفقد احترامها لنفسها. تشعر بالذنب كلما نظرت إلى عيني عمر، الذي بدأ يسأل أسئلة محرجة:

- أمي، لماذا ترتدين هذه الملابس؟ أليس هذا حراماً؟

تحاول مها أن تبرر لنفسها أن كل هذا من أجل المال، لكنها تعلم في أعماقها أنها تخسر شيئاً أهم بكثير، دينها وكرامتها.

مراد أيضاً بدأ يشعر بالندم. رغم أن الأموال بدأت تغير حياتهم قليلاً، إلا أن العلاقة بينهما أصبحت متوترة. الخلافات تتفجر باستمرار، خاصة عندما يرى تعليقات السخرية أو الاستمتاع على مقاطع زوجته. حتى عمله بدأ يتأثر، حيث بدأ زملاؤه يتجنبونه، وسمع خلسة مرة أحدهم يقول:

- زوجته أصبحت حديث المدينة.

لكن سرعان ما بدأت عواقب الاستهانة بالخطأ تظهر. أصبح عمر هدفاً للتنمر من زملائه في المدرسة، الذين يلقون عليه تعليقات لاذعة، وسخرية قاسية. يعود إلى المنزل محملاً بالأسئلة الثقيلة:

- أمي، لماذا يقولون إنك تفعلين شيئاً حراماً؟ هل هذا صحيح؟

الكلمات تخترق قلب مها وتجرح كرامتها، حاولت تجاهلها، مقتنعة بأن هذا الفعل "مجرد مرحلة". ولكن، كل يوم يكشف أن الخطأ الصغير الذي بدأته، يتضاعف ليصبح عبئاً لا يمكن السيطرة عليه.

أما مراد، بدأ يشعر بالخجل والخزي أمام نظرات الناس في الحي وأحاديثهم. يسمع همسات جيرانه:

- زوجته أصبحت حديث الجميع، كيف يمكنه الصمت على ذلك؟

وفي ليلة مظلمة، جلست مها أمام شاشتها، تتصفح التعليقات، حتى وقعت عيناها على تعليق من امرأة يفيض بالنصح الصادق:

- يا أختي، هل فكرت في تأثير ما تفعلينه على دينك وأبنائك؟

هل ترضين أن يرى ابنك أو ابنتك هذا يوماً؟

تذكري أن كل خطوة صغيرة في الخطأ تؤدي إلى انهيار أكبر يصعب إصلاحه.

جرس إنذار بدأ يوقظها من غفلتها. نظرت إلى عمر الذي ينام بجوارها، وجهه البريء يحمل أثقالاً لا تناسب عمره. أدركت أنها لا تخذله فقط، بل تخذل دينها وأخلاقها.

ذات يوم، وبينما مراد ومها في المنزل يحاولان استعادة توازن حياتهما، طرقت أم مها الباب، تحمل في وجهها مزيجاً من الحزن والغضب. دخلت بخطوات بطيئة، وأغلقت الباب خلفها بصمت أكثر وقعاً من الكلمات. جلست الأم على الكرسي المقابل، ونظرت إلى مها نظرة مليئة بالعتاب. قالت بصوت مليء بالأسى:

- مها، ما هذا الذي سمعته عنك؟ هل صحيح أن ابنتي التي ربيتها أقدمت على أمر كهذا؟

كيف يمكن أن تستهيني بتأثير ما فعلته على دينك، على ابنك، وحتى على سمعة عائلتنا؟

انخفضت رأس مها كحبة فاكهة أصابها العفن، وبدأت دموعها تنهمر دون أن تتمكن من الرد.

حاول مراد التدخل قائلاً:

- خالتي، نحن نادمون، لقد كنا في ظروف صعبة، وأخطأنا الطريق. لم نكن ندرك حجم ما فعلناه إلا بعد أن "...

قاطعت الأم كلامه، قائلة بحزم:

- يا مراد، أنت رب الأسرة، وأنت المسؤول عن صيانة بيتك ودينكم. كيف رضيت بما فعلته زوجتك؟ كيف سمحت للمال الحرام أن يدخل بيتك ويهدم قيمه؟

ألم تفكروا في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل جسد نبت من السحت فالنار أولى به)؟

كيف غاب عنكما أن الخطأ مهما كان صغيراً يزداد ويتراكم، حتى يدمّر كل شيء؟

نظرت إلى مها مجدداً، وواصلت حديثها، وقد بدأت عيناها تمتلئان بالدموع:

- مها، يا ابنتي، هل فكرت في عمر؟

هل فكرتِ في تلك العيون البريئة التي ترى فيكِ القدوة والمثل الأعلى؟

هل ما تريدينه لطفل أن يعيش معاناة التنمر والعار بسبب تصرفات أمه؟

رفعت مها رأسها أخيراً، وقالت بصوت حزين متقطع:

- أمي، أعلم أنني أخطأت. شعرت بأنني أغرق وأبحث عن أي شيء ينقذني، لكنني اخترت الطريق الخطأ. ندمت كثيراً، وسأغلق الحساب، وقررت أن أعود لحياتي القديمة مهما كان الثمن.

وضعت الأم يدها على يد مها بحنان رغم الألم، وقالت:

- يا ابنتي، المال الحرام لا يجلب إلا الخزي والدمار. يمكن أن تضيعي حياتك ودينك وأسرتك بسبب لحظات من الضعف. تذكري دائماً أن مواقع التواصل ليست مجرد أدوات عادية، بل هي نافذة يدخل منها الخير أو الشر إلى بيوتنا. والأبناء مرآة لنا، ما نفعل اليوم سيؤثر عليهم غداً. فكوني قدوة لعمر، وأعيدي بناء ما تهدم.

ثم توجهت إلى مراد وأضافت:

- وأنت يا مراد، لا تسمح للضغوط أن تكون مبرراً للتفريط في الدين. كونوا سنداً لبعضكما، واحموا بيتكم من كل ما يمكن أن يشوهه.

أومأ مراد برأسه، وقال بخجل:

- أعدك يا خالتي أننا لن نسير في هذا الطريق مرة أخرى. سنبني حياتنا بما يرضي الله.

ابتسمت الأم رغم الحزن الذي ما زال يغمرها، وقالت:

- الحمد لله أنكما أدركتما خطأكما. عودا إلى الله، واطلبا عفوه، وتذكرا أن البداية الصحيحة ستعيد النور إلى بيتكم.

في صباح اليوم التالي، بكت مها وهي تتحدث مع زوجها:

- لقد دمرنا كل شيء بأيدينا. أريد التوقف قبل أن نخسر أنفسنا تماماً.

وافق مراد، والندم ينهش روحه، وقال:

- علينا إصلاح ما تبقى. ربما فات الأوان لبعض الأمور، لكن لم يفت لكل شيء.

قامت مها بحذف جميع مقاطعها، وأغلقت حسابها إلى الأبد. بدأت في البحث عن عمل جديد يعيد لها كرامتها، بينما حاول مراد استعادة احترامه لنفسه بين الناس.

قررا معاً تعليم عمر أن الخطأ مهما كان صغيراً في البداية، يمكن أن يؤدي إلى الانهيار إذا لم يتم تداركه.

وذات يوم، عاد عمر من المدرسة بابتسامة أخيرة وقال لوالدته:

- أمي، أنا فخور بكِ.

في تلك اللحظة، شعرت فاطمة أن كلمات ابنها بمثابة نجاة وشفاء من كل الأخطاء التي ارتكبتها. أدركت أن الأسرة، والأبناء، والقيم أهم من أي مال يمكن أن تجلبه الشهرة أو وسائل التواصل الاجتماعي.

شعر كل منهما أن كلمات الأم ليست مجرد عتاب، بل نوراً يضيء طريق العودة إلى الحق والدين.

بدأوا من جديد، والأم داعمة لهما بخبرتها وحكمتها، تذكرهم دائماً أن كل خطأ صغير إن تُرك سيتراكم ليصبح دماراً كبيراً.

وكتبت مها في مذكراتها:

- احذروا من خطورة التهاون في الأخطاء البسيطة، خاصة فيما يتعلق بمواقع التواصل الاجتماعي. فهي ليست مجرد منصة ترفيه، بل نافذة يدخل منها الخير أو الشر إلى حياة العائلة.

وأضاف لها مراد:

- علينا أن نكون واعين لما يشاهده أبناؤنا ومن نشاهده نحن، فما نشاهده نحن على مسمع أطفالنا، يحمل موافقة لأبنائنا ليشاهدوه، وأن ندرك أن الاستهانة بالقيم، قد تؤدي إلى انهيار الدين والأخلاق والأسرة.

كل خطوة صغيرة في الخطأ، تُراكم حتى تشكل دماراً يصعب ترميمه.

هند... لم تكن مجرد رقم

أنا هند رجب، طفلة من غزة، عمري ست سنوات فقط، عشت في سنواتي القليلة ما يكفي لأروي للعالم قصة وحشية لا تنسى. قصة عن عائلة صغيرة تسير بسلام في سيارتها، قبل أن تتحول حياتها إلى جحيم في لحظة واحدة. اليوم الذي فقدت فيه كل شيء لم يكن يوماً عادياً، حتى بمعايير غزة، حيث دويّ الانفجارات جزء من الحياة اليومية.

أجلس في المقعد الخلفي بجانب النافذة، أراقب السماء الزرقاء التي تبتسم لنا. أحلم بيوم لا نسمع فيه صوت القنابل، يوم نلعب فيه بحرية دون خوف. عم والدتي يقود السيارة بيد مرتعشة، يحاول أن يبدو قوياً لأجلنا.

وعمتي تحتضن ابنها الصغير، بينما ابنتهم "ليان" تجلس بجانبي، نضحك، نحاول أن نلهي بعضنا عن الخوف الذي أشعر به في قلبي الصغير.

فجأة سمعنا صوت انفجار قويّ، السماء انشقت إلى نصفين. السيارة اهتزت بعنف، ثم انقلبت. شعرت العالم قد توقف عن الدوران. كل شيء أصبح مظلماً.

عندما استيقظت، وجدت نفسي محاصرة بين الحطام والجثث الممزقة. حاولت أن أنادي أمي وأبي وعمي، لكنني لم أسمع أي رد. نظرت حولي، ورأيت دماء في كل مكان. الصغار بجانبي، لكنهم لا يتحركون.

"ليان" تصرخ ألماً، ثم توقف صوتها فجأة. كنت أعلم أنني الوحيدة التي ما زالت على قيد الحياة.

بقيت وحيدة في قلب تلك السيارة المحطمة، محاصرة بين جثث أحبائي، الذين كانوا يوماً ما مصدر أماني وضحكاتي.

اثنا عشر يوماً مرت عليّ... عمر كامل، كل ثانية فيها كابوساً لا ينتهي. الليل وحش يتربص بي، يلفني بظلامه الكثيف الذي لا يخترقه إلا صوت الرصاص البعيد، ونباح الحيوانات الجائعة. تلك الحيوانات تقترب من السيارة، أنيابها قبل عيونها تلمع في الظلام، تعلم أن هنا طفلة صغيرة ترتجف خوفاً بين الجثث. أو وجبة سريعة في قطاع كل شيء فيه جائع.

أسمع صوت أنيابها وهي تمزق لحم أحبائي، صوت تمزيق الجسد يتردد في أذنيّ، صوت متوحش قادم من عالم آخر.

أحاول أن أغطي أذنيّ بيدي الصغيرتين، لكن الصور المرعبة تلاحقني حتى في ظلام عينيّ المغمضتين.

كل نفسٍ آخذه يحمل رائحة الموت، وكل دقيقة تذكرني بأنني قد أكون التالية.

أخاف من النوم، لأنني أعلم أن النوم قد يكون رحلة بلا عودة. أحاول البقاء مستيقظة، أتحدث إلى نفسي، أغنّي أغاني حفظتها من أمي، الخوف يغلبني. أرى وجوه أحبائي المليئة بالدماء، أو أن أسمع صوت "ليان" وهو يناديني من بعيد. أعلم أنني إذا غلبتني عيناي، قد لا أستيقظ مرة أخرى، وقد أظل محاصرة في هذا الكابوس إلى الأبد. الليالي معارك بين جسدي المنهك، وروحي التي تحاول أن تبقى قوية، الخوف يزداد شراسة، وحش يريد أن يبتلعني مع الظلام.

بينما أنفاس ليان تضعف، حاولت أن أغني لها أغنية كنا نرددها معاً، أغنية تملأ أيامنا بالفرح. صوتي يرتجف، والدموع تخنقني.

أغني بصوت خافت، خوفاً من أن يسمعني الجنود، خوفاً من أن يكونوا قريبين. بكيت بصمت، والدموع تسيل على خديّ، وأنا أحتضنها لأخر لحظة، محاولة أن أعطيها بعض الدفء في عالم أصبح بارداً بلا رحمة.

في إحدى الليالي، بينما أحاول أن أبقى مستيقظة، شعرت بها تتحرك قليلاً. فرحت ظناً مني أنها عادت إليّ، وأن الحياة عادت إلى جسدها الصغير. فقط آخر ما تبقى من حياتها حركة صغيرة. لفظت أنفاسها الأخيرة في حضني، تحاول قول شيء، كلماتها لم تخرج. عيناها مفتوحتان، تنظران إليّ بحزن عميق، تعتذر لأنها لم تستطع البقاء معي.

ليان، ابنة خالي، جثتها باردة بجانبي، جسدها الصغير الذي كان يوماً ما يملأ المكان ضحكات وحركة، أصبح الآن ساكناً بلا حياة. أحاول أن أمسك بيدها الباردة الصلبة، لم تعد تنتمي إلى هذا العالم. أتحدث إليها بصوت مرتجف، أخبرها أنني خائفة، وأطلب منها أن تستيقظ، أن تعود إليّ، أن تحميني من هذا الظلام الذي يخنقني. لكنها لم ترد، فقط الصمت الثقيل يجيبني، صمت يقطع قلبي إرباً.

روحها تهمس لي بأنها لم تكن تريد أن تتركني وحيدة. لكنها رحلت، تاركة إياي في ظلام لا ينتهي، مع ذكريات لن تغادر قلبي أبداً.

في اليوم التالي، وجدت هاتفاً بين الحطام. بطاريته شبه فارغة، تمكنت من الاتصال بالهلال الأحمر. رن الهاتف عدة مرات قبل أن ترد عليّ مندوبة بصوت هادئ وحنون:

- مرحباً، هنا الهلال الأحمر، كيف يمكننا مساعدتك؟

قلت بصوت مرتجف، والدموع تملأ عيناي:

- تعالي خذيني.. أنا خايفة كثير. أمانة، تعالي خذيني".

ردت المندوبة بصوت حزين:

- عمو سيأتي ليأخذك، لا تخافي.
- لكنني خائفة جداً "رني على حدا ييجي يوخذني.. أنا خايفة"

ردت المندوبة محاولة تهدئتي:

- "طيب يا حبيبتي، راح آجي أوخذك. بس نقدر نيجي؟ في حواليك ضرب رصاص؟"

نظرت من النافذة، وسمعت صوت الرصاص يملأ الهواء، فقلت:

- "اه.. هنا ضرب رصاص. تعالي خذيني، أنا خايفة".

ردت المندوبة بصوت مكسور:

" –يا حبيبتي، والله بدي آجي أوخذك، بس مش بإيدي هلا".

تلك كلماتها الأخيرة قبل أن تقطع الاتصال. بكيت بحرقة، لأنني أعلم أنهم لن يتمكنوا من الوصول إليّ.

لقد أضعت الوقت كما أضعت عائلتي، ولم أعد أعرف للزمن معنى ولا قيمة، هل بعد ساعات أو أيام من الانتظار، كان سماعي لأصوات رجال الإسعاف يقتربون. ويصرخون:

- هند.. أين أنتِ؟"

رفعت يدي بضعف، وقلت:

- هنا.. أنا هنا".

لكن قبل أن يصلوا إليّ، سمعت صوت انفجار قويّ. نظرت من النافذة، ورأيت سيارة الإسعاف وهي تحترق. الجنود يطلقون النار بلا رحمة، لم يروا من حقدهم أنهم يحاولون إنقاذ طفلة صغيرة. رأيت المسعفين يسقطون واحداً تلو الآخر، بينما النيران تلتهم سيارتهم. بكيت بحرقة، لأنني أعلم أنهم كانوا آخر أمل لي.

بعد ذلك، سمعت صوت دبابة تقترب. ضخمة ومرعبة، وصوت محركها يهز الأرض تحت السيارة. وقفت بجانب السيارة، وحش يتربص بي. أخاف أن تطلق النار على السيارة، أحاول أن أختفي بين الحطام والجثث.

في إحدى الليالي، سمعت صوت انفجار قويّ، ورأيت الدبابة وهي تقصف كل شيء حولها. أرتجف من الخوف، وأحاول أن أتنفس بصمت، حتى لا يسمعني الجنود.

بعد أيام من العذاب الذي لا يطاق، بدأت أشعر بالتعب يغزو جسدي الصغير، كل ذرة من قوتي تتسرب مني مع كل نفس آخذه.

الألم يزداد يوماً بعد يوم، الجوع وحش يفترسني من الداخل، يلتهم ما تبقى من طاقتي وأملي. أشعر بثقل كبير على صدري، والحطام الذي يحيط بي يضغط على قلبي، ويخنق أنفاسي ببطء.

ساقاي المحطمتان تشعان بألم لا يُحتمل، ومع كل حركة بسيطة، أحاول القيام بها. أحاول أن أتحرك، أن أخرج من هذا الكابوس، لكن جسدي يخونني. يقول لي:

- "لا يمكنكِ الاستمرار بعد الآن."

كنت أعلم أنني لن أستطيع المقاومة لفترة طويلة، وأن جسدي الصغير قد بدأ يستسلم للألم والإرهاق.

في تلك اللحظات الأخيرة، أفكر في أمي، في أبي، في أخوتي الصغار الذين رحلوا عني. أتساءل عما إذا كانوا ينتظرونني في مكانٍ ما، في عالمٍ آخر حيث لا يوجد خوف ولا ألم. أحلم بيوم نلتقي فيه مرة أخرى، يوم نلعب فيه معاً تحت أشعة الشمس الدافئة، دون أن نسمع صوت القنابل أو نرى الدموع. أعلم أن هذا الحلم لن يتحقق. أشعر بأن النهاية تقترب، والظلام يغلق عليّ شيئاً فشيئاً. في اللحظات الأخيرة، نظرت إلى السماء، وقلت بصوت خافت:

- أمي، أنا أحبك. أخبر أبي وأخوتي أنني أحبهم أيضاً

ثم أغمضت عينيّ، واستسلمت للنوم الذي أخشاه طوال تلك الأيام. أعلم أنني لن أستيقظ مرة أخرى، وأعلم أيضاً أنني سأجد السلام أخيراً.

في صباح اليوم التالي، مع جسدي الصغير منهك، والألم يلتهمني من الداخل، النار تشتعل في كل جزء مني. أحاول أن أتنفس، الهواء ثقيل، يحمل معه رائحة الموت. فجأة، سمعت صوت دبابة تقترب، وحش فولاذي يتربص بي، يريد أن ينهي ما تبقى من حياتي.

لاحظ الجنود حركتي داخل السيارة، لقد رأوا ظلي الصغير يتحرك بين الحطام. لم يترددوا. أطلقوا نحوي ثلاثين رصاصة، كل واحدة منها صاعقة تخترق جسدي الصغير. أشعر بكل رصاصة وهي تمزق لحمي، تقطعني إرباً. الألم لا يحتمل، جسدي يشتعل من الداخل. أحاول أن أصرخ، لكن صوتي يختنق في حلقي، والدموع تملأ عينيّ. نظرت إلى السماء للمرة الأخيرة، وأنا أشعر بدمائي تسيل مني، تحمل معها أحلامي التي لم تتحقق. تمنيت لو أنني أستطيع أن أرى وجه أمي مرة أخرى، أن أسمع صوتها يهدئ من روعي. لكنني أعلم أن هذا لن يحدث.

رصاصاتهم لم تكن مجرد رصاصات، بل رسالة قاسية من عالم لا يرحم. عالمٌ يسمح لجنود بقتل طفلة صغيرة، جالسة وحيدة بين حطام سيارة، محاطة بجثث أحبائها.

أقف أمام دبابة ضخمة، جسدي الصغير لا يزيد عن ذرة في مواجهة آلة حرب لا تعرف الرحمة. لكنني، رغم كل شيء، لم أنكسر. رحلت عن هذا العالم، وقصتي ستظل حية، تذكيراً للعالم بأن الحرب لا تأخذ فقط الأرواح، بل تأخذ الأحلام أيضاً.

رصاصاتهم مزقت جسدي، لكنها لم تمزق إنسانيتي. أنا هند، الطفلة التي ستظل حية في قلوب من يقرأون قصتي، تذكيراً بأن الحرب لا تحترم الطفولة، ولا تحترم الأحلام.

بعد اثني عشر يوماً من رحيلي، تمكن فريق من المتطوعين والمدنيين من الوصول إلى منطقة تل الهوى، حيث السيارة المحطمة تقبع تحت الأنقاض. الوصول إلينا صعب بسبب القصف المستمر والرصاص الذي لا يزال يملأ المنطقة. عندما وصلوا، وجدوا السيارة وقد تحولت إلى كومة من الحديد المشوه، محاطة بالغبار والدماء.

داخل السيارة، جثثنا الخمسة ممددة بلا حراك. وأنا لا أزال في مكاني، محتضنة ابنة خالي "ليان"، تحاول حمايتي حتى في لحظاتها الأخيرة. وجهها الصغير يحمل تعبيراً هادئاً، لمن استسلمت أخيراً للألم الذي عاشته طوال تلك الأيام.

جثتي الأخيرة. عندما رفعها أفراد الدفاع المدني، لاحظوا أنني لا زلت أحمل هاتف خالي بيدي الصغيرة، قائلين:

– بعد موتها ما زلت تحاول الاتصال بهذا العالم الظالم الذي لم يأت أبداً.

الخاتمة

في النهاية، هذه القصص ليست سوى شظايا من مرايا كثيرة...

كل قصة منها تشبه نافذةً مفتوحةً على عالمٍ قد نعرفه، أو نعتقد أننا نعرفه، حتى ننظر من خلالها فنجد أنفسنا في الزجاج.

لقد حاولت عبر هذه الصفحات أن أمسك بتلابيب اللحظات الإنسانية التي تتراوح بين الألم والأمل، بين الواقع والرمز، بين الجمرة والفراشة. هي قصصٌ كتبتها بدم القلب، وحفرتها بحروفٍ تؤمن أن الكلمة قد تكون أحياناً سلاحاً، وأحياناً أخرى ضماداً للجراح.

لكم أيها القراء:

شكراً لأنكم منحتم هذه الحكايات أعينكم وقلوبكم. فالقصة لا تكتمل إلا بمن يقرأها، كما الفلسطيني لا تكتمل قصته إلا بمن يسمعها. ربما تجدون في "أشجان المرايا" صدىً لضحكتكم، أو دمعةً لم تُذرف بعد، أو حلماً لم يُولد بعد.

وعد أخير:

هذه ليست النهاية... بل محطة في رحلة الكتابة التي سأواصلها، لأن تحت أقدامنا أرضاً تنزف قصصاً، وفوق رؤوسنا سماء تهمس بحكايات جديدة.

دمتم أوفياء للقصص التي نكتبها، والتي تكتبنا أحيانًا دون أن ندري

غنام محمد غنام

مخيم الجلزون – رام الله

2025



السيرة الذاتية

غنام محمد غنام
قاصٌ يحمل حكاية قريةٍ لم تُكتب بعد...

وُلد عام (1972) في مخيم الجلزون، حاملاً في ذاكرته حكايات
- كفر عانا - قريته المُهجّرة في قضاء يافا التي لم يراها إلا
في قصص الأجداد.
حاصل على الماجستير في الإدارة التربوية، والبكالوريوس في اللغة العربية، ودبلوم التربية وعلم النفس.
صقل موهبته عبر دورات متخصصة في الكتابة الإبداعية، ليُزاوج بين العقل الأكاديمي وروح المبدع.

يدير المدرسة الإسلامية الثانوية للبنين (البيرة)، حيث الصفوف الدراسية ورشات تعليم وإبداع، ويعيد صياغة المحتوى التعليمي ليكون جسراً بين المنهج والهوية الفلسطينية.

بدأ كتابة القصة القصيرة في المرحلة الثانوية، لكن (2020) كانت نقطة التحوّل، حين أضاء له الأديب "وليد الهودلي" طريق الإبداع.

اشجان المرايا
باكورته الادبية التي تُمسك بيد القارئ لتجول به في:
- عوالم الفلسطيني بين الالم والمقاومة.
- اللغة العربية، فعل مقاومة وجمال.
- التربية، اداة لصنع وعي الجيل الجديد.

رؤيته

يعيش تحت الاحتلال، لكنه يكتب كما لو أن الكلمات ستحرر الأحجار. يُعدّ الآن لمشاريع أدبية جديدة ترفع صوت فلسطين بلغة تختزل الواقع والحلم معاً.

يؤمن غنام أن القصة القصيرة هي أقصر طريق إلى القلب... وأطول طريق في الذاكرة.

مركز بيت المقدس للأدب